

إبريق إيمان فويل نهضت

الرجل الذي صَلَبَ مَسِيح

أو الإنجيل برواية بيلاطس



ترجمة: وليد بن أحمد

رواية

مسكنة

عنوان الكتاب الأصلي المعتمد في هذه الترجمة

L'évangile selon Pilate

Eric-Emmanuel Schmitt

إبراهيم بن أبي إسحاق

الرجل الذي صَلَبَ مَسِيح

أو الإنجيل برواية يوليانوس

ترجمة: وليد بن أحمد



الكاتب: إريك إيلزويل شعيت
عنوان الكتاب: الرجل الذي سلب المسيح
ترجمة: وليد بن أحمد
مراجعة: رفا الحسيني

خبط للخلال: الفنان سمير قورعة
تنضيد داخلي: سعيد البقاعي
تصميم الغلاف: الشاعر محمد النيهان

ر.د.ك: 0-102-24-9938-978
الطبعة الأولى: 2020

© Editions Albia Michel - Paris 2000, 2005

جميع الحقوق محفوظة للناسخ ©



مكيان للنشر والتوزيع

15 نهج أنقارا تونس - تونس العاصمة

الهاتف: 21512226 (+216) أو 93794788 (+216)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

تمهيد

اعترافات محكوم بالإعدام
ليلة اعتقاله

سيأتون من أجلي بعد سويعات.

إنهم يتأهبون.

تعهد الجنود أسلحتهم. وانتشر الرُّسل في الأزقة المظلمة
يستدعون طاقم المحكمة. وداعب التجار ذلك الصليب الذي
سأنزف عليه غداً دون شك. تهاومت الألسن، فجميع من في
أورشليم⁽¹⁾ يعلمون أنه سيقبض عليّ.

يظنون أنهم سيأغثونني، لكنني في انتظارهم. يبحثون عن
مَنهم، لكنهم سيجدون شريكاً في الجرم.

إلهي، لا تأخذتهم بي رافة! اجعلهم شديدي الحق والشراسة
والسرعة. جنبتي مشقة إغيارهم عليّ. ليجهزوا عليّ في مرعة وإتقان!
كيف حدث كل هذا؟

(1) القدس، تسمية عبرية للقدس العربية وأصلها أورشليم، ومعناها مدينة السلام.

كان يمكّني أن أكون في مكان آخر هذا المساء، محفلاً في إحدى الخانات مع الجميع، مثل سائر اليهود في عيد الفصح⁽¹⁾. كان يمكن أن أنطلق إلى الناصرة⁽²⁾ يوم الأحد متشياً بأداء واجبي. في منزل لا أملكه حقاً، ربّما كنت سأنتظر زوجة ليست لي أيضاً، وأطفالاً مرحين خلف الباب، سعداء بلقاء والدهم. هذا ما انتهى إليه حلمي: في هذا البستان أنتظر الموت بارتياح.

كيف بدأت هذه القصة؟ لهذا المصير بداية؟

عشت طفولة حائلة. في ربوع الناصرة كنت أخلق كلّ مساء فوق الهضاب والحقول. عندما ينام الجميع، أجتاز الباب في خفوت، وأشرع ذراعتي، ثم أتمحّز جيّداً وأأخذ جسدي في الإقلاع. أذكر جيّداً مقاومة الهواء أسفل مرفقي، ذلك الهواء المتهاك أشدّ صلابة من الماء، مضطّخ بعطر الياسمين النديّ يعملني دون أدنى هبة ربيع. كنت أتكامل أحياناً وأجرّ حصيرقي إلى عتبة الباب ثم أخلق، متدّداً فوقها، عبر الحقول المليئة ضباباً كانت الحمير ترفع رؤوسها وأعينها السوداء الجميلة تشاهد مركبتي تمزق وسط النجوم.

ثم حدثت لعبة القار والقطّ تلك. بعدها، لم يعد شيء كما كان.

(1) عيد الفصح اليهودي يحفل به ليلة سبعة أيام في منتصف شهر نيسان/أفريل وهو تذكّار لخروج بني إسرائيل من مصر وتمزّجهم من اليهودية.

(2) هي مدينة في الجليل، في الجزء الشمالي من فلسطين، وفيها نشأ المسيح وترجع وصرف القسم الأكبر من الثلاثين سنة الأولى من حياته.

عند انتصارنا من المدرسة، لم نكن نفكر بغير الركض. كنت مع «موشي»، و«رام»، و«كاسد» أربعة رفاق لا نفرق. أخذنا نلعب في محجر الجيزة. اجتاحتني رغبة في الانتصار جعلتني أتسلق ثلّة صخرية هائلة. تسلقت حتى توقفت عن التنفس تقريباً. ارتفعت وارتفعت حتى ألفتني فوق منبسط يرتفع ست عشرة ذراعاً عن سطح الأرض. في الأسفل، بدا رفاقي مثل قبعات تحيط بها أقدام صغيرة. لم يعثروا عليّ. من فرط ابتعادي، لم يعد يوسعي المشاركة في اللعبة. بعد مضي دقائق، أطلقت صيحة كبيرة لأدّهم على مكاني. أداروا رقابهم نحوي، لمحوني ثم صفقوا صائحين:

- أحسنت يشوع^(١). أحسنت.

لم يدرك أحد منهم مطلقاً أنني أستطيع الوصول إلى ذلك الارتفاع. كنت سعيداً، متشياً بانتصاري. صاح «كاسد» بعد ذلك:

- تعال معنا الآن. سنمرح أكثر نحن الأربعة.

نهضت لأهبط، فتملكني الخوف. لم أدرك تماماً كيف يتسنى لي أن أعود. أقعيت وتلمست الصخرة التي تسلقتها: ملساء. غموني العرق. ما العمل؟

بغنة وجدت حلاً. سأطير. ثماناً مثل كل ليلة. اقتربت من الحافة. ذراعي مفتوحان، لكن الهواء من حولي لم يعد كثيفاً وسلساً كما في ذاكرتي. لم أشعر بأنني أحمل، بل على العكس، كان كتفاي

(١) المسيح ميس بن مريم، ويُعرف أيضاً يشوع بالعبرية ويسوع في العهد الجديد، هرنسي الله والمسيح في الإسلام.

يحملان وحدهما ثقل ذراعي الممدودة، كأنها من البرونز. في العادة، كان يكفي أن أرفع عقبي قليلاً لأفلق، لكن قدمي المتمردتين تسمرتاً على الأرض الآن. لماذا صرت ثقيلاً جداً فجأة؟

ساورني شك كئيل كفتي. ألم أطر البتة؟ هل كان حطماً، مجرد حلم؟ اختلط علي الأمر.

أفقت فرجديني اعلي ظهر أبي، «يوسف»^(١) الذي أسرع «موشي» في استقدامه. لقد غبت عن الوعي. فبط أبي من التلة الصخرية هبوط العارفين بكل مواضع الأقدام الخفية.

قبلني عند السفح. كذلك كان أبي: أي شخص غيره كان سيوتخني، لكنه قبلني.

- لقد تعلمت اليوم شيئاً على الأقل.

ابسمت له، لكنني لم أدرك تماماً ما تعلمته.

أعلم الآن حقيقة الأمر: لقد غادرت الساعة طقولي. فرزت خيوط المنام من الحقيقة، فأدركت أولاً أنه كان حطماً خلقت فيه مثل طير كاسر، ثم رأيت العالم الحقيقي، قاسياً مثل هذه الصخور التي كنت سأتحطم فوقها.

أدركت أيضاً أنني نجوت من الموت. أنا، يشوع؟ لا يحتمل الموت في العادة. طبعاً، سبق أن اعترضني جثث في المطبخ وفي

(١) من وجهة نظر الدين الإسلامي، ولد عيسى بلا أب، ولله هي مريم بنت عمران من آل عمران من بني إسرائيل، أما في اليهود فيعتقدون أن يشوع من ذرية النبي داود.

باحات الضيعات، لكنّها جثث حيوانات. يلغني أحياناً نأ وفاة عمّة أو خال، لكنّهم كانوا عجايزاً أنا لم أكن شيخاً ولن أشيخ، لست دابة ولا شيخاً. كان لي أن أعيش إلى الأبد. أرى نفسي خالداً لا يغنى. لا يعرفني الموت من قريب أو من بعيد. لكنني شعرت اليوم بأنفاسه الرطبة على رقبتني وأنا لعب على التلّة. خلال أشهر تلت، كنت أفتح عينيّ اللتين أردت بشدّة أن أبقيهما مغمضتين. لم تكن لي قطّ كلّ هذه الكرامات. لم أكن عليّاً بكلّ شيء. لم أكن خالداً. باختصار: لم أكن إلهاً.

لأنني أظنّ أنّي تماهيت مع الربّ، مثل كلّ الأطفال، لم أختبر صعوبة الحياة حتّى السابعة من عمري. كنت أراي ملكاً، جباراً، عليّاً وخالداً.. أن تظنّ نفسك إلهاً كان ميلاً طبعياً للأطفال السعداء.

كلّما كبرت صغر شأنّي. أصبح التقدّم في السنّ مسقطاً. لم أدرك حياة البالغين إلّا من خلال الجراح والعنف والأوهام. لقد انتهى الحلم؟ ما هو الإنسان؟ إنّه ببساطة شخص لا يستطيع.. لا يستطيع أن يكون عليّاً بكلّ أمر. لا يستطيع القيام بكلّ شيء. لا يستطيع تفادي الموت. ما إن عرفت حدودي حتّى انتهت طفولتي: في سنّ السابعة لم أجد إلهاً، نهائياً.

بقي البستان هادئاً هذا المساء، بسيطاً كليلّة ربيعيّة. تفتّت الصراخير بالحبّ. ونام الأتباع. لا يملك الخوف الذي شعرت به أيّ صدى.

ألم تغادر فرقة الاعتقال أورشليم بعد؟ هل أخذ الجزع من
يوذا^(١)؟ هيا يهوذا ألا تنهي بي! أثبت لهم أنني انتحلت صفة المسيح،
وأنتي سائرهم منهم سلطانهم. اتهمني. أثبت كل شكوكهم. هيا
يوذا، بسرعة. ليقبضوا علي وليعدموني، بسرعة.

كيف حدث الأمر؟

كيف انتهيت إلى هذه الحال؟

الآخرون هم الذين أخبروني بمصيري: كانوا فادرين على
قراءة مساري الذي لم أستطع فك رموزه. أجل، كان الآخرون
يفحصونني كمن يكتشف مرسًا.

- ماذا تنوي عمله مستقبلًا؟

ذات يوم جاء أبي يبحث عني في الورشة.

- ماذا ستمتھن مستقبلًا؟

- لا أدري، تجاوزًا مثلك!

- ماذا لو صرت حاخامًا؟

تطلعت إليه من غير أن أفهم. حاخام؟ كان راهب قريتا،
الحاخام إسحق، يبدو لي شيعيًا مسنًا، وخبرنا بلحيته المتعفنة التي
تبدو أكبر منه دون شك. لذا لم أستطع تخيل نفسي مكانه. ثم إن

(١) يوحنا الإسكيريوطي، هو أحد تلاميذ المسيح الإثني عشر. تذكر الأناجيل القانونية أن
يوحنا هو من خان يسوع وسلمه لليهود مقابل ثلاثين قطعة فضة، وبعد ذلك ندم على
فعله وردّ المال إلى اليهود ونهب وقتل نفسه.

المرء لا يصير راهباً وإنما يولد كذلك. أنا لم أولد إلا لأكون يشوع،
يشوع ابن يوسف، يشوع الناصري، يعني لست شيئاً ذا بال.
- ففكر بالأمر جيداً.

ثم تناول أبي المسحج ليصقل لوحاً. أدهشني اقتراحه حتى إنَّ
الأيام في المدرسة التوراتية لم تمرَّ دون صداعات.

لم يطالب موسى ورام وكاسد بالشرح وحفظوا كلَّ ما لقنوه، أمَّا
أنا فكانوا يستمنوني «يشوع صاحب الألف سؤال». كلُّ شيء كان
يقدم أسئلتي. لماذا لا نعمل يوم السبت؟ لماذا لا نأكل لحم الخنزير؟
لماذا يعاقبنا الربُّ بدل أن يغفر لنا؟ لأنَّ الأجوبة لم تكن تشفي
غليلي، فمعلّمي يتعلَّل جازماً «إنَّها الشريعة». وعندئذ ألجأني ما الذي
يررِّس الشريعة؟ إلام يستند التراث؟ كنت أطلب بإيضاحات عديدة
حتى منحوني أحياناً من الحديث يوماً كاملاً. طلبتُ معنى كلِّ شيء.

- أبي، هل يحسن الحاخام إسحق الظنَّ بي؟

- كثيراً. لقد أتى بنفسه ليعدّثني عنك مساء أمس.

أدهشني هذا الأمر أكثر. ظننت أنَّ كثرة أسئلتي المزعجة جعلت
الحاخام إسحق يكتشف جهله.

- يرى القديس أنك لن تعبد السكينة إلا في الدين.

أذهلني هذه الملاحظة أكثر من سابقاتها. السكينة؟ أنا أبحث
عن السكينة؟ مهما يكن من أمر، لقد قُلت الجملة. كانت تشغل
فكري كلَّ يوم. «ماذا لو صرت راهباً؟».

توفي والدي بعد ذلك بأيام. سقط إثر ضربة شمس الظهيرة وهو يسلم صندوقاً عند طرف القرية. سكّ قلبه على حافة الطريق. انتعيت بشدة مدة ثلاثة أشهر طويلة. كفكف إخوتي وأخواتي دموعهم، وكذا فعلت أُمّي، لكيلا تزيد من حزننا، لكنني لم أستطع الانقطاع. كنت أبكي الفقيء طبعاً، أبي صاحب القلب الأرق من الخشب الذي كان ينحته، لكنني تعذبت أكثر لأنني لم أقل له كم كنت أحبه، حتّى إنّي تمّيت لو أنّه احتضر طويلاً بدل هذا الموت السريع، لأنّني على الأقلّ من بشّ حبي له حتّى لفظ نفسه الأخير.

يوم انتهت نأوهاتي، لم أكن الشخص نفسه. ما اعترضت أحدًا [لا بحث له بحبي. أول ضحاياي كان موشي الذي تفرّج غضبًا.

- لماذا تنفّوه بحماقات كهذه؟

- لم أقل شيئاً أخرق. قلت لك إنّي أحبّك.

- لكننا لا نقول هذه الأشياء.

- لماذا؟

- هبّا، يشوع لا تكن ضيّاً!

«ضيّ، نزيق»، كنت أعود إلى البيت كل مساء محمّلاً بشتائم جديدة. حاولت أُمّي أن تشرح لي أنّه يوجد قانون غير مكتوب يلزم الناس بكبت مشاعرهم.

- أيّ قانون؟

- الحياء.

- لكن، يا أمي، لا يوجد متسع من الوقت لنعتبر للناس عن مدى حبنا لهم: سيموتون في أي لحظة، أليس كذلك؟

كانت تبكي بركة كلما ذكرت لها ذلك، وتداعب خصلاتي لتهدئ من حدة أفكاري.

- صغيري يشوع، يجب ألا نحمل هذا القدر من الحب، وألا سوف نتألم كثيراً.

- لكشي لا أناألم. أشعر بخنق.

كل يوم يمر يشحتني بأسباب أخرى تغذي غضبي.

حمل لي الغضب أسماء إناث، جوديت، راشيل..

جوديت، جارتنا، في الثامنة عشرة من عمرها، عشقت رجلاً سامياً. عندما تقدّم لخطبتها رفضه والدها. لن تتزوج ابنتها رجلاً لا يعتنق اليهودية. سجننا الطفلة المراهقة في البيت. شنقت جوديت نفسها بعد أسبوع.

رُقت راشيل غصباً إلى مربي أغنام ثري يكبرها بسنوات. كان ذا بطن عظيم، كثيف الشعر، أهر البشرة، ضخم الجثة، وكان يضربها. ضبطها يوماً بين أحضان راع شاب من سنّها. رجم الزانية كل من في القرية. امتنقت ساعتين لتعوت من أثر الحجارة التي رموها بها. ساعتان. أحجار بالئات انهالت على جلد عمره عشرون سنة. راشيل. ساعتان. هكلنا كانت شريعة بني إسرائيل تحمي الزيجات

الغريبة. ولكل هذه الجرائم اسم واحد: الشريعة⁽¹⁾. والشريعة لها مصدر واحد: الرب.

لذلك قرّرت أن أتوقف عن حبّ الرب. اتهمت بكلّ الحماقات والسيئات التي ارتكبتها الناس التّواقون إلى عالم أكثر عدلاً وأوفر حباً، وحرّضت الكون، دليل فشله وكسله، ضده. وحاكمته ليل نهار. أثار هذا العالم حتفي. توقّعت أن يكون جيلاً كصفحة مكتوبة، متناسقاً كترنيمة صلاة. كم تمنيت أن يكون الربّ أكثر حرفية، متبهاً، ويتقن التفاصيل مثلما يتقن الكلّ، إله حريص على العدالة والحب. لكنّ الربّ أخلف وعده.

- يشوع، أنت لا تظلمتني. ماذا سنفعل بك؟

كان الراهب إسحق يداعب لحيته.

ماذا سيفعلون بي؟ في مواجهة هذا الألم، لم يفارقني الغضب مطلقاً. بين كلّ المشاعر التي انتابتنني مطوّلاً، نال الغضب نصيب الأسد. ناهضت الظلم. لم أهادن. رفضت السائد ورمت تصحيح الأوضاع. ماذا سيفعلون بي؟

افتتحت مشغل والدي مجدداً. كان عليّ إعالة إخوتي ما دمت الابن البكر. كنت أصقل الألواح وأشدها بعضها إلى بعض لأصنع صناديق وأبواب وأسقف ومناضد: لم أرتق إلى مرتبة أبي، لكنني لم أخش المنافسة لأنني كنت التجار الوحيد في القرية.

(1) شريعة بني إسرائيل أو التعاليم اليهودية.

صار المشغل، حسب وصف أمي، معبدًا للبكاء. عند أقل عقبة، يزورني أهالي القرية هناك ليقصوا علي مشاكلهم. لا أقدم لهم أجوبة، لكنني أنصت وأنصت لساعات. كنت لهم آذانًا. عندما ينتهون، أجد ألفاظًا رقيقة أستوحىها من مواقفهم. فينصرفون شاعرين بالارتياح. كان من شأن ذلك أن يدفعهم إلى التغاضي عن أخشائي المعوجة.

لم يشكروا أن الحديث إليهم يريحني أيضًا. يند غضبي. فمحاولتي حلّ أهل الناصرة إلى برّ الحبّ والسلام جعلتني أحمل نفسي هناك أيضًا. كانت حاجتي إلى الحياة ومساعدة الآخرين على العيش تطمس غضبي. أدركت أن علي إعادة النظر في فكرة الإله.

كان الرومان^(١) يجهزون الجليل في ذلك العهد. حينها اكتشفت أنني يهودي. يهودي، اضطرت إلى تلقيها كإهانة قبل إدراك ذلك. لم يتوقف الرومان بالناصرة أكثر مما تتطلبه راحة للشرب، لكنهم فعلوا ذلك بغطرسة من يظنّ نفسه أسمى من الآخرين، خلق ليسيطر. تنامي إلينا صدى بطولاتهم من القرى الأخرى، وكذلك عدد قتلتنا وعدد الصبايا المقتصات والبيوت المنهوبة. خضع شعبنا مرارًا للغزوات والسيطرة والوصاية كأننا نعيش لتعرض للاحتلال. تحتفظ ذاكرة بني إسرائيل بأحزانهم، وأحدث نفسي في بعض الليالي الحزينة أنه لولا الشريعة لما كان بنو إسرائيل أكثر من ذاكرة لهذه الأحزان. صرت يهوديًا حقيقيًا بعدما عبر الرومان

(١) جاءت الفيالق الرومانية بقيادة برميوس سنة ٦٣ قبل الميلاد وأصبحت فلسطين ولاية رومانية.

الناصرة وأذلّوها. عندها شرعت في الانتظار. انتظار المخلص. الحق الرومان الذلّ والخوان برجائنا ومعتقداتنا. لم أجد جواباً للعار الذي أصابني سوى انتظار المسيح.

عجّ الجليل بأعداد كبيرة من منتحلي صفات المسيح. لا تكاد تمرّ سنة أشهر حتى يظهر مسيح جديد. كان المسيح يفد في كلّ مرّة قذراً، هزيراً، جائعاً. لم نكن نأخذه على عمل الجدّ، لكننا ننصت إليه رغم ذلك، «من يعلم؟»، كما كانت أمي تقول.

- من يعلم ماذا؟

- قد يكون المسيح الحقيقي.

كان يبتنا في كلّ مرّة بنهاية العالم، بثلث الظلمات التي لن ينجو منها سوى الأخيار، بليلة ستخلصنا من كلّ الرومان. على الاعتراف بأنّ التوقّف لحظة لسماع الروايات الحماسية هؤلاء المتنوّرين كان أمراً طيباً في خضمّ حياة العمل الدؤوب التي نعيشها. يضوّهون بضروب من الجنون لا تخطر لنا على بال. شدّ ما كانوا يبتون في أنفسنا خوفاً دون عواقب، حتّى بات خطابهم عرضنا المفضل. كان في وسع المتميّزين منهم حملُ العامة على البكاء.

لم يتأثروا بنا كثيراً. كانوا قصاصين، واليهود يعشقون القصص.

كانت أمي تنظر إلى قطع أثاثي برقة:

- لست موهوباً يا يشوع.

- أحاول إنقاذ عملي.

- حتى إذا حاولت.

اعتقدت أنّ قدرتي كان يحتم عليّ أن أقوم بعمل أبي، متخليًا عن فكرة التحول إلى راهب. طبعًا، كنت أقضي ساعات القيلولة الطوال في الصلاة والقراءة، لكن بمفردي، معنًا في النقاشات الباطنية. اعتبرني ناصريون كثيرون شخصًا محلاً بفرائضي الدينية: يوم السبت⁽¹⁾ أوقد النار، أو أعالج أخًا لي أو أختًا مريضة. كان الراهب إسحق يأنس من سلوكي ويخفي الأمر عن الآخرين.

- يشوع أتقى عما يبدو عليه، اتركوا له مسأله من الوقت ليدرك ما أدركتم.

كان يحدثني بحزم أكبر:

- هل تعلم أنّ رجالاً رُجموا بسبب ما تأتيه؟

- متى مستزوج، أضافت أمي. انظر إلى موشي ورام وكاسد: لكلّ منهم أبناء. لقد جعلني إخوتك الصغار جدّة منذ مدّة. ماذا تنتظر؟

لم أكن أنتظر شيئًا. لم أفكر بالأمر قطّ.

- هيا عزيزي يشوع. عجل بالزواج. عليك أن تبدي بعض الجعديّة. الآن.

(1) يوم السبت هو يوم العبادة عند اليهود، أو هو اليوم الأسبوعي المقدّس، ويوم الراحة من الأعمال والاحتفال الديني للأسرة، وفيه يحرم انقيام بكثير من الأعمال.

«الجدّة!» هي أيضًا صدّقت الأمر. رسخ في بال أمي، تمامًا
مثل كلّ أهل القرية، أنني كنت زير نساء! زير الناصرة. لأنهم كانوا
يروني أفضي الساعات في التجوال مع هذه أو التحدّث إلى تلك،
فخلصوا إلى أن لي عشر علاقات.

أعترف أنني كنت أميل إلى رفقة النساء وأنهن كنّ يميّن رفقتي.
لكنّنا لا نخفي في الأجمات أو المخازن حيث تحتك أجسادنا. كنّا
نتجاذب أطراف الحديث. نتكلّم النساء بصدق وشفاههنّ ألست
لقلوبهنّ.

استقبلني موشي ساخرًا:

- لن توهمني بأنكم لا نأتون شيئًا.

- أجل. نتحدّث حول حيواننا وذنوبنا.

- نعم، هذا هو. ما حدّث رجل امرأة بخطاياها إلا أضاف إليها
خطيئة أخرى.

ازدادت حيرة أمي.

- متى تتزوّج؟ لا أظنّ أنك ستقضي حياتك أعزب. ألا تريد
أطفالًا؟

إطلاقًا. في الواقع، لم أحلم بأبناء، لم أشعر بأنني بلغت من
النضج ما يجعلني أنجب. كنت أتوهم أنني سأظلّ طفلًا. كيف لي
أن أمسك بيدي طفل؟ أين سأحمله؟ ماذا أقول له؟ لكنّ ضغط أمي
وأخواتي وإخوتي تواصل: لماذا لا تتزوّج؟

من أجل ذلك كانت ربيكا. ابتسامة ربيكا تذيب النسيم وترسم أمامي فتركتي بلا حراك، تلهب منها رقبتي ويحفّ منها لاني. لقد أسرتني في ثوان. ما سبب كل هذا؟ صغيرتها السوداء الكثيفة؟ أم يياض بشرتها الرقيقة كقلب؟ هل هما عيناها الهادستان؟ أم مشيتها التي تغار منها الرقصة؟ أم قوامها الممشوق الذي يلعب لعبة التخفي تحت فستانها؟ ثم ظهر الدليل: كانت ربيكا أكثر النساء أنوثة، اختصرت وفاقت جميعهن. كانت هي أو لا أحد. لم أضطر إلى مغازلتها. وشت حالي بي. أظن أنها أحبّتي، هي أيضًا، من أول نظرة. أسرع العشق إلى التمكن منا.

تفطنت أسرتنا إلى الأمر بسرعة وشجعتنا. كانت ربيكا تمش في نعين ولبس في الناصرة، بين أسرة غنية لصانعي دروع. ذرفت أمي دموع الفرح لما ألغنتني أخصص مدخراتي لأقني سوارًا من الذهب. أخيرًا تقدّم ابنها بطلب زواج مثل الجميع. ذات مساء، اصططحت ربيكا إلى فندق على ضفة النهر لأطلب يدها. في شرفة تضيئها الشموع وتعطرها قطرات الندى كانت هناك مناظرة تستظر العشاق. خنت ربيكا الأمر فتأثقت على غير عادتها. أحاطت الحلي بوجهها مثل مصابيح صغيرة جعلت لتيرها وحدها.

- ساعدونا لوجه الله.

عجوز وابنه في أسماك بالية كانا يمدّان أيديهما القنطرة الخشنة استجداء.

- ساعدونا لوجه الله.

زفرت منزعجًا.

- عودًا لاحقًا.

ابتعد الشيخ ومعه الطفل.

شرعوا في خدمتنا. أثارت الأسماك واللحوم المختلطة شهيتي.
جلس الشيخ وابنه على حافة النهر يشاهدانا نأكل بشهية، بانتظار
أي إشارة منا لينضمّا إلينا. أزعجتني نظراتهما حتى إني أشحت
بوجهي كي لا أنظر في اتجاههما.

جعل النيذ ريبكا ترنحي وتضحك من كل كلمة. أنا أيضًا
انجذبت إلى دائرة الحب هذه حتى خلت أننا كنا نشكل معًا مركز
الكون، وأن الأرض لم تعرف هذه الليلة ثنائيًا أو فرمًا شبيهًا وحيوية
وجمالًا. عندما حانت التحلية، أهدبت ريبكا السوار. أتيها فتنها،
الحلية أم صنيعي؟ انبرت تذرف الدموع.

- أنا صعيدة جدًا، نطقت بصعوبة.

أصابني عدوى اليكاء. جمعنا هذه الدموع والتصق جسدانا
في رغبة محمومة.

- نسألکم بعض الإحسان، من فضلكم.

عاد العجوز والطفل منهكين، جائعين.

صرخت ريبكا غاضبة وتذمرت لصاحب الخان بأنها لم تستطع
تناول عشاءها في هدوء. في تلك اللحظة، لم أكن أهتم بغير ريبكا،

بجد ربيكا، وبفخذي ربيكا. طرد صاحب الحان العجوز وابنه
بضربات مناديله. ابتسمت لي ربيكا. اختفى الشيخ والطفل في ظلمة
الجوع.

نظرت إلى أطباقنا وعليها كل ما تركناه دون أن نأكله. شاهدت
أيضا الحلية التي أهديتها لي ربيكا. تطلعت إلى سعادتنا ولذت
بالصمت.

صار الجو فجأة بارداً.

- سأرافقك إلى البيت.

من الغد، فسخت خطوطنا. ذلك المساء على ضفة النهر،
أدركت، بسبب حاسة الحب التي جعلت أحدا يلتصق بالآخر، أن
في السعادة شيئاً من الأمان. تعني السعادة شيئاً من العزلة والسرية
والنوافذ المغلقة ونيان الآخرين؛ تشترط السعادة أن نرفض رؤية
العالم كما هو؛ في غضون ليلة واحدة بدت لي السعادة شيئاً لا يطاق.

أردت تفضيل الحب على السعادة، ليس ذلك الحب الذي كنت
أكنه لربيكا، ذلك الحب الذي يحكمه التملك والمصالح المتبادلة.
لم أجد أرحب في الحب على نطاق ضيق، وإنما رغبت في حب
أرحب. سأحتفظ بالحب للشيخ والصبي الجامعين. سأهب الحب
للناس الأقل وسامةً والأقل ظرفاً، أولئك العاجزين عن النظر به
بمفردهم، سأهب الحب للناس غير المحبوبين، لم أخلق من أجل
السعادة، وهكذا فإنني لم أخلق من أجل النساء. لقد علمتني ربيكا

كُلَّ الأمر رغما عنها. بعد مضيِّ ستة أشهر، رَفَّت ربيكا إلى مزارع
وسيم من نعين وصارت له زوجة محبة ومخلصة.

- ابني البائس، كيف تملك هذا الذكاء وتأتي كُلَّ هذه الحماقات؟
قالت أمي. أنا لا أفهمك.

- يا أمي، لم أخلق لأعيش حياة عادية.

- فيم خلقت، يا إلهي، فيم؟

- لا أعلم. ليس مهملًا. لم يكن الزواج قلدي.

- وما هو قدرك؟ لو كان والدك حيًّا على الأقل.

لو كان أبي حيًّا هل كان لي أن أوجَد في هذا البستان أنتظر موتي.
هل كنت سأجرو؟

واصلت الاشتغال بالنجارة وأصبحت حكيمة بالناصرة بتوافد
عليَّ الناس، خلصة من الراهب، لاستشارني حول مصاعب الحياة.
كنت أساعد القرويين على تجاوزِ محنهم. ومنها أن صديقي موشي،
الذي لم يفارقني منذ الطفولة، فقد ابنه. كان من النادر أن نرى
في القرية رجلًا يبكي فقدان ابنه، فالآباء يعلمون أن الحياة زائلة
ولذلك كانوا حذرين من التعلُّق كثيرًا بأطفالهم في سنواتهم الأولى.
زارني موشي في المشغل مكلِّمًا يتحب.

- لماذا ابني؟ لم يتجاوز سبع سنوات.

موشي المسكين. كان جفناه مغلقين ليحبس دموعه. ذهبت

مضموم كقبضة، وجمجمته مملوءة دبائيس. كان موسى يتألم. لم يتقبل فكرة الموت وكان يحتج.

- لماذا ابني؟ لماذا في هذه السن؟ لم يذنب قط. لم يجد الوقت لذلك. هذا ظلم!

ظلم. هذا ما نرّف به عقله. كان يطلب الفهم ولم يدركه.

- لماذا استرّده الرب؟ هل يوجد إله يهلك الأطفال؟

تحدّثت إلى موسى برقة:

- لا تطلب المستحيل.

لكي تتحمّل هذا العالم، يجب أن تتخلّى عن فهم ما يتجاوز إدراكك. أبداً، ليس الموت عقاباً، لأنك لا تدرك ماهية الموت. كلّ ما تدركه هو أنّه حرمك ابنك. لكن أين هو الآن؟ ما الذي يشعر به؟ ليس عليك أن تغضب: اصمت. لا تحتجّ. تعلّق بالأمل. لا تعلم ولن تعلم كيف يفكر الرب. كن متأكّداً أنّ الرب يحبنا.

- حبّ ظالم.

- ما هو العدل؟ أن تمنح نفس الأشياء للجميع. الرب يهبنا جميعاً الحياة، ثمّ الموت بالتساوي. تختلف الأمور بحسب الظروف.

لم يقتنع موسى. لم يشأ أن يؤمن. اضمحلّ إيمانه في مواجهة الألم. كان يعود إلى المشغل كلّ يوم ويبكي ويرغي ويزبد وأحياناً ينزعج من هدوئي:

- ألا تشعر بشيء؟ لقد بكيت موت والدك رغم ذلك! ماذا دار بخلدك؟

- عندما رحل أبي، قلت لنفسي إنه لم يعد لدي وقت أهذره في حب الناس. مثلك تمامًا يا موشي. تعذبت من الألم، لكن العذاب ليس مناسبة للمكره وإنما هو فرصة للحب.

رفع رأسه نحوي وبدأ أنه ينصت لي أخيرًا. واصلت الحديث:
- مات ابنك البكر؟ لا تتوقف عن حبه. أحب الآخرين أيضًا، أولئك الذين تبغوا لك. أسرهم بحبك. بسرعة. ذلك الأمر الوحيد الذي يلقننا إياه الموت: ضرورة أن نحب.

توقف موشي عن النحيب منذ ذلك اليوم. لم تنته حسرته على الفقد لكنه حول محنته إلى عاطفة تجاه أقاربه. لا شيء يقرب الأسي، لكن الشجاعة تجعله أمرًا نافعًا.

مرت بضع سنوات. بدا لي أنني عرفت الاستقرار أخيرًا. عرفت مواعظي تطورًا هائلًا لم يشهده أثنائي وهاكلي الخشبية. كنت أهدئ من روع القرويين.

ناء الراهب العجوز بثقل السنين فأوفد معبد أورشليم كاهنًا آخر، يدعى ناحوم، ضليعًا في الكتاب المقدس. في غضون أسابيع، أدرك أن صوتًا آخر غير صوته كان مسموعًا في القرية. تناهت إليه أحاديثي، فاقتحم مشغلي حانقًا.

- من أنت حتى ترى نفسك قادرًا على شرح الكتاب المقدس!

من أنت حتى تعظ الآخرين؟ هل تردّد على مدرسة يهودية؟
هل طبقت الشريعة كما فعلنا نحن؟

- لست من يعظهم. إنّه نور يسطع أثناء صلواتي.

- كيف تجرّو؟ أنت لا تفلح سوى في جمع النشارة وتريد هداية
شعب بأكمله؟ لا يحقّ لك أن تنفّوه بما تريد حول الكتب
المقدّسة أو تقول ما يحلو لك باسم الربّ! سيحاسب المعبد
كلّ مغرور مثلك. لو كنت في أورشليم، لقتلوك رجماً.
أخافني ناحوم.

أغلقت المشغل لبضعة أيام واعتزلت في نزعات طويلة.

كان ناحوم على حقّ دون شكّ: صرت مرشد القرية الروحي
دون أن أنتبه إلى ذلك، وكنت أصالح من هنا وأقوم بقسمة من
هناك، أهذي من حدّة الغضب، وأنكلم باسم الربّ. لقد غنمت
هذه القدرة على التأثير بسلامة لم تركني أدرك كم كانت استثنائية.
هكذا كشف لي هذا الكاهن الشاب أنّني كنت أعظ الناس على غير
هدى بسبب الاتّفة. سأرجم! لقد تنبأ ناحوم بالحقيقة. سيفودني
تفرّدي ومعارضني للمعبد إلى الرجم. رغم ذلك، غابت عنه أمور
أخرى: أنّني كنت سأتمنّى هذا الموت يوماً وأنّ الرومان سيحبّطون
عذاب الصليب إلى أورشليم. سأحتضر غداً دون شكّ مقيداً إلى
عمود من الخشب أعده نجّار من أجل نجّار آخر.

- هل تعلم أنّ قرييك يوحنا صار حديث الجميع؟

حلت نظرات أُمِّي بريقًا.

- أَيْهِمْ؟

- ابن قريتي اليزابيث، تعلم ذلك. يقولون إنه بارع في الحديث مثل الأنبياء.

ليست لحظة مناسبة يا أُمِّي. لقد استنفدت كل الفضول الذي أوليه لمحتلي النبوة ولكل مسيح مزيف. كنت أحاول أن أفهم نفسي. لكن أُمِّي أَلَحَّت.

- هل كان ذلك اهتمامًا بالدين أم فخراً عائليًا؟

لم توقف أُمِّي حديثها عن قريبها.

- يتصبب يوحنا على ضفة نهر الأردن ويغسل ذنوب الناس الذين يقدون إليه ويغمر رؤوسهم تحت الماء. لذلك يدعى يوحنا المغطس⁽¹⁾.

فتحت مشغلي مجددًا، لكن القرويين لم يجرؤوا على المجيء خوفاً من ناحوم. لم يأتوا حتى للترود بالأخشاب. شيئاً فشيئاً، صار الناس يواعدوني تحسناً للحديث معي كشأنهم الأيام الخوالي. كنا نلتقي أواخر اليوم، بعيداً عن القرية، عند البحيرة حيث يتأبني شعور بأن السكينة تلفنا وأنتي أجد هدوءاً مريحاً يشه الرب في مياه الشفق

(1) أو يوحنا المعمدان وهو من عمّد يسوع المسيح. ولد بحسب الإنجيل من والدين تقيين هما زكريا والكاهن واليسابات، وهو النبي يحيى بن زكريا في الدين الإسلامي.

المخملية غامًا مثل الذي تجده في الصلاة، ومثل يدين مضمومتين أسفل السماء المرصعة نجومًا.

علم ناحوم بالأمر واتبعني صارخًا. لقد أخافني. هل غدوت وحشًا مغرورًا؟ هل من العادي أن أزعم الوصول إلى الحقيقة في داخلي وليس في الكتب السماوية؟ كيف وثقت بذاتي إلى هذا الحد؟ كنت أحتاج إلى تطهير نفسي، احتجت إلى مساعدة، إلى مرشد أو حتى إلى معلم. كان لزامًا علي أن أزور يوحنا وأغسل من خطاياي.

اتبعت مجرى نهر الأردن الملتوي. كلما توغلت اكتظ الطريق بالمسافرين. فاقت غزارة الأدميين النهر ضخامة وتوافد السائرون من كل حذب وصوب، من دمشق وبابل وأورشليم وايدوميا. أقيم مخيم في بيطانيا: بضع خيام، بعض المواقد وأسر بأكملها، مئات من الرجال والنساء.

انعكس طيف يوحنا المغطس على صفحة المياه الضحلة وساقاه منفرجتان في ركن من النهر محاطًا بالصخور. على ضفة النهر، تشكلت صفوف طويلة من الحجيج في روية وهدوء لم يشقه سوى نداء العصافير التي حلقت فوق الماء.

كان يوحنا يشبه رسمًا مشوهًا لنبي: شديد الهزال، كث اللحية، كثيف الوبر، تغطيه قطع قذرة من جلد الإبل حلق حولها وطقن ذباب جذبه الرائحة التنة. بقيت عيناه الواسعتان ثابتتين على نحو مزعج. كانت بداوته صارخة. شعرت بهوان وأنا أشاهد محاكاة ساخرة لكل ما كنت أتمناه وأرجوه، مشهدًا مقنعًا لأسمى توقعاتي.

تفرست قلوب الحجاج، بشكل مفاجئ، لم يحضر اليهود فحسب،
وإنما حضر الرومان ومرترقة من الشام، أناس لم يعرفوا التوراة قط
ويجهلون كل شيء عن كتبنا المقدسة. عمّ يحشون هنا؟ ما الذي
حرمتهم شعائرهم ووعدهم به المغطس؟

اقتربت من آخر زائرین كانا ينتظران دوريهما على الضفة.

- حان دوري، قال البدين.

- أمّا أنا فلن أذهب، ردّ النحيف. لا أدري لم عليّ أن أنظهر،
فأنا أطبق شريعتنا بحذافيرها.

- أشقاء. أدياء وقذرون.

تناهى إلينا صوت يوحنا المغطس. كان سمعه حادًا، فمن شبه
المستحيل أن يسمعهما بشر مثله من هذه المسافة والهواء تشقه أصوات
مياه النهر المتلاطعة.

صرخ يوحنا المغطس بانتهاء الأعجف:

- أيها الثعبان. أيها الخنزير القذر. هل تظنّ أنّه يكفيك تعلّقك
بالقشور من الشريعة حتّى تكون نقيًا؟ لا يكفي أن تغسل
يديك بعد الأكل وتمارس طقوس السبت لكي تتجنّب
الخطايا. عليك بتوبة نصوح لكي تكفّر عن ذنبك.

أثّر في خطابه مثل لسعة ذباب الخيل. أليس هذا ما فكّرت فيه
بمفردي كلّ هذه السنوات؟ واصل يوحنا المغطس وقد ارتجّ
جلده المنزّل من الغضب، غضب لا ينضب يغذّيه استشعار الإلحاد.

بدائي واضحا أن يوحنا رجل مستقيم حتى دون نبوة. فوجى الحاج النحيل بسميه في هذا السيل من الشاطئ، ونظر إلى رفيقه مترجعا لا يلري ما كان عليه القيام به.

- اقرب، صاح يوحنا.

تقدم الرجل بضع خطوات في الماء.

- عاريا! عاريا كما خرجت من بطن أمك.

أطاعه الرجل دون أن يعرف سببا لذلك، تخلص من ثيابه وتقدم نحو يوحنا الذي أخذ رأسه بيده الكبيرة. تطلع إلى عيني الأعرج بانتهاء من يدق مساهرا.

- ائدم على خطاياك. تفاعل خيرا. اطلب العفو. وإلا..

ماذا حدث للرجل؟ هل خاف؟ هل استجاب؟ حتى بدا أنه ناب تربة نصوحا، فبعد بضع ثوان، دفعه يوحنا تحت الماء بقوة وأبقاه طويلا حتى تسربت منه فقاقيع هواء. أفلته أخيرا ليرتفع إلى السطح منقطع النفس.

- انطلق. لقد غفر لك.

عاد الرجل إلى ضفة النهر مترنحا. وما إن وطئ اليابسة حتى انكمش واضعا رأسه بين ركبتيه، وراح يتعجب. أسرع رفيقه البدين نحوه يواسيه، لكن الهزيل رفع رأسه وغمغم:

- حمدا للرب. شكرا. شكرا لتجاوزك عن سيئاتي. كم كنت نجسا.

مال الشفق إلى اللون البنفسجي. ابتعد يوحنا المغطس يطلب الاختباء في كهف كان يقضي فيه ليلته. علمت ذلك المساء، وأنا قرب جذوة نار في المخيم، أن يوحنا لم يكن يشرب غير الماء، ولا يأكل شيئاً تقريباً. أعجبت بروحه القوية لأنني شعرت بعجزتي عن حرمان نفسي اللحم، الخبز والبيض.

- لماذا يضع قديس مثله جلد بغير، تساءل أحد الحجاج. إنه دابة نجسة مثل الخنزير والأرنب؟ هذا يخالف الشريعة!

لاحظت أيضاً أن أكثر المعجبين بيوحنا لم يبدُ عليهم أثر. فهمهم لرسالة الأسامية هو التالي: ليس التقيد بالشريعة بحذافيرها ما يجعل القلب نقياً وإنما هو التزام الروح وحدها. إثر الغداء، تعرّفت إلى تلميذه الشابين أندريه وسيميون. أمضينا جزءاً من الليل نتحدث عن يوحنا ومنهاجه المخالف للمعبد عما جعل وضعه هئلاً. قارئاً بما كنا نعلم عن رهبان فمران، أولئك الأسينيون الذين كانوا يغسلون الخطّائين أيضاً.

من الغد، جلست على صخرة عند حافة النهر حيث تمكّنت من مراقبة يوحنا دون أن يراني. كان يطالب بتطهير الأجانب أولاً.

- اغتربوا معشر الرومان. وأنتم أيها اليهود، أنصتوا واستخلصوا العبر. لا يكفي أن تكون يهودياً لتنال الخلاص. لا تكفوا بترديد «إبراهيم أبونا»، لأنّ الرب يستطيع أن يأتي بقوة لإبراهيم من كافة أصقاع الدنيا، وحتى من الصخر. تقدم الجنود الرومان الخمسة.

- كيف يجب أن يكون ملوكنا؟
- لا تظلموا ولا تخطئوا في حق أحد، وانتموا بأجوركم.
- ثم استقبل جامعي الضرائب.
- لا تزيدوا شيئاً على ما أمرتم به.
- ثم عليه القوم الأثرياء.
- من يملك ثوبين فعليه أن يقاسمهما المعلمين. ومن يجد طعاماً عليه أن يتقاسمه أيضاً.
- عندما ارتفعت الشمس إلى كيد السماء، قدم وفد من أورشليم.
- أرسل المعبد لجنة من الكهنة والقساوسة ليتحروا في أمر يوحنا.
- من أنت؟
- ادعى يوحنا المغطس.
- يقولون إنك النبي الياهو قد بعثت إلى الحياة.
- هنا ما يقولونه، وما لم أدعه قط.
- يشيع آخرون أنك المسيح الذي أشارت إليه التوراة.
- لست المسيح، وإنما أنا من يبشر به. أنا الصوت الذي يصيح في القفلة «مهّدوا الطريق للرب».
- لا تزعم أنك المسيح إذن؟
- لست أهلاً حتى لفكّ نعاله. عند مجيئه سيغمّ الحق ويتنم

المظلومون. سيحرق المذنبين مثلها يحرق التبن بعد تنقية الحب الطيب.

- لست المسيح ولست الياهو، فلماذا تغمر الأجساد تحت الماء؟ من منحك حق غسل خطاياهم؟

- أمهد الطريق للمسيح. إنه آت. سيتصب المتظر بين ظهرانيكم وسأخفي ليلتها.

نظر الناس إلى بعضهم على الضقة. تساءلوا هل كان حديث يوحنا استعارة قابلة للتأويل أو إعلاناً عن وجود المسيح حقاً على ضقة نهر الأردن.

- لست سوى كشاف بوطن الطريق للملك بتمهيد طريق التوبة. لكنه آت. قريباً يأتي ابن الرب الذي بشر به النبي دانيال.

اقتنع الجمع بفكرة الاستعارة. أما أنا فقد شعرت بتوتر خفيف؛ اعتقدت لو هلة أن يوحنا المغطس كان يرمقني رغم المسافة الفاصلة بيننا.

رحلت اللجثة إلى أورشليم مطمئنة. في نهاية المطاف، لم يكن يوحنا سوى متوهم لا خطر فيه. مادام في مستنقع يغمر الحجاج في البركة فهو لا يتنازع أحداً على السلطة.

مرّت القيمة وتقدمت عبر الماء ليظهرني يوحنا. عندما لمحني أخطو نحوه، زوى ما بين حاجبيه.

- أنت، لقد عرفتك.

- أنا قريبك. ابن - يسم، قرية أمك اليزابات.

عبس، كأنه لم يفهم قوتي، كررت ببطء.

- لقد عرفني لأنني قريبك من الناصرة.

- عرفتك لأن الرب اصطفاك.

بدا أن قوله فاجأه هو أيضًا. كان يتأملني كأنني شيء غريب،
بغته، شرع يصيح لكي يسمعه كل الحاضرين:

- هذا الحمل الوديع الذي أومله الرب لينزع الخطيئة من
الكون.

لقد صرخ بقوة أصمتني. شعرت أن الناس على الضفة تسعروا
في أماكنهم لتأمل المشهد. حطت نظراتهم عليّ. لم أعد أدري ما عليّ
قوله أو القيام به. غمغمت بسرعة:

- اغمرني في الماء بسرعة. لنهي الأمر.

لكنّ يوحنا صرخ في حقّ:

- أنا من يحتاج إلى أن تطهرني. أنا من يتوسّل إليك وأنت تأتي
إليّ! أنا أحبّك.

فاق الأمر احتمالي. ارتعشت ساقاي. فقدت توازني وأغمي
عليّ. احتملني يوحنا بين ذراعيه حتّى الضفة. هناك، اعتنى بي
أنلدريه وسيميون ذاتلدين عني الحشود التي أرادت رؤية ملاحي.

روت النسوة أنّ حمامة هبطت من السماء لحظة إغمائي وحطّت على
جيني. أنا بطيعة الحال لم أشهد شيئاً. في الواقع، بدأ كل شيء هناك.
ليلة جميلة سهاؤها صافية. هدوء ملح.

جعلني هذا الانتظار أشعر بالفراغ. كنت أفضل الحديث أو
الصراع أو الحركة. بدل ذلك، كنت أمدّ رقبتني وأرهف سمعي
نحو أيّ ضجيج، منصتاً لصليل السلاح. لم أكن أستمع للموت،
لكنّ صبري نفد. الموت ولا العذاب. لماذا تأخر الجنود؟ لا يستغرق
الطريق من المعبد إلى جبل الزيتون طويلاً. تملك الثعالب جحوراً
والطيور أعشاشاً، أنا أنا فلا مكان لي أريح عليه رأسي.

أرهقني أندريه وسيميون أسئلة إثر إغمائي. من أنا؟ ماذا
اقتربت؟ لماذا دعاني يوحنا بالمختار؟

- لم أفهم ما عناء يوحنا. لست سوى نجار فاشل ومؤمن
ضعيف من الناصرة.

- هل ولدت بالناصرة؟

- لا. في الواقع، ولدت في بيت لحم، لكنّ الحكاية طويلة.

- ذلك مكتوب. ذكر ميثي أنّ «المختار يخرج من بيت لحم».

- أنتم غطثون.

- هل أنت من نسل داود؟

- لا

- هل أنت واثق؟
- يعني... توجد أسطورة قديمة تناقلها العائلة تقول إن...
- لنكن جدّيين! هل تعرف أسرة يهودية واحدة من فلسطين لا تزعم أنها من نسل داود؟
- هو أنت إذن! المختار من صلب داود.
- اختلط عليكم الأمر
- ماذا ستعلمنا؟
- لا شيء. لا شيء على الإطلاق.
- هل تحسبنا غير جديرين بذلك؟
- لم أقل هذا!
- هل يمكننا اتّباعك؟ أن نسخر لك حياتنا؟
- لا سبيل إلى ذلك!
- لم يبق لي غير الرحيل. كان عليّ الفرار من الثروة والخز عبلات. مدة ثلاثين عامًا، أكل الجميع، سواي، برأيهم حول مصيري. سحقت تحت وابل نصائحهم، صنّفتي بعضهم تقيًا وحسبني الآخرون أثامًا. تمهالونني واعترفوا بي، استعجلوني واحتجزوني، عبدوني وشتموني، سخروا مني وقذسوني، أنصتوا إليّ وبغضوني واستجوبوني، لم أعد إنسانًا وإنما بيتًا فارغًا كلّ ملأه اثاثًا بحسب عقيدته. لم أعد أرقّد غير صدى الآخرين.

لذت بالفرار. توغلت في مجاهل الأرض حيث لا يوجد بشر،
 حيث النباتات برية والماء نادر، هناك حيث لا فرصة للقاء أحد.
 في القفلة، لم أتمن لقاء أحد سواي. رجوت أن أكتشف نفسي من
 خلال عزلتي. سأعلم حتماً لو كنت فعلاً شخصاً أو شيء مميزاً. في
 البداية، لم أتوصل إلى شيء. اعترتني مشاعر لا تمتّ لذاتي بصلة،
 الانزعاج والتعب والجوع والخوف من المستقبل.. بعد مضي أيام،
 تلاشت قدارة الأسابيع الأخيرة وعدت ابن الناصرة من جديد.
 ذلك الأمل النقي في الحياة، ذلك العشق لكل لحظة، ذلك الله بكل
 الوجود. شعرت بتحسن، لكن إحسامي بالحياة تواصل. أهكذا لا
 يحقق الإنسان وجوده تماماً؟ هل سنجد طفلاً إذا ما جردنا الرجل
 من ثيابه؟ لا تزيدنا الستون إذن غير الشعر واللحية والمشاكل
 والخلافات والإغراءات وندب الجروح والتعب والشهوة، لا شيء
 غير ذلك؟

هكذا كانت سقطتي. سقطتي التي دفعت بحياتي ودفعتني
 أيضاً. كانت سقطة ثابتة. كنت جالماً أعلى نتوء صخري أملس.
 لم يحط بي شيء سوى القضاء. لم يحدث شيء أشعر به سوى مرور
 الزمن. راودني ملل ممزوج بالسكينة. كنت أملك ركبتي بكفي.
 بفتة، دون أن أبدي أي حركة، شرعت أهوي..

هويت..

هويت..

هويت..

تدحرجت في داخلي. كيف كان علي أن أشك في وجود جرف
مثل هذا، جرف شاهق داخل جسد إنسان؟ كنت أعبّر الفراغ! ثم
راودني شعور بأنني أخفف من سرعتي، وشعرت بقوامي يتغير
وبوزني يخف، وفقدت كثافتني أمام الهواء. لقد صرت الهواء.
جعلتني السقطة خفيفًا. صرت أحلق.

تم التحول رويدًا رويدًا. كنت نفسي ولم أكن نفسي. كان لي
جسد ولم يعد لي جسد بعد ذلك. واصلت التفكير، لكنني لم أعد
أقول «أنا».

انتهيت إلى بحر من الضياء.

هناك، شعرت بالحر.

عندئذ أدركت كل شيء.

عندئذ شعرت بثقة تامة.

انتهيت إلى آتون الحياة، في العمق تمامًا حيث يُصهر كل شيء،
ثم يكوّن ويُنسِ. لم أعثر على نفسي بداخلي، وإنما عثرت على ما هو
أكثر من ذاتي، بحر من الجسم المصهورة، لامتناهٍ، متحرك ومتغير
حيث لا أثر لأي كلمة أو صوت أو خطاب، وحيث راودني شعور
جديد، مذهل، هائل، فريد، لا ينضب: ذلك الشعور بأن لكل شيء
مبرّرًا.

انتفضت من أثر صوت خشن وخفي في آنٍ لبحلية تسلّت
بين الأجسام. في لحظة ارتفعت من مركز الأرض. كم ساعة مرت؟

انقضت الليلة في سكونة تشبه استراحة منحت للرمل المحروق والأعشاب الجافة كأنتها مكافأة يومية. كنت على ما يرام. لم أشعر بالعطش ولا بالجوع. لم يعتريني عذاب التوتر. كنت أشعر بالاكفاء. لم أكتشف نفسي في أعماق هذه الصحراء. لا. لقد اكتشفت الرب.

منذ ذلك اليوم، أعدت الرحلة الثابتة يوميًا. كنت أتسلق التلة وأسير أغوار ذاتي. كنت أروم التحقق من السر. ألتحق بالنور الذي لا يحتمل، وأرتقي في أحضانه حيث أقضي زمنا لا يقدر. علمت أن هذا الصفاء الذي لحته في طرفة عين، أحيانًا لحظة الصلاة في طفولتي، سيمتص العالم دفنًا، لكنني لم أتصور أنه كان متاحًا. كان في داخلي أمر آخر. في داخلي كائن ليس أنا، لكنه ليس غريبًا عني. في داخلي باطن يتجاوز إدراكي، لكنه يشكلني، رحابة غامضة تجعل كل شيء قابلاً للإدراك، وحدة أنحدر منها، أب أنا نجله.

بعد مضي تسعة وثلاثين يومًا في الصحراء، قررت العودة بين البشر مسرورًا باكتشافي أكثر مما كنت أرجوه. لكنني رأيت شعبًا نافعًا، عمدًا على الأرض لحظة وصولي إلى مجرى نهر الأردن الظليل المنعش. كان يتعفن وفمه مغفور يجذب أعملة من النمل، لكن العيون الصفراء لحيته لم تزل تبدو ساخرة. خامرتني فكرة: ماذا لو أنني تعرضت إلى إغواء الشيطان؟ وماذا لو أنني استسلمت لوسوسة إبليس طيلة الأيام التسعة والثلاثين الماضية؟ وماذا لو أن هذه القوة التي أسندتي لم تكن سوى ضرب من الشر؟

كان علي قضاء الليلة الأربعين في الصحراء.

ليلة قوّضت كلّ شيء. كلّ شيء بدا لي واضحًا من قبل صار مظلمًا. لمست الشر في كلّ ما اعتبرته خيرًا. كلّما ارتأيت القيام بواجب، تمثّل إليّ التوجّس من الغرور والكبر. كيف اعتنّدت أنّي على علاقة بالربّ؟ ألم يكن ذلك رجسًا؟ كيف ساميز الحق من الباطل؟ ألم يكن كلّ هذا وهمًا؟ كيف سأحدّث باسم الربّ؟ ألم يكن كلّ هذا ادعاء؟

لم أتلّق البتّة جوابًا لأسئلتي. صباح اليوم الأربعين، قبلت الرهان ببساطة. راهنت على أنّ سقطائي وتأمّلاتي العميقة حلّتي إلى الربّ وليس إلى إبليس. راهنت بظنّي على أنّ لديّ عملاً صالحًا أقوم به. راهنت على أن أثق بنفسي.

لم أكن أعلم لحظتها أنّ صيرورة الأحداث ستضطرّني إلى رهان خطير وأخرق، رهان سيضطرّني الليلة، في هذا البستان، إلى انتظار حتمي.

التحقّقت بالحجيج على ضفاف نهر الأردن معتقدًا أنّه كان مباحًا لي التحدّث باسم الحكمة التي وجدتها في أعماق صلواتي. كان أندريه وصيميون يتظرّانني في المخيم. عندما ظهرت لهما، صرخ صيميون مبتهمين كأنّه يخترني:

- من تكون؟

- وما الذي تراه؟

- هل أنت رسول الرب؟

- أنت من يقول هذا.

كان هذا كافياً لنا. ارتقمنا في أحضان بعضنا، ثم أعاد يوحنا المغطس تعميدي. وتوسل إلى أندريه وسيمون، تابعيه المقربين، أن يتركاه من أجل مرافقتي.

كانت الفترة التي تلت هي الأشد سعادة وإثارة في حياتي. اكتشفت في نشوة كل الأسرار التي وضعها الرب في أعماق تأملاتي. حاولت التنفيس عنها يوماً بعد يوم. أخذتني البهجة بتطويعهم، ولم أشك بعد في العواقب.

جئنا أندريه وسيمون وأنا كل منطقة الجليل النضرة، المنعشة والمملوءة شياً. كنا نعيش غير آبهين بالغد، ننام تحت قبة السماء ونأكل ما تطله أيادينا على الأشجار أو ما يجود به الناس. في ظل الرب اكتشفنا اللامبالاة. عندما تطرح علينا مسألة، كنت أبتعد وأختفي خلف شجرة تين أو صخرة ما وأهبط إلى أعماقي. كنت أعود دوماً بالجواب أو على الأقل بشعور سيلهمني الجواب. قلبت كل أوراق اللعبة. كان الرجال يلعبون بشكل سيئ. كانوا يظنون أنهم منتصرون فيطرحون الأوراق الخاطئة. القوة. السلطة. المال. أما أنا فلم أحب سوى من بقي خارج هذه اللعبة الغبية، المهتمون الذين لفظتهم اللعبة، الفقراء، الدمثون والباسون والنساء والمضطهدون. صار المعدمون إخوتي وقدوتي. لم يحاولوا التوقي من الحاجة لأن ذلك يعني أن يتخفوا من أنفسهم. كانوا

يحبون الحياة، حتى إنهم وثقوا بها، مؤمنين بأن شخصاً ما سيربهم ويمدّهم بقطعة نقدية أو رغيف خبز. إن تلك الثقة عبادة. صرنا أندريه وسيميون وأنا متمسكين بنعيش على الصدقات ونوزّع ما زاد عن حاجتنا. كنّا نظنّ أننا لا نحتاج إلى أكثر مما يكفينا، كل ما زاد عن ذلك تبذير. لا حقّ لنا فيه. انسمت أعمالنا بكثير من البهجة حتى اجتذبت العديد من الشبان وكبرت مجموعتنا شيئاً فشيئاً.

أثار حديثي إلى النساء استياء كثيرين، لكنني رجوت أن يتبعننا. لأنني أدركت أثناء تأملي في أعماق الحبّ أنّ الفضائل التي منحني إياها الربّ لم تكن سوى مجموعة فضائل نسوية. كان أبي يحدثني كأنّه أمي. كان يضرب لي مثلاً تلك البطولات المجهولات، مناحات الحبّ وصانعات الحياة اللواتي يغسلن جلود الأطفال، يهدّئن صرخاتهم ويملأن أفواههم، تلك الخادومات الضاربات في القدم اللواتي تمنح أبادين الراحة والنظافة والمتعة، تلك المتواضعات المحاربات يومياً، ملكات الرعاية، أميرات الخنّان، اللواتي يضعّدن جراحنا وآلامنا. لكنّ أتباعي، فحول بني إسرائيل، لم يقبلوا نجاح النساء في التعامل بعفوية مع ما كانوا يشقون من أجله بأنفسهم. بينما تحمّلوا لقائي أولئك النسوة، واصلوا ارتياحهم منهنّ، وكان ذلك دون شكّ تحوّفاً من رغبتهنّ.

كنت أراقب الأقرباء الذين لا يتسارى الرجال في أعينهم، واكتشفت أنهم يحملون موهبة لا أملكها: دعى الوجوه. على سبيل المثال، عندما يضايق جابي الضرائب أسرة فقيرة فإنّه يتغاضى عن

عذابهم ويرقصهم كما يرفس اللحم. لقد حرمت هذه الموهبة. في مواجهة شخص ما كنت دومًا أرى إنسانًا. لا أستطيع التطلّع إليه دون أن أتبين وزن حياته، ما أمر وما أعلن من آلامه، آماله، كل ما ينشط ملامحه ويحرّكها. كنت غالبًا أرى فيه أكثر من إنسان. أتصور طفلًا سابقًا وأرى شيخًا مستقبلاً ووجودًا مهتزًا وهشًا.

لا شيء على الإطلاق يقارن بها في الأشهر الأولى من برائة مريحة. لقد استصلحتنا زرعنا واخترعنا طريقة جديدة للعيش. تخلّصنا من حزننا. كنّا نستطيع الأخذ والعطاء فحسب. صرنا أحرارًا. انطلقنا من عقائنا. في عيون الأقوياء، كنّا ضعافًا يجدر بهم تركنا لحالنا لأنّه لا وزن لنا. كانوا مخطئين: باتحادنا، كنّا سنغيّر وجه العالم. مضينا نجوب الطرقات نراكم غنائم لا يشتريها مال حتّى انتهت خطواتنا إلى الناصرة. التقيت أُمّي بفرحة غامرة لكنّي رفضت المبيت عندها وواصلت العيش في الهواء الطلق بين رفاقي. دعاني إخواني إلى البيت، وهناك وجدت أخي الأصغر يعقوب غاضبًا.

- يسوع، أنت تطلّخ عرضنا! غادرت ورشة أبينا لتصبح كاهنًا دون أن نخبر أحدا، وذلك أمر هين. لكنك تنام في الشارع وتستجدي الناس في قرينك، حيث يعرفنا الجميع وحيث نقوم بكل أعمالنا، ماذا يقول الناس عنا؟ انّه فورًا!

- لن أغيّر شيئًا من حياتي.

- إذا كنت عاجزًا عن العمل، يمكنك على الأقل أن تنام وتأكل في البيت، أليس كذلك؟

- ورفاقي؟

- هنا بيت القصيد. لتحدّث عن رفاقك. فرقة من الأفاقة
والكسالى دون فائقة، وبنات فاجرات. لم يشهد أحدنا مثيلاً
لهذا هنا. من الأفضل أن يرحلوا.

- سأرحل معهم إذن.

- هل تريد أن نعمل في هواننا أكثر؟

انطلقت الضربة. صفعتني أخي وقد بدا متفاجئاً من عنفه وعلى
وجه رجل مرهق لمحت حيرة طفل يتساءل عما ستكون ردة فعل
أخيه الأكبر.

اقتربت منه وقلت له في رقة:

- اصفع خدي الأيسر أيضاً.

ارتعش منخراه غضباً وتهمّجاً واستعدّ ليصفعتني عندما مددت
له خدي الأيسر فعلاً مبدئياً له رضائي عن مسخطه. أطلق صيحة
غضب وضمّ قبضته ثم غادر الغرفة. شرع إخوتي الباقون في شتمني،
كأنني أتيت أمراً أشنع من صفعة أخي وأنا أمدّ له خدي الأيسر.

كنت قد طبّعت تعليمة أخرى مستغاة من رحلاتي إلى أعماقي
التي لا قرار لها: أحبّ الآخر حتّى تصل إلى القبول به رغم حماقاته.
أمّا الردّ على العنف بالعنف، والسّنّ بالسّنّ والعين بالعين فلن يستج
سوى مزيد من الشرّ، والأسوأ من ذلك أن يصير هذا الشرّ مشروعاً.
أن تردّ على العدوان بالحبّ هو أن تحرم العنف وتضع نصب عينيه

مرآة تعكس وجهه البقيض، المضطرب، القبيح والمرفوض. لكنّ
أخي لاذ بالقرار.

- انخرسوا جميعكم. ذروني وحدي مع يسوع.

اطاعوا أمي وتركوني معها. ارتحمت في حضني وبكت طويلاً.
ضمعتها برقة وأنا أعلم أنّ الدموع تعلن في الغالب عن ظهور أول
كلمات الحقيقة.

- يسوع، عزيزي يسوع. استمعت إليك هذه الأيام وأصابني
حيرة شديدة. أنا لا أفهمك. أخذت تتحدث عن والدك
وتذكره دون توقّف رغم أنّك لم تعرفه إلّا قليلاً.

- إنّ الأب الذي أقصده هو الربّ يا أمي. استشيريه في أعماقي
كلّما خلوت إلى نفسي لأفكر.

- لكن لماذا تقول «أبي»؟

- لأنّه أبي وأبوك وأبونا جميعاً.

- تتحدّث في المطلق دومًا. تقول إنّ علينا محبة الجميع. لكن
أنت، ألا تحبّ أمك فحب؟

- أمر هيّن أن نحبّ الناس الذين يحبّونك أصلاً.

- أجب.

- أجل. أحبّك يا أمي. وإخوتي وأخواتي أيضًا. لكن هذا غير
كاف. علينا محبة من لا يحبّوننا أيضًا، حتّى أعدائنا.

- تنفس بعمق إذن. لأنّ الأعداء بانتظار!.. هل تعلم وجهتك؟
هل تعلم ما يخبئه لك القدر؟
- لا تمهني حياتي. لا أريد أن أحيي من أجلي أو أموت من أجل.
- ماذا! أليست لديك أحلام؟
- إطلاقاً. أريد أن أدلي بشهادتي فحسب، أن أعلم الآخرين بما
نجيش به أعماق تأملاتي.
- الآخرون! الآخرون! فكّر بنفسك أولاً. أنت تحب ظنّ
أفك. أريدك أن تنجح في حياتك.
- أمي، لست أنا من يقع في أعماقي.
- أخذت تبكي مجذّداً، لكنّ دموعها كانت مختلفة. إنها دموع
الرضا هذه المرة.
- لقد صرت مجنوناً يشوع.
- عليّ الاختيار اليوم بين مسيرة مجنون ومسيرة نجار فاشل.
- أخير المجنون حتماً.
- اختلطت ضحكاتنا بنحيبها. شعرت بهشاشة إزاء حزن أمي.
- غادرت الناصرة على عجل.
- بدأت المتاعب فورَ ظهور أولى معجزاتي.
- لم أكن أعلم كيف سيذكرني المستقبل، لكنني لم أرد لتلك الشائعة
التي تفيد أنني صانع معجزات وتحاصرني منذ مدة أن تنتشر بين

الناس. طيلة المرات الأولى، قمت بهذه المعجزات دون وعي مني. يمكن لنظرة ما أو كلمة أن تشفي. كان ذلك معلومًا عند الجميع ولست أول من عاليج الناس على أرض فلسطين، على المرء أن يتروى، يشحن طاقته ويستخر نفسه بالكامل لخدمة المعذنين ويمتص آلامهم لو اقتضى الأمر. كان عليّ تخفيف الألم. قضيت ليالي قرب المرضى، جالست المعوقين وحاولت أن أمرر لهم يدي تلك القوة التي تمر في أعماقي. تحدثت إليهم، بحثت عن حلول لعذاباتهم، دعوتهم إلى الصلاة واكتشاف أعماق الحب في دواخلهم. كل من نجح تمسكت حاله، أما الآخرون فلا. رأيت المقعد ينهض على قدميه، والأعمى يفتح عينيه، والأعرج يمشي، والأبرص معافي، والنساء يكففن عن التزييف، والأصم يشارك في الحديث والمجذوب يتخلص من عفاريته.

لكن سمعتي لم تشمل غير هؤلاء، وتناست أولئك الذين لم يرحوا سقمهم فلا أنا ولا غيري استطاع لهم شيئًا. ليس لي أي سلطان سوى قدرتي على فتح الباب الذي يؤدي إلى الرب في أعماق كل منا. حتى هذا الباب لا أعبره بمفردي وأحتاج إلى من يرافقني. كنت أسأل كل سقيم:

- هل أنت مؤمن؟ الإيمان وحده هو المتقد.

مرعان ما تعود الناس سؤالي ورأوه تكرارًا. كانوا يهرعون إلي كما يهرع البقر إلى الحوض.

- هل تداوي أمراض الجلود؟

- وثبتت الشعر؟

- وتحقق الام الدورة الشهرية؟

كانوا يسألونني كما يُسأل التاجر: هل تملك هذه البضاعة في
دكانك؟

كنت أجيبهم:

- هل أنت مؤمن؟ الإيمان وحده هو المقذ.

دون جدوى. جعلوني ساحرًا.

لم نعد نسمع أن كراماتي لم تكن مجانية وأنها روحانية وتُطلب
إيمانًا مضاعفًا يستوي فيه المريض والمعالج. صاروا يرسلون إليّ
الحاملين والجاحدين، وإذا لم أنجح مع تسعة منهم فإنّ حالة شفاء
واحدة كانت تزيد من شهرتي بصفة لا تصدّق. لم أعد أرغب في
مداوائهم. منعت أتباعي من استقبال أيّ مريض. كيف السبيل إلى
الضمود أمام العذاب الحقيقي؟ عندما ينتحب طفل هزيل أو امرأة
عاقرة في حضرتي، كنت أحاول شفاءهما على الأقل.

تعدّدت المتاعب. خرجت الأمور عن سيطرتي. نسبوا إليّ
معجزات عديدة. زعموا أنني أملا السلال الحاوية أرغفة والجرايز
الفارغة خمرًا والشباك سمكًا. رأيت بأمّ عيني كلّ ما حصل. كان
لكلّ شيء تفسير منطقي.

شككت في أتباعي مرّات عديدة. ألم يرتّبوا بأنفسهم مشاهد
تلك المعجزات؟ ألم يملؤوا تلك القوارير؟ ألم ينسبوا إليّ قدوم

صناديق السمك من بحيرة مطبرة؟ لم أكن أملك الدليل فكيف أؤاخذهم؟ لم يكونوا سوى بشر متحمسين مفعمين بمحنتي. كانوا يدفعون خصومنا ويدارون عن أسرهم، وقد حملهم الهوى على إقناع الناس. قد يلتقي الخداع وقوة الإيمان من أجل الإقناع. كانوا واثقين من صدقي حتى تورطوا في أكاذيب بسيطة: لم لا نستعمل حجباً خاطئة مادامت الحجج الصائبة لا تؤذي أكلها؟ لا يتم إن كانت هذه الكرامة حقيقية أم لا. إن المذنبين هم السذج الذين يرضون خداعهم.

تغيرت حيواتنا. إذا نجونا من ملاحقة البؤساء الباحثين عن المعجزات فإننا نضطهد من قبل شديدي الورع والكهنة وفقهاء الشريعة الذين رأوا أنني صرت أعداءنا كثيرة لتنتص إلي. لم يسع رجال الدين طريقتي في سبر أغوارني ولقائي الرب هناك لأعود كل مرة بحب لا يتغيب. كانوا لا يجيدون عن الشريعة المكتوبة، وقد لاحظوا انقطاعي عن احترام العبادات المألوفة: كنت أعالج يوم السبت، وأتناول الطعام يوم السبت، وأشتغل يوم السبت. ما المشكلة؟ جعل السبت من أجل الإنسان وليس العكس. حاولت التفسير مراراً. لكن النتيجة كانت: بينما كنت أحدثهم عن الحب، صار أعدائي بالآلاف.

- كيف نحرّو على الكلام باسم الرب؟

كل فكرة جديدة هي فكرة سيئة أولاً. رفض الورعون تفهمني واتهموني بالادعاء.

- لكن كيف نجرؤ على الكلام باسم الرب؟

- لأن الرب بداخلي.

- هذا كفر! يوجد الرب بذاته. لا أحد يدرك الرب. بينك وبينه فجوة كبرى.

- خطأ، أؤكد لكم. يكفيني الولوج إلى نفسي، مثل بشر، و.

- كفرا

راقبوني وضايقوني وسلطوا عليّ فرقة كاملة لترجعني إلى الجادة
فاتبع التوراة بحذافيرها. لم أكن أروم مواجهتهم أو صدمهم، لكنني
عجزت عن إلجام حقيقتي.

عند سفري إلى أورشليم بمناسبة عيد الفصح، نصبوا لي كميناً.

- عاهرة فاجرة!

جلبوا امرأة زانية وجروها من ذراعيها نصف عارية غير آبهين
بخوفها ودموعها وخزيها، مثلما يجلب سندان للمصارع كي يرفعه.
وقعت في الفخ. كانت شريعة بني إسرائيل تقضي برجم الزوجة
الخائنة. ضبط الأتقياء وفقهاء الشريعة المرأة متلبسة بجرمها،
ودعوا الرجل يلوذ بالفرار، ثم أنوا ليقتلوها رجلاً بالحجارة أمام
عيني. كانوا يعلمون أنني لن أقبل بذلك، فهم لم يمتقوا بجرم
الزنا المشهود وإنما كان همهم الوحيد إثبات جرم الكفر عليّ.
كانت الضحية جميلة، شعناء الشعر، وقضت يتا ترحف وقد قتلها
الخوف. أفعيت وشرعت أخطّ دوائر على الرمل. سبّب عملي

الغريب هذا بليلة في صفوفهم ومنحني مهلة للتفكير. ثم شرعت الحشود في الصباح:

- سنقتلها! سزجها! هل تسمعنا أيها الناصري؟ منقضي عليها أمام ناظريك!

مشهد عجيب. كانوا يندخونني أنا وليس هي. يهددونني بموتها. واصلت خريشاتي على الرمل. فليريقوا كراهيتهم. ليتخلصوا منها حتى إذا بقي لهم قليلها حاربه. في اللحظة التي اعتقدوا أنني لن أ تدخل، رفعت رأسي وقلت في هدوء:

- فليرم بحجر كل من لم يذنب قط.

كنا في هيكل المعبد. تطلعت إليهم فردًا فردًا دون عاطفة بل بعنف أرقهم؟ كانت عيناى تقولان:

- أنت، ألم تذنب قط؟ لقد رأيتك الأسبوع الماضي في الحان! وأنت، كيف تمرؤ على لعب دور الطاهر وقد فاجأئك تداعب ثديي حمالة الماء؟ وأنت، هل تظنني غافلاً عما أتيت أول أمس؟ في البدء تراجع أكبرهم سنًا. وضعوا حجورهم أرضًا وانصرفوا ببطء.

أما الشباب منهم فقد استأرهم مذاق الدماء ورفضوا الإصغاء إلى ضمايرهم. نظرت إليهم ساخرًا. كانت ابتسامتي تقطر وشاية، أما ملاحي فقالت:

- أعرف كل بقايا الجليل ويهودية: لن تمثلوا دور القديسين

أعاصي. لدي أسماء. أعرف كل شيء. يمكنني الإبلاغ عنكم.
نكس الشبان رؤوسهم. ثم نكسوا على أعقابهم.

لم يقاومني سوى شاب واحد منهم نظر إليّ في جراءة. كان
أصغرهم، له من العمر ثمانية عشر عامًا. هل أخذته الحماسة حتى
ظن أنه لم يخطئ قط؟ كان يقف مستقيماً واثقاً من نفسه وشرعية
إعدام تلك المرأة. أشحت ببصري. دون تحذّر أو تهديد، سألته في
رفقة:

- أو أائق أنك لم ترتكب خطيئة قط؟ أحبك كما أنت، حتى لو
أذنبت.

اختلج وطرف جفناه. كان ينتظر كل شيء سوى الحب.

جذبه رفاقه من ذراعيه. كانوا يهيمسون ولا تكن سخيفاً! لن
تزعج أنك لم ترتكب خطأ في حياتك، هذا ليس أنت! استلم
لهم، خاسراً، ليحملوه معهم.

بقيت بمفردي مع السيدة المرتجفة. ظلّت خائفة، لكنّ خوفها
تبدّل من الرعب من الموت إلى خشية أن يفوتها شيء ما.
علم أنها بابتسامة.

- أين أولئك الذين اتهموك؟ لم يبق هنا أحد ليحاكمك.

- لا أحد.

- أنا لا أيضاً أحاكمك. انصرفي. ولا تقني من جديد.

أسعفتني الحيلة مرّة أخرى، لكنني تعبت من هذه الأحابيل. استمتع أتباعي بنجاحاتي غير أنّي كُزرت على مسامعهم أنّ النجاح ليس سوى سوء تفاهم، وأنّ عدد أعدائنا فاق عدد أصدقائنا بسرعة كبيرة. رحلنا والتجأنا إلى الجليل. نأكلت من الداخل: تعبت من التفوّه بأمور لا يريد أحد سماعها، من الحديث إلى الصمّ، تعبت من إصابتهم بالصم عندما أتحدّث. عندها فقط زادت أهمية يهوذا الإسخريوطيّ في حياتي. على خلاف أتباعي، كان يهوذا ينحدر من يهوديّة وليس من الجليل. كان أوفر منهم تعلّيماً، يعرف القراءة والحساب، وأصبح أمين خزينة، يوزّع على الفقراء ما زاد على حاجتنا من الصدقات التي تلقيناها. كان يبيّن بين الصيادين القدامى في طبرية مستعملاً طرقه الخاصّة ولهجة أهل مدينته، ويجلب لنا كلّ غرابة من اورشليم. كنت أفضل الحديث إليه وسرعان ما صار أفضل أتباعي. لم أحبّ في حياتي أحدًا مثل يهوذا. معه وحده كنت أتحدّث عن الربّ.

- إنّه قريب دومًا.

- إنّه لا يتجلّى سوى لك أو بداخلك أنت فقط. نحن لا نراه.

- أجل، عليك أن تحاول أكثر يهوذا.

- أنا أحاول. أحاول كلّ يوم. لم أجد تلك الآبار بلا قرار.

لكنني لا أحتاج إلى الأمر لأنّي أعيش بقربك.

لقد أقتنعتني أنّ علاقتي بالربّ تختلف عن علاقة الآخرين به. لم

أكن كاهنًا لأنني لم أجد ذلك النور في الكتب، ولم أكن أيضًا رسولًا

لأنني إذ لم أبشر في حديثي بأي شيء. ببساطة، كنت أصل إلى جوهر الكون بفضل سقطاني في تلك البشر.

- لا تدفن رأسك يشوع. تعلم جيدًا ما يعنيه كل هذا. لقد كشف لك يوحنا المغطس الأمر قبل الجميع: أنت الذي بقر به، ابن الرب.

- أمنعك من قول هذه الحقايات. يهوذا، أنا بشر ابن بشر ولست ابن الرب.

- لماذا تقول «أبي»؟

- توقف عن هذه المهزلة.

- لماذا تقول إنك تلاقه في أعماقك؟

- لا تتلاعب بالكلمات. كنت سأعلم لو كنت المسيح.

- لكنك تعلم. أنت تملك المعرفة والعلامات لكنك ترفض الاعتراف.

- اصمت ! اصمت نهائيًا. لا أظن أنه كان مسؤولاً عن الشائعة الرهيبة، المدمشة والعظيمة التي انتشرت في الجليل انتشار النار في الهشيم: يشوع الناصري هو المسيح الذي بشرت به التوراة. لقد تطورت بمفردها دون شك، لأن اليهود، مثل جميع البشر، يرون الأمور حسب رغباتهم انتظاراتهم.

لم أعد قادرًا على الظهور في العلن دون أن يسألوني:

- هل أنت ابن الرب؟

- من قال لك ذلك؟

- أجبني. هل أنت المسيح بحق؟

- أنت من يقول هذا.

لم تكن لديّ إجابة أخرى: «أنت من يقول هذا». ما كان لي أن أجروّ على زعم أنني المسيح. كان بإمكانني الحديث عن الرب، عن نوره، عن النور الذي يشعّ في أعماقي، وكفى. لكن الآخرين يقطعون حديثي دون أن تحزهم ضمايرهم. يبالبون فيا أقول. يفعل أحبتي ذلك إطرأ، أما الذين يكرهوني فكانوا يستمجلون إيقافي.

- يهوذا، أرجوك. أخرس هذا الصخب الغبي. لا أملك شيئاً خارقاً للمعادة، سوى ما منحني إياه الرب.

- هذا ما يتحدث عنه الصخب يشوع: ماذا أعطاك الرب. لقد ميزك واصطفاك.

وسهر يهوذا الليل متأثلاً كلّ النبوءات. كان يجد في تفاصيل حياتي كلّ ما بشر به إياها وأرميا وحزقيال وهوشع. كنت أحتج على ذلك.

- هذا سخيف! عندما تقارن، تستطيع إيجاد تشابه بين المسيح وأيّ كان!

كان يزعم أنني أحياناً لأنه متصلع في التوراة، لكنني أرفض

كل شيء. وكنت أتخوف من عمليات العلاج حتى اكتشف بعد النبوءات أتباعي، وأولهم يهوذا، وهنا هو الدليل الثاني على أنني المسيح. لم يترك لي الغضب فحة. بدأت القصة في جو من الغبطة والبهجة إبان عودتي من الغلاة، لكنها أخذت تتطور بطريقة خرجت عن سيطرتي وابتعدت عن المغامرة الأصلية الشيقة. نسب إلي الأصدقاء والأعداء معًا ما لم أقله، وحملوني ما لا طاقة لي به.

دعاني هيرودس، حاكم الجليل إلى قصره، واضطرتني إلى مشاهدة نفاته وحاشيته، ثم انعزلنا بين ساريتين بعفردنا دون شهود.

- ذكر لي يوحنا المغطس أنك المسيح.

- هو يقول هذا.

- أعتبر يوحنا نبيًا حقيقيًا لذلك أميل إلى تصديقه.

- تخيل ما يحلو لك.

أسقط في يدي هيرودس ولم يحصل إلا على تأكيد أجوتي.

- هيرودس، أنا لست المسيح. لا أزع هذا الشرف. رافقتي رفقة الرجال. شعرت أنني ذو فائدة، لكنني سأضطر إلى الابتعاد عنهم لأواصل حياتي وحيدًا.

- هذا عزن. لا تعتزل الناس كفيلسوف أو كاهن. علام ستحصل؟ نصف أهالي فلسطين جاهزون للسير على خطاك. يجب علينا الالتحام بالشعب إذا رمنا قيادته. نحن نعامل

الناس بناءً على أوهامهم. كان قيصر يعلم جيدًا أنه ليس ابن
فينوس، لكنه صار قيصر لأنه آمن بذلك.

- تبريك وضيق يا هيرودس. لا أود أن أصبح قيصر ولا ملك
بني إسرائيل ولا أحدًا غيرهما. لا أهتم بالسياسة.
- لا يهم يا يشوع، اسمح لنا بممارسة السياسة معك.

تدعّم قراري عندما غادرت القصر. انتهت علاقتي بالحياة
العامة. سأتوقف عن كل شيء. سأترك كل شيء. قررت حلّ قريتنا
لأواصل الوجود بمفردي معتكفًا في الصحراء.

للأسف، كنا قد وصلنا إلى نعين وعندما عبرنا هذه القرية لم
تعد الأمور واضحة أمامي بالمرّة.

في مدخل القرية، اعترض طريقنا موكب دفن الشاب اليافع
أموس. ربييكا كانت أمّه، وبييكا تلك من أيام شبابه، أحببتها وكنت
عل وشك الزواج بها. كانت تمشي في المقدمة، مسلوية الإرادة، مثل
محكوم عليه بالإعدام. ترقّلت منذ سنوات عديدة وقد فقدت اليوم
ابنها الوحيد. عندما لمحتني عيناها الواسعتان، لم يكن بها أثر لمرارة
أو غضب أو احتياج، بل أسرا لي أنني كنت محظوظًا إذ لم تكن
في عائلة وأنّي أهتم بالإنسانية جمعاء ولا آبه لألامي وأشعر بالآلام
الناس. راودني مزيج من الشفقة والشعور بالذنب. هل كانت
لربييكا أن تشعر بهذا الحزن لو تزوّجنا؟ استوقفت حاملي التابوت
لأنطّلح إلى الجثة. اقتربت وأنا أمسك بمقابض التابوت وانخرطت
في دعاء كان الأقوى في حياتي.

- أبانا، رَدِّهِ إِلَيْنَا، اْمْنَحْهُ حَقَّ الْحَيَاةِ. اجْعَلْ رِييْكَا مَعِيْدَةً.

دَعَوْتُ وَدَعَوْتُ مِثْلَ شَخْصٍ بِائِسٍ. لَمْ أَرْجُ شَيْئًا وَلَئِنَّا كَانَتْ
فُرْصَةٌ لِلتَّنْفِيسِ عَنِ حَزْزِي. تَمَسَّكَتْ بِدَا الطِّفْلِ بِيَدَيَّ وَغَمَضَ بِيْطْءً.
ارْتَفَعَتْ صَبِيْحَاتُ الْفَرْحِ مِنْ حَوْلِنَا، وَاتَّحَدَ الْمُوَكَّبَانِ فِي مَعَادَةٍ،
أَتْبَاعِي وَالْبُؤْسَاءُ الْآخَرُونَ. ثَلَاثَةٌ مِنْ بَيْنِنَا بَقُوا صَامِتِيْنَ، يَتَسَاءَلُونَ
عَمَّا حَدَثَ، غَيْرَ مُصَدِّقِيْنَ: رِييْكَا وَابْنَهَا وَأَنَا.

تِلْكَ اللَّيْلَةُ، تَكَلَّمْتُ الطِّفْلَ مَجْدِّدًا. أَتَى بِرَفْقَةٍ رِييْكَا وَغَمْرَانِي
تَقْبِيْلًا. أَمَّا أَنَا فَبَقِيْتُ حَائِزًا، صَامِتًا وَمَشْدُوْهَا.

عِنْدَمَا انْتَصَفَ اللَّيْلُ، التَّحَقَّقْتُ بِإِيْهُوذَا فِي ظِلِّ شَجَرَةِ زَيْتُونٍ.

- يَشُوعُ. إِلَى مَتَى سَتُظَلُّ تَنْفِي الْحَقِيْقَةِ؟ لَقَدْ أَحْيَيْتَ.

- لَسْتُ وَاثِقًا مِنْ ذَلِكَ يَهُوذَا. أَنْتِ تَعْلَمُ مِثْلِي أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ السَّهْلِ
التَّحَقُّقُ مِنَ الْمَوْتِ. كَمْ مِنْ شَخْصٍ دُفِنَ حَيًّا؟ لِهَذَا نَضْعُ الْمَوْتِيَّ
غَالِبًا فِي قَبَاءٍ. رَبِّيَا كَانَ الطِّفْلُ مَغْمِيًّا عَلَيْهِ.

- هَلْ تَظُنُّ أَنَّ أَمَّا تَسْتَطِيعُ حَلَّ ابْنِهَا النَّائِمِ إِلَى الْقَبْرِ؟

لَزِمْتُ الصَّمْتَ مَجْدِّدًا. خَيْرْتُ أَلَّا أَنْبَسَ بَيْنَتْ شَفَةِ. سَأَكُونُ
جَحْجُودًا لَوْ نَطَقْتُ دُونَ ثَنَاءٍ عَلَى الرَّبِّ الَّذِي اسْتَجَابَ لِدَعَائِي. هَلْ
أَكْشَفَ نَفْسِيْ هَكَذَا؟ أَبَدًا، لَمْ أُرْدهُ أَنْ يَمَيِّزَنِي.

لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ مَدَى تَوَرَّطِيْ فِي الْأَمْرِ. لَقَدْ رَفَضْتُ، رَفَضْتُ هَذَا
الْمَصِيرَ. خَبِلْتُ إِلَيَّ أَتَنِيْ أَصَارِعُ الرَّبَّ. كَانَ يَرِيدُ أَنْ يَتَّصِرَ بِالْقُوَّةِ، أَنْ
يَجْرِدَنِيْ مِنْ سِلَاحِيْ وَيَتَرَجَّعَ شُكُوكِيْ. كَانَ يَحَاوِلُ إِقْنَاعِيْ لِكَيْ أَصْبَحَ

بطله. لكنني كنت أعلم أنه لن ينال مراده دون موافقتي وأنني لا أزال أملك حظوظًا، وسأنكر كلّ علاماته. تمردت كامل الليل دون أن يتأبني ضعف.

حلّ الصباح ليغسل السماء، وعندما صاح الديك غلبني النعاس من جرّاء التعب. عندما فتحت عيني، قبلت تمامًا أنّ الربّ يحبّني إلى هذا الحدّ. ناديت يهوذا، تابعي المفضّل، لأتّه لا شيء كان ميسرّه أكثر ممّا نويت قوله له.

- يهوذا، لا أعلم من أكون حقًا. أعلم فقط أنّ شيئًا أكبر مني يسكنني. أعلم أيضًا أنّ حبّ الربّ لي يعني أنّه يتنظر مني الكثير. اسمع يهوذا، سأقبل الرهان. سأقبله بكلّ جوارحي، سأقبل أنّني ذلك الذي ينتظره جميع بني إسرائيل. سأقبل أنّني ابن الربّ.

ارتقى يهوذا عند قدميّ وأحاط كعبيّ مطوّلاً بذراعيه. شعرت بدموعه الحارّة تنساب بين أصابع قدميّ. يا له من مسكين. كان يهوذا سعيدًا مثلي. لم يعلم أين ستهي ولا بما سيطلبنا الرهان.

هذه الليلة، بتظنّي الموت بهذا البستان. صارت الزياتين رماديّة اللون مثل الأرض. تزوجت صراصير الليل في نور القمر الخاني. وددت لو كنت إحدى شجرتي الأرز الزرقاوين اللتين تظللان الأسواق الصاخبة نهارًا وتأوي إلى أغصانها الحمايم ليلاً. كم وددت لو رميت جذوري مثلها سعيدك خاليًا من الموم. على خلاف ذلك، زرعت بنورًا لن أراها تنمو وتزهر. ترقّبت الكنية التي

ستقبض عليّ. أبانا، هبني قوّة هذه الكروم التي لا تشعر بخوفي. هبني الشجاعة لأواصل الرسالة التي اعتقدت في لحظة جنون أنّها لي.

بعد أيام من اتخاذ قراره، قبض هيرودس على يوحنا المعمّس وسجنه بقلعة ماسرون. أرادت هيروديا، زوجته الجديدة، الانتقام من النبيّ الذي عاب زواجها.

أرسل إليّ يوحنا الجزع رسالة من سجنه.

«هل أنت المنتظر حقاً؟ هل أنت المسيح؟ أم عليّ انتظار شخص غيرك؟».

كنت أعلم أنّ يوحنا يستكر رفعتي للبغايا ولعامة الشعب، وكان يلومني على شراعتي في الأكل والشرب. على عكسه هو الذي كان زاهداً ولا يفهم بعد سبب تردّدي في الجهر بسريّ. أحببت رسولين له.

— اذهبا وصيغاً ليوحنا ما قمت به. صار العميان يبصرون، وقد يمشي من به عرج، وتطهر من أصابه الجذام، وسمع من به صمم. لقد زكّت البشريّ، فلينعم وليكن واثقاً. لن أتركه يتعثّر.

كانت المرّة الأولى التي تبنّيت فيها مصريّ. للأسف، جرّ رأس يوحنا قبل أن يبلغه الرجلان رسالتي. عمّلك الغضب بعض أتباعي الذين كانوا على خطى يوحنا.

- انقَضَ على السلطة، بشوع. لا تدع الشرفاء يعدمون. أسس ملكك. نحن على خطاك. سيتبعك أهل الجليل. ولأنا سنجزّ رقبتك مثل المغنّس أو يحصل أشنع من ذلك.

على الرغم من استيائهم، فكّرت أكثر وقدّرت أنّه لا منصب لي أستأثر به ولا عرش أطلبه. لست قائدًا وإنما أنا ملهم للأرواح. أجل، كنت أرغب في تغيير العالم، ولكن ليس على طريقتهم. لم أقدّ ثورة سياسية، ولا كنت على رأس مجموعة من البؤساء والنساء والمهتسين للانقضاض على فلسطين أو الانقلاب على مالكي السلطة والجاه والأموال. الثورة الوحيدة التي دعوت إليها ثورة باطنية. لم أطمع في العالم الخارجي، عالم قيصر وبيلاطس وأرباب المال والتجارة.

- ورث البشر الأرض: ماذا فعلوا بها؟ فليردّوها إلى الرب. لنلغ الأمم والأعراق والبغض والاستغلال والجاه والامتيازات. لندمّر الطبقة بين الناس. لنخلّص من المال الذي يصنع الفقر والغنى، والمهيمن والمحكوم، ذلك المال الذي يسبّب الخوف والتقتير وغياب الأمان والقسوة والحرب، المال الذي يشيّد حراجز بين البشر. فلنقم بهذه المهام في داخلنا. لنشيّد مقبرة هذه الأفكار الخبيثة، هذه القيم الفاسدة. لا نستطيع عرش أو صولجان أو رمح أن يطهّرنا أو يفتح أعيننا على الحب الحقيقي. كلّ يحمل مملكته بداخله، كمثل أعلى، أو خيال أو حنين. كلّ يحمل طموحًا أو رغبة لطيفة. من منا لا يشعر بأنّه ابن لأب ما يتجاهله؟ من لا يريد أن يصير أخًا

لكل إنسان؟ إن ملكتي هنا، تمنيتها وحملت بها. يتقد الحب
حاسة، لكننا نصدمه بلا هوادة ونخيب آماله. لا أتكلّم إلا
من أجل أن نسلّح بالشجاعة لنكون أنفسنا، لنخوض غمار
الحب. رغم أنّ الرب سبقنا فهو يحتاج دومًا إلى أن يكتمل.
لكن الرب لا يعاني الخجل.

كان أهل الجليل ينصتون لي فاغرين أفواههم، لأنهم ينصتون
بأفواههم ولا يسمعون شيئًا بأذانهم. كانت كلماتي ترتد من رأس إلى
آخر دون أن تلج أحدًا منهم. لم يحبوا سوى كراماتي.

اتخذت قرارات منها أخذ أتباعي على عدم قبول أيّ سقيم.
لكن أيّا منهم لم يستطع إيقاف موجاتهم المندفعة: كان المرضى يقدون
عبر السقف والنوافذ. في بحيرة طبرية، اضطرت إلى الابتعاد عن
الضفة، على متن قارب، لكي أتمكن من الحديث إلى القرويين دون
أن يلمسوني أو يتوسلوا إليّ. لكن دون جدوى! حملت الكياسة
الجميع على قبول مواعظي مثلما يتناول المرء مقبلات دون حاسة:
كانت كراماتي طبقتهم الرئيسي. صرت موفّقًا لدى الرب. صار
الجميع يريدون خاتمي ويصمّني بعد وقوفهم الساعات الطوال في
صفوف، ويطالبونني بتدخل على شكل معجزة بسيطة. كانوا المرضى
ينصرفون في صحّة جيّدة، مقتنعين بعدما رأوا الأمر بأمّهات أعينهم.
- أجل، أجل، إنّه بالفعل ابن الرب.

لم يستوعبوا فكرة واحدة من خطايي، وقد وجدوا بكلّ بساطة
شفيعًا يسهّل عليهم شؤون حيواتهم.

- نحن محظوظون لأنه يقيم بالجليل على مقربة منا.

في أحد الأيام، أتت أمي وإخوتي وفرقوا حشدًا في قرية كنت أقيم بها. كنت أعلم أنهم يستهزؤون بي وبإدعائي وجنوني. أرسلوا إليّ رسائلهم مرارًا يتوسلون إليّ كي أكفّ عن تقمص دور المسيح: لم أجب البتّة، فقدموا بفرضون عليّ مجلّة عائليّة. طوّق الفضوليّون الحنان الذي لجأنا إليه أنا وأتباعي.

- دعونا نمرّ، صاح إخوتي، نحن أسرته. لنا الأولوية. دعونا نمرّ. علينا التحدّث إليه.

اتبهر القرويون بهم وفتحوا لهم معبرًا. تسمّرت عند الباب لأنهم من الدخول. كنت أعلم أنني سأجرّحهم، لكن كان عليّ أن أفعل ذلك.

- من هي عائلتي الحقّ؟ ليست حتمًا رابطة الدم، وإنما هي رابطة الروح. من إخوتي؟ من أخواتي؟ من هي أمي؟ هم كلّ الذين يطيعون أبانا. أراكم قد ملؤكم البغض ولم أعرفكم. أشرت إلى أتباعي بالداخل.

- لو اتبعني أحدكم دون أن يقلد على فراق أمّه وأبيه، إخوته وأخواته وصاحبه وبنيه فلا حاجة بي إليه.

ثم أغلقت الباب في وجه أمي وإخوتي. انصرف إخوتي يتميّزون غيظًا. لكنّ أمي بقيت منهارة تنتظر أمام الباب في تواضع. عندما جنّ الليل، أدخلتها وامتزجت دموعنا.

وظلت أمي معي حتى تلك الليلة الموعودة. اتبعت خطاي،
سارت خلفي هادئة بين النساء رفقة مريم المجدلية^(١)، مانحة الجميع،
ومنهم أنا، فرصة لأنسى أنني ابنها. أحياناً، كنت ألقاها خلسة
لتبادل قبلات سريعة. منذ خصامي مع إخوتي، اعتنت أمي بي لأنها
انتظرني طويلاً. لقد قبلت أنني أقدر حب الناس قبل حب خاصتي.
كان أكبر مصدر لفخري أنني نجحت في إقناع أمي.

لم أفش أسراي سوى ليهودا. كنّا نعيد قراءة الكتب السماوية
معاً. منذ اغتاذي رهاني السريّ أوليت الكتب عناية أوفر.

- عليك بالعودة إلى اورشليم، يسوع. سيبليغ المسيح أوجه في
اورشليم. إنّ الكتاب بات وصريح. ستهان وتُعذب وتُقتل
قبل أن تُبعث من جديد. ستعيش أوقاتاً صعبة.

كان يتحدث في هدوء مهتلياً بالإيمان. وحده فهم المقصود
بالمملكة، مملكة متروعة الأبعاد حيث لا نجاحات مادية أو سياسية.
كان يصف لي لحظة احتضاري في هدوء ممزوج بالأمل.

- ستموت لبضعة أيام، يسوع، ثلاثة أيام، ثم ستبعث.

- عليك التحقق من ذلك.

- هيا يسوع. إنّ النوم لثلاثة أيام أو لأكف ستة لا يفوق غفوة
ساعة واحدة.

(١) تعتبر من أهم تلميذات يسوع المسيح، وتتميز رمزاً إلى الإنسان الحاطر الذي يتوبه.

في السابق لم أفكر بجديّة في الموت، وكنت أتوق إلى معرفة ما تحبّه في تأملاتي. عندما سبرت أغوارتي، قرب أيناء، لم أجد ما يغيّني. «وراء كلّ أمر مبرّر»، كان يقول لي، «كلّ شيء على ما يرام. الجسد وحده عرضة للتعبّن والدود والاضمحلال. أما الروح فباقية».

لم يكن الأمر دقيقاً، لكنّه مطمئن. كانت أفكاري تتلاطم وتخلص أحياناً لفكرة جديدة: لدينا حياة ثانية بعد فناننا وستكون بحسب أعمالنا في حياتنا الأولى. سيخلّد من كان على حقّ في ذكرى طيبة، وسيغرق من كان على باطل في ذكرى آثامه إلى الأبد. لكنّ هذه الصورة تتلاشى بسرعة ما إن أحاول الاقتراب منها. على أية حال، أثبتت لي رحلاتي أنّه لا يوجد مبرّر للخوف من الموت الذي لا يتجلّى سوى في شكل مفاجأة سارة.

صارت أورشليم عنواناً لقلقي. عنواناً لقدرتي. الأرض التي بها أموت. سأتمّ دعوتي في أورشليم. زرت أورشليم مرّات عديدة وقصيرة في عيد الفصح، مثل أيّ يهوديّ ورع. يجب أن أفكر في الاستقرار بها.

انطلقت رحلتنا إليها.

لم أستطع طمس الحقيقة: لقد تغيّرت. اجتاح الثأيب والمرارة قلبي مرّات. أنا الذي كان الحبّ ديدني، صرت قطعاً، ضجراً ومنزعجاً. لم أكن أحبّ غير الرقة، ثمّ صرت قادراً على شتم خصومي. عندما أروم إعلان الخبر السار، ظهور مملكتي، تحوّلني خطابتي وأسمعتني

أهتد، أرغني وأزيد، وأتوعد بأشدَّ العقاب باسم الرب. أحيانًا كنت أنوي الثناء على الناس، لكنني لم أكن أقوى على أمالك نفسي عن الصراخ عندما أمر ببعض المغالين يوقدون شمعدانات احتفالًا بعيد القديس: «أنا النور، أنا فحسب!». بعد ذلك، أوأخذ نفسي وكانت أمي التي تطمئنني، في كبد الليل وتضمّني إليها، تسمي هذه المبالغة إرهاق الأمل.

في أورشليم، كنت أصطدم بجدران من الازدراء. فقد سخر الفريسيون⁽¹⁾ وأعضاء السندريم⁽²⁾، بحكمة اليهود، من بعض الحكماء الذين أبدوا اهتمامًا بي مثل نيقوديموس⁽³⁾ ويوسف الرامي⁽⁴⁾: «لا أظنكم تنتظرون حلول نبي من الجليل!». ظننت عندها أنني فشلت.

بعد مضي ستة أشهر، لم يعودوا إلى الفقهة. صاروا يتقلون ويرغون ويزيدون. ما داموا سيعدموني الليلة.

أورشليم..

(1) هريسي، أي مفروز، فهم كانوا يعتبرون أنفسهم مفروزين عن الشعب لقدياستهم. وهم فئة تفسم كهنة وعلمايين، وكانوا يعلمون ويظنون ولكنهم لم يشكروا. حرفة الناموس في التفسير والتشدد في حفظ عوائد تسلموها عن سيقوهم.

(2) مجلس اليهود الكبير أو المحكمة العليا للاثثة اليهودية. وكان السندريم يمثل الشعب أمام الرومان، ويتكون من واحد وسبعين عضوًا سجين منهم مثل عند الشيوخ الذين هاونوا موسى، والحاوي والسبعين هو رئيس الكهنة. وقد قبض مجلس السندريم على المسيح وحاكمه.

(3) هريسي وعضو في السندريم، وكان واحدًا من رؤساء اليهود، وقد انتزع بكلام يسوع ودافع عنه في السندريم لما هاجمه الفريسيون.

(4) عضو في مجلس السندريم، انتزع عن التصويت ضد يسوع.

أورشليم التي تأسرني، لكنني لا أجد سبيلاً إلى حبيها بسهولة..
 أورشليم يا من تغتالين أنبياءك وترجمين من بعث فيك. كم مرة
 وددت لم شمل أبنائك كما تحضن الدجاجة فراخها أسفل جناحيها!
 لكنك رفضت. أورشليم، لا أحب فيك كل ما يثير فخر كل يهودي.
 عندما أرادوا مني أن أرى المعبد، وقد أعيد بناؤه، وإن أفتن
 قبالة الأبواب الثقال من الأرض المذهب والزنايق والأوراق المنحوتة
 التي تتلى منها أشعة كتان تزينا أزهار أرجوانية وأحجار ياقوت
 قرمزية تشدها ملائكة من الذهب الخالص، فكّرت ببساطة: «هل
 نحن في حاجة إلى مبالغه حتى نصنع جمالاً؟» عندما أثنوا على حسن
 تنظيم القرابين، واكتشفت بين الروث والدم المتخثر والأمعاء
 المتعفنة قطعاً من الثيران والتعاج تُمنح للأغنياء في مقابل منح
 الفقراء لحم الحمام وحده، أمسكت سوطاً وأوقعت كل الأوضام
 أرضاً. «ارفعوا كل شيء من أمامي! بيت الرب ليس معداً للتجارة
 غير المشروعة!» ضربت الأرض بقدمي في غضب، وما هي إلا
 لحظة حتى غاب كل من يحيطون بي سوى بعض الدواب المخبولة
 أو الجبناء الذين كانوا يلوحون بالفرار. صارت المدينة قفرة وبخيلة
 ومزاجية ومستهزئة. لم تعد الأبواب والأسوار تحفي شيئاً. المظاهر
 تسود، والثراء فاحش والعبادة صارت شيئاً ذا بال. يترصد الجميع
 بعضهم بعضاً ويتنافسون في القوة. في مقابل ذلك، القلوب صامتة،
 والناس يرون الطيبة مخافة والتواضع انتحاراً. لا يريد سكان
 أورشليم الإنصات لأبله من الجليل يمتدح الفقر وأتباعي لم يملكوا

من طبرية أكثر من قارب قديم وشباك مرتقة. هل أرهفت سمعهم
حياتهم البسيطة في الحقول؟

لم أوفق في أورشليم. كان نجاحي الوحيد مزيدًا من الكره
لي كل يوم، ولا سيما من جهة الكهنة وفقهاء الشريعة والفريسيين
والصدوقيين^(١) الذين لا يؤمنون بالبعث بعد الموت. كانوا أوفر
مني تفاؤلًا وتخوفًا من فكرة أن أعلم الناس طريقًا آخر إلى الرب.
شعروا بالخطر فشرعوا يعدّون لفنائي. ورجعت في أذهانهم منذ
شهور عديدة.

كم من الساعات أمضيت محاولًا إقناعهم، مدافعًا عن إيمان
القلب مقابل إيمان الكتب. لقد شرحت لهم أنني لا يتعارضان مادام
إيمان القلب يلهم الإيمان بالكتب. جعلني المتحدلقون والمجادلون
والفقهاء أعبد المحاولة إلى ما لا نهاية. كانوا يريدون مني لعب دور
الفقيه والمفسر ورجل الدين، وحشر نفسي في مشادات تفضيح
تفوقهم، فلم أجدي من هادٍ سوى النور الذي يصاحبني. من فرط
تكرار النقاش مائة مرة شككت في أننا نتحدث عن أمر واحد:
الرب. كانوا يجمعون مؤسّسات وتقاليد وسلطانهم. أمّا أنا فكنت
أحدث عن الرب بيدين خاليتين.

(١) هم الطائفة الأرستقراطية بين اليهود، فمعظم رؤساء الكهنة منهم، كان همهم للحفاظ
على نظم الهيكل والقراب ومراقبة الخزائن، ومن ذلك أتروا ثروة فاحشة. وكانت
بينهم وبين الفريسيين خلافات كثيرة فهم لا يؤمنون بالقيامة ولا الأرواح ولا الملائكة،
ومع هذا التحدا مع الفريسيين هذا المسيح إذ شعروا بأن المسيح يتحدّ معانهم متًا.

اعترفت بأن الرب قد أوحى إلى جميع أنبيائنا، وأن روحه سكنت
كثينا وشرائعنا، وأن معظم البشر اتخذوا المعبد والكنيس والمدرسة
التوراتية طريقاً إلى الوحي. أما أنا، أضعت ببساطة، فتأخذني أعماق
الحب رأساً إلى الرب. أليس ذلك أفضل من كتاب قديم مستعمل!

- هذا كفر! كفر!

- لم آت لأهدم، وإنما آتيت لأشيد.

- كفر! كفر!

سرعان ما صرت لا أطيق حتى المبيت بأورشليم. سأقطن في
قرية بيطانيا صحبة أتباعي في بيت صديقنا لازاروس^(١)، أو خارج
الأسوار بجبل الزيتون إذا لم نجد متسعاً من الوقت.

كل صباح، كنت أرى الشمس تطلع من الصحراء وتوقظ
الألوان في أورشليم، جذرائها الخمرية، وشرفاتها البيضاء والمعبد
الذهبي وأشجار السرو الخضراء وواجهات البيوت التي ذهب
الصفير بطلائها. خيل إليّ للمحظلات أنني أطل على المدينة التي
تعرض نفسها عليّ مثل مجسم صغير، لكنها سرعان ما تصبح شديدة
اللمعان، كثيرة الألوان، وترتفع إلى أعلى، فوق الجميع، مثل نبوءة
باهرة أو بغية فاشخة.

بينما ترقد الأزقة والساحات في صمت، كانت قوافل الإبل
تصل من دمشق عبر الطرق الملتوية المفضية إلى الأسوار، والنسوة

(١) لازاروس أولعازد في المعتقد المسيحي، شخصية معروفة بعثها المسيح من الموت.

يحملن سلال العنب على رؤوسهن وزهورًا من أرجح كن يتوين
بيعها أسفل أشجار البطم عند أبواب المدينة. كان كل شيء يهوي
إلى اورشليم. اورشليم هي المركز. تبتلع اورشليم كل شيء.
هربت.

هربت من بغض الفريسيين، ومن خطر إيقافي الذي بات وشيكًا،
هربت من موت شرع يتعقبني. أفلتت بأعجوبة من بيلاطس البنطي،
عامل روما، الذي شعر بأنه مستهدف من أحاديثي حول نهاية النظام
القديم وحلول عهد المملكة. وضع جواسيسه أمامي قطعة نقدية
صكّت باسمه أو باسم قيصر، لا أدري حقًا، لأن الرومان يتشابهون
عندما يخلقون رؤوسهم.

- قل لنا يشوع، هل يجب الانصياع للرومان الغزاة؟ هل من
العدل دفع الضرائب لهم؟

- يجب أن نعطي ما لقيصر لقيصر، وما للرب للرب. لست
قائدًا عسكريًا. لا تشبه مملكتي مملكته في شيء.

أراح حديثي بيلاطس، لكنه أورتني المتعصين وأتباع باراباس
الذين لم يمتنعوا عن استغلالهم لإثارة فلسطين ضد المحتل الروماني.
نجحت مسيرتي: كان أعدائي في كل مكان. شعرت بالخوف.
أحسست بالعراء، لا أملك سوى خطاي الأعزل.

ارتحلنا مجددًا لنختبئ في الحقول. أردت استرجاع قواي من أجل
المعركة الأخيرة. كان عليّ الدعاء نهارًا، وفي الليل أشارك أصدقائي،

رجالاً ونساء، وجبات عشاء مطوّلة. آخر الليل، أعود إلى أعماقي
لأنّهم الحب من ذلك النور الذي يتمتع مثل ألف شفق.

لم أنحن، ولم أراجع أيضاً، لكنني خشيت من الخوف. خفت
أن أخيب ظني بي. خشيت، كما أخشى الليلة، أن يشوع الناصري،
نجل التجار، الذي ولد في أحد أحاديث العالم، سيتغلب أخيراً بقوته
وشهوته ورغبته في الحياة. هل سأبلغ آبار الحب عندما يجلدونني
وعندما يشبّونني بمسامير؟ ماذا لو أوصدت الآلام الأباز؟ ماذا لو
لم يبق لي غير صوت واحد، صوت بشريّ بائس لكي أصرخ في وجه
الاحتضار؟

طمأنني يهوذا:

- ستعود في اليوم الثالث. سأكون بانتظارك. وسأخذك في
حضني.

لم يساور الشك يهوذا على الإطلاق. استمعت له لساعات
طوال، لكلامه الواثق الذي لا يطابق شكوكي.

- ستعود في اليوم الثالث. وسأكون بانتظارك. وسأخذك في
حضني.

اقرب عيد الفصح. هذا لي الاحتفال بخبز الفطير لحظة مناسبة
لتحقيق ما أصبر إليه لأنّ جميع بني إسرائيل سيحضرون للصلاة
في المعبد. اتجهنا صوب أورشليم. في طريقنا، أبعدت عني المرضى
الذين تدافعوا عليّ ورفضت إتيان أيّ من معجزاتي التي تخاطب

تكفي بمخاطبة المرتابين وتبعث على الثروة أكثر من التأمل. في
بيطانيا ارتمت عليّ مارثا ومريم، شقيقتا لازاروس، وهما تيكيان.

- لقد مات لازاروس، يشوع. مات منذ ثلاثة أيام خلت.

رغم أن فقدان كلّ عزيز قد عوّدي على الحزن طيلة حياتي،
إلا أنني انخرطت، دون حول منّي، في النحيب مع الشقيقتين
قرب نافورة بيطانيا. بموت لازاروس العزيز راودتني رؤية تنبئية،
ستتصر قوى العدم على قوى الحياة؛ شعرت بأنّ كلّ ما هو سلمي
يسود في النهاية. سبقتني لازاروس إلى الموت ليشير إليّ بأنّ كلّ شيء
كان على وشك النهاية.

كم كان ثقيلاً ذلك الأسى الذي ربط بيني وبين مريم ومارثا،
وجمع بشرتنا الرطبة من أثر النحيب! شعرت بكتفیهما وصدريهما
بين ذراعيّ وخنّت في رعب أنّهما ستصبحان غباراً

جفّت أعيننا وقلبي لم يبدأ بعد. أردت رؤية لازاروس. فتحوا
لي قبره وولجت حفرة المنحوتة في الصخر. تضرّعت رائحة التّـ
القويّة في الهواء.

رفعت الكفن ولمحت وجه صديقي لازاروس محفوراً، شمعيّاً
ومائلًا إلى الخضرة. تمّددت إلى جانبه على البلاط. كان لازاروس
بمثابة الأخ الأكبر الذي لم تنجيه أمي: صار الآن أخي الأكبر في
الموت.

انخرطت في الصلاة. تدلّيت إلى آبار الحبّ باحثًا عن لازاروس.

هناك، بهرفي النور لكنتي لم أعلم شيئًا. «كل شيء على ما يرام»، أعاد أبانا ذلك على مسامعي ككل مرة. «لا تقلق، كل شيء على ما يرام». عندما عدت من الأبار، كان لازاروس جالسًا قريبًا. ينظر إليّ بريبة، حائرًا، متشاقلاً وذاهلاً.

- لازاروس، أنت حيّ ترزق! هل تعي ذلك؟ أنت حيّ! بدا أنّ الكلمات خانت ذهنه. حاول أن ينطق شيئًا بغمه الرخو دون جدوى.

- لازاروس، لقد بعثت من جديد! بقيت ملاحه جامدة دون تعبير؛ تراخت عيناه كأنه يريد أن ينام. أخذته تحت ذراعي وحملته إلى ضوء النهار. من المستحيل وصف شعور أتباعي وأختيه عندما خرجنا من القبر. كان لازاروس هادئًا جدًا وتائها، وعندما قبلته أخته دون أن تبدو عليه علامات الفهم صار صامتًا تمامًا كأنه ظل نفسه. لا أدري إن كان احتفظ ببعض فطته. هل كانت صدمة البعث؟ قيل لي إنه أمضى أيام مرضه الأخيرة على هذه الحال.

كان هناك صوت ساخر بداخلي، صوت إبليس، يكرر دون توقف:

- أوائق أنت أنه كان ميتًا؟
صارعت لإخماده، لكنني لم أنجح سوى في رفعه.

- حسن. عاد من الموت، لكن ماذا سيقول؟ ما الفائدة؟

شهادة رائعة، أليس كذلك؟

انزلت وانخرطت في الصلاة ياتسًا.

انقضت من أثر يد يهوذا على كفي. كان يشع نقة.

- سنعود في اليوم الثالث. وسأكون هناك بانتظارك. وسأصمك بين ذراعي.

يا إلهي، لماذا ليس لي إيمان يهوذا؟ ألا أزال مرتابًا؟ إلهي، أجوبتك لا تشفي غليلي.

انضمنا إلى الحفل الذي انتظم من أجل لازاروس المسكين، وكان حيًا وباهتًا. حاولت دون جدوى أن أركز على فرحة مارثا ومريم، على المداعبات التي كانتا تغدقانها على أخيهما الصامت ككلب. لم أستطع التخلص من هذا الاهتمام: كنت مسؤولاً عن حالته تلك. لقد حقق الرب المعجزة ليطمئن قلبي، ليؤكد لي أنني عدت من الموت وأتني على خلاف لازاروس، سأتكلم. أظن أن الرب ضحى براحة لازاروس. كان الأمر تجربة مسرحية قبل العرض. غطت وجهي دموع الحزني.

أخيرًا، نذ صوت خافت من البئر وأخبرني أن الحب الحقيقي لا يمت للعدالة بصله؛ وأن على الحب أن يبدو قاسيًا أحيانًا، وأن الرب سيمحزن حين يراني معلقًا على الصليب.

وصلنا هنا، إلى جبل الزيتون. لم أفكر طيلة الرحلة سوى بحماية

أتباعي. سيعتقلونني هنا، أنا بعفدي، بحجة الكفر والإلحاد دون أن يتحمل أصحابي هذه الخطيئة.

كيف اتجنب عقابًا جماعيًا؟ كيف أخلص أتباعي؟

وجدت حلين: أن أسلم نفسي أو يشي بي أحدهم.

لا أستطيع تسليم نفسي. سيكون ذلك اعترافًا بسيادة السنهدريم. كان ذلك يعني الاستسلام والتسكّر لمسيرتي.

اجتمعت اليوم بأتباعي الإثني عشر الأولين. كانت يدي وشفتي ترتعشان لأنني وحدي أعلم أنه لقاءنا الأخير. مثل أي رب عائلة يهودي تناولت الخبز، باركته بدعائي ومنحته لضيوفي. ثم باركت النبيذ ووزعته عليهم بتأثر أيضًا.

- اذكروني دومًا، اذكروا قصتنا. اذكروني عندما تتصدقون. عندما أرحل، سيكون لحمي خبزكم، ودمي نبيذكم. ما إن نحب حتى نصير جميعنا واحدًا.

ارتحفوا مذهبولين من نيرتي.

نظرت إلى هؤلاء الرجال الخشين في منتصف العمر، ووددت فجأة أن أكون لطيفًا معهم. كان الحب يتدفق من قلبي.

- أبنائي، لن أبقى معكم طويلًا. قريبًا سأترك هذا العالم. لكنكم سترونني دومًا، لأنني سأعيش بداخلكم، وستعيشون بي. أحبوا بعضكم بعضًا، وأحبوا الآخرين كما أحببتكم. إن الحب الحقيقي هو أن نهب رفاقنا حيواتنا.

خفقت بعضهم العبرات، لكنتي لم أشأ أن نتأثر.

- إبناتي، ستكون الآن، لكنّ حزنكم سينقلب غبطة. تمر المرأة
بعذاب شديد قبل الولادة، لكنّها سرعان ما تنسى آلامها ما
إن يخرج بشر آخر إلى الوجود.

ثمّ حانت اللحظة الأصعب، إذ كان عليّ شرح خطتي.

- في الواقع، دعوني أخبركم، سيخونني أحدكم.

سرت بينهم رجفة عدم الاستيعاب. ثمّ انخرطوا في الصراخ
والاحتجاج.

يهذا وحده كان صامتاً، هو الوحيد الذي استوعب الأمر. فاق
الشمعة شحوباً، ثبت عينيه نحوي:

- هل هو أنا، يشوع؟

لقد فهم فكري المرعبة: أن يخونني. ضاعفت انتباهه لكي
يفهم أنني لن أقصد سواه، تلعيذي المفضل، وأنّ تضحيته متسبق
تضحيتي.

خفطنا أبصارنا إلى مستوى الطاولة بينما تواصل الحفل. لم نعد
نقوى على الحديث. بدا أنّ أتباعي نسوا الحادثة برمتها، نهض أخيراً
ودنا من أذني.

- سأنصرف. سأشي بك إلى السهلريم. سيأتي العسس إلى
جبل الزيتون. سأشير إليك.

تطلّعت إليه وحملت كلامي أقصى ما استطعت من حنان:

- شكرًا جزيلًا.

ارتمى في حضني، وقد غلبته العبرات وهو يمسك بي كأننا على
وشك الفراق. شعرت بدموعه تنساب صامتة على رقبتني.

ثم تمالك نفه وغمغم بصوت مرتعش:

- ستعود في اليوم الثالث. لكنني لن أكون بانتظارك، ولن
أخذك بين ذراعي.

حان دوري لاستيقه هذه المرة. هممت له:

- يهوذا، يهوذا! ماذا ستفعل؟

- سأشتق نفسي.

- لا يهوذا، لا أرضى بهذا.

- أنت تصلب، إذن أنا سأشتق.

- يهوذا، لقد غفرت لك.

- أما أنا فلا.

ثم خرج دافعًا الجميع في طريقه. أما أتباعي الآخرون،
فلطيتهم ومذاجتهم، لم يعرفوا شيئًا من المشهد.

لكنّ أمي، الجالسة في ركن مظلم، فهمت كلّ شيء. كانت
تبتّ عينيها البيضاء والمتسعّتين من الحيرة علىّ، وتساألني

وترغمني على نفي ما حدث. لم أحرك ساكنًا، فعلمت أنها كانت على حق، وندت من حنجرتها أنه فريسة مطاردة. اقتربت لأجلس بجانبها، أرادت فورًا أن تعلمنني وتعلمني أنها قد تقبل بكل شيء، بل أنها قبلت أصلًا. ابتسمت لي وابتسمت لها. ظللنا هكذا مطولًا تبادل الابتسامات.

تطلعت لأول وجه عرفته في حياتي؛ غدا سأغمض عيني أمامه أيضًا. تطلعت إلى الشفتين التين غتا لي قبل النوم، ما كان لي أن أقبل شفتين غيرهما. تطلعت إلى هذه الأم المحرمة التي طالما أحبتها وهمست لها «ساعيني».

ها أنا ذا أنقضي الليل.

التمعت السماء بظلام حالك. وجلبت لي الريح رائحة الموت، رائحة قفص الأسود.

بعد سويعات، أكون قد أتممت زهاني. بعد سويعات، سيعلمون ما إذا كنت شاهد الرب، أو مجرد معتوه. مجنونًا آخر.

لن يظهر الدليل العظيم والوحيد سوى إبان موتي. لن أتمكن من معرفة ذلك، لأنني سأطفو عندئذ في العدم، دون وعي أو مبالاة. إذا كنت على حق، فلن أحاول الاحتفال بنجاحي مبشرًا بخير طيب لأنني لم أعش قط من أجل ولن أموت من أجل أيضًا. حتى لو أقدوا لي الليلة أنني كنت على باطل فلن أتوانى عن قبول الرهان مجددًا.

إذا خسرت، لن أخسر شيئاً.

لكن إن فزت، سأفوز بكل شيء. ومن يبيع كل شيء سويّاً.

إلهي، اسمح لي بتحقل مصري حتى اللحظة الأخيرة. لا تجعل الالم يدخل الربية على قلبي!

سأتحقل. سأتحلّد بالصبر. لن تغلت مني صرخة واحدة. ما أشدّ بطئي في السير إلى الإيمان! كم هي قويّة هذه الغريزة في مواجهة الرحمة! هيّا. ما أخشاه يبدو هيّا أمام ما أتمناه.

لكن ها هي الكنيسة تتقدّم عبر الأشجار. كان يهوذا يحمل فانوساً ويقود الجنود. اقترب كثيراً. سيشير إليّ.

أنا خائف.

أنا أرتاب الآن.

أودّ الفرار.

أبائنا، لماذا تحلّيت مني؟

الإنجيل برواية بيلاطس

من بيلاطس إلى العزيز تبتوس

أبغض أورشليم. ليس هواة ما نتنفس هنا وإثنا هو سم زعاف يجعل المرء معنوها. كل شيء صار مبالغا فيه في هذه الشوارع التي لا يجوبها المرء ليصل إلى غايته وإثنا ليضيع، وفي هذه الطرقات حيث نخبط رؤوسنا عوض أن نجول فيها، ووسط انفجار كل هذه اللغات الوافدة من الشرق، لغات يتكلم بها الناس ولا يسمعونها. بصرخ الناس كثيرا خارج بيوتهم ويهمسون كثيرا داخلها. يحترمون النظام الروماني لأنهم يمقتونه فحسب. تفوح من المدينة روائح النفاق والرغبات المكبوتة. حتى الشمس، فوق الأسوار، تبدو خائفة أيضا. لن تصدق أن الكوكب نفسه يشع فوق روما ويطوف فوق أورشليم. ذلك الذي في روما يمنحنا نورًا والذي في أورشليم يذكي الظلال؛ يصنع أركانًا وزوايا حيث يتآمرون، ودروبًا ليهرب اللصوص، ومعابد يمنع الروماني من دخولها. شمس تضيء مقابل شمس تبهم. هذا ما ورثه عندما قبلت تعييني واليًا على يهودا.

أكره أورشليم. لكن ثقة أمر أبغضه أكثر: إنَّها أورشليم في أيام الفصح.

لم أكتب لك مدَّة ثلاثة أيام لأنني لم أستطع التخلِّي لحظة عن يقظتي. إنَّ احتفالات الفطير دون خير تؤجِّج غضبي. اضطُورت إلى مضاعفة عدد العس ودورياتهم، وبشت جواسيسي دون توقُّف، وضغطت على عبوتي في كلِّ مكان كما تضغط البرقالة، وكثَّفت حراستي. لو رام بنو إسرائيل وضع روما في خطر لتمكَّنوا من ذلك خلال أيام الفصح الثلاثة. تملا المدينة، تزدهم وتتضاعف عدد سكَّانها خمسًا بمجيء اليهود الذين يعبدون إلههم الأوحِد في المعبد. من لا يجد منهم في الخانات مكانًا للعبت ليلاً، يخيِّم أسفل الأسوار أو يفترش الهضاب المجاورة تحت قبة السماء. عند حلول الصباح، تتطلَّب عبادتهم قرايين وتحوَّل أورشليم إلى مذبَّح وسوق دوابَّ عظيمة؛ آلاف الأنعام تصرخ عند الانتظار وعند الاحتضار؛ أنهار من الدماء المتخثِّرة والمنيَّسة في الشوارع؛ صوف وريش وجلود تننُّ لتجفَّ؛ أعمدة من الدخان تحتلُّ الشوارع وتلطِّخ الجدران. رائحة الشحم المحروق تجعلك تظنُّ أنَّ المدينة نفسها تصلِّي نارًا ملتهبة، لتقدِّم قربانًا لإلههم الأكلول. ذلك الأسبوع، لا أبرح شرفتي، وأشاهد مشمَّرًا أورشليم تكافح. أستمع لصياح المرشدين يَمرون في الأزقة المزدهمة يتادون الحجيج ليطوفوا بهم بين قبور الأنبياء، وبين فينة وأخرى، يتطلق نداء خرفان خفيف أو صغير بغايا أسفل الشرفات، وبغثة الملح وميضًا فضيًّا يخترق الحشد، إنَّه لصَّ عارٍ طلى جسمه زيتًا فلا يلحق به أحد، ولا يترك خلفه سوى جيوب فارغة وسيل من الشتائم.

كدأبي كل سنة، خشيت الأسوأ خلال هذه الأيام الثلاثة. وككل سنة أيضاً، سيطرت على الموقف. تم كل شيء على ما يرام. لم تحصل حوادث كبرى. من أجل حفظ الأمن، قمنا بخمسة عشر اعتقالاً ونم صلب ثلاثة أشخاص. روتين. سأرحل راضياً إلى قيصريّة⁽¹⁾، المدينة الرومانية العصرية، ذات البناء الهندسي المتقن، حيث الرخاء والأمن. هناك في معقلي، أتمكّن أحياناً من نسيان القلق الذي يشدّ وثاقي حال وصولي إلى فلسطين. أطلّ صباح الأحد وسوف أجهز حقائبي. أمضيت ليلتي أكتب لك كالعادة.

أرقتني أرض يهودية منذ زمن طويل، لكن هذه الليالي القاحلة برّرت مرسلتنا يا أخي. أنا أمدّ إليك يدي من فلسطين حتى روما. اغفر لي أسلوب البسيط وكن بخير.

من بيلاطس إلى العزيز نيتوس

- لقد اختفت الجثة !

كنت بصدد ختم الرسالة التي كتبها لك لما جاءني الجندي بوروس بذلك الخبر المرعب:

- لقد اختفت الجثة !

أدركت فوراً أنه كان يحدثني عن ساحر الناصرة وتمثلت حجم الإزعاج الذي يتظفري إن لم نجد الجثة فوراً.

(1) مدينة بناها هيرودس الكبير فيما بين 22-10 ق.م، ولكنه أطلق عليها اسم قيصريّة تكريماً لأوغسطس قيصر.

دعني ألخص لك قصة الساحر في كلمات.

منذ سنوات قليلة، برز في يهودية يشوع، أحد الكهنة المحتجين، في البداية، لم يكن للرجل شيء مميز: ملامح عادية ولهجة ريفي من الجليل ينحدر من الناصرة بالتحديد، المكان الأكثر عزلة في العالم. كل هذا كان سببته من ذبوع صيته، لكن خطابه الغامض وغير المألوف، وعباراته المباشرة، وخرافاته العذبة والعنيفة القادمة من الشرق، ولطفه مع النساء، جعلت منه، باختصار، أعجوبة تحطف الأنظار.

سرعان ما جاب فلسطين. أرسلت عيوني وراءه فأخبروني بأن الرجل مسالم، غير خطير، وأن خصومه كانوا على ما يبدو كهنة اليهود وليس المحتل الروماني. لقد فوجئ به حتى غبري.

جعلني الرية أخترق مجموعة أتباعه التي اتسعت من حوله كأنه كان يغذيها بخطابه، لكي أعلم ما الذي ينوي فعله. لأن الطوائف هنا تخفي دومًا قضية سياسية. منذ بسطت روما نفوذها، ونشرت جنودها وموظفيها، ورغم تركها للأهالي حرية إقامة شعائهم، فإن الحماس الديني مسار مرادفًا للقرمية، المنجأ المقدس حيث تنظم المقاومة ضد قيصر. أنا أنهم بعض اليهود بانتهاهم لليهودية فقط من أجل القول: أنا ضد روما. إن الفريسيين والصدوقيين، رغم فتحكمي فيهم، يعبدون ربهم الأوحده حتى يكثروا من بغض أمتنا وكل ما يتبعنا. أما المتطرفون، أعداء قيصر في العلن، وأعداء كل من يتعاون مع قيصر، فهم متعصبون أشداء، قطاع طرق لا يحترمون الحد أدنى في

أي شريعة، حتى شريعتهم، ويكفرون كل من يدينهم، ويستطيعون،
لولا حذري، أن يرتجوا وجودنا هنا أو حتى أن يدمروا بلدهم في
لحظة تشنج همجية زائدة. لهذا أردت أن أعلم الجهة التي نوى يسوع
الانضمام لها، المتطرفين، الفريسيين، أو الصدوقيين، أو أي مجموعة
كان ينوي استعمال ذبوع صيتها لإثارة الناس ضدي. فوجئت بأن
شيئا من هذا لم يحدث. لم ينجح الساحر سوى في صنع خصوم.
كرهه المتطرفون منذ أن وافق على خلاص الضرائب للرومان بقوله
«أعطوا لقيصر ما لقيصر»؛ وضبطه الفريسيون ينتهك شريعتهم
لأن الساحر كان يغض يوم السبت؛ أمّا الصدوقيون، المحافظون
وكبار كهنة المعبد، فلم ترق لهم جرأة هذا الكاهن الذي فضل أعمال
العقل على الاكتفاء ب تكرار النصوص المقدسة نفسها، وإننا خافوا
على سلطانهم وتذبذبوا موته على يدي.

«ما الفائدة؟»، ستقول لي. خلّصك أعداؤك من عدوّ محتمل!
يجب أن تبتهج لذلك.

بالتأكيد.

«ثم إنه ميت، ستضيف. لا تخش شيئا.

بالتأكيد».

طبعًا. رغم ذلك أشعر أنّ في الأمر تسرعًا. لم أحقق عدالتي،
عدالة روما، اكتفيت بإقامة عدلهم، عدالة خصومي، عدالة
الصدوقيين التي أقرها الفريسيون، خلّصت أولئك اليهود من يهودي
يعارضهم. هل كان هذا دوري؟

طيلة المحاكمة، لم تتوانَ زوجتي كلوديا بروكولا عن تأنيبي.
تطلّعت إليّ مطوّلاً بوجهها الطويل القاسي، الذي لا يحمل أثر كره
أو عاطفة.

- لا تستطيع القيام بهذا.

- كلوديا، لقد تسلّمت هذا الساحر عن طريق كهنة السنهدريم.
بصفتي واليًا، عليّ قبول مطالب الكهنة إذا رمت السلام مع
المعبد. هل تظنّين أنّ الوالي يحكم حقًا؟

على القائد الإيهام بالحكم، لكنّ قراراته تملّحها توازنات
الأحزاب والظروف.

- لن تفعل هذا بي.

أطرقت. لم أجرؤ على النظر في وجه هذه المرأة التي أحبّ
وأدين لها بمسيرتي المهنية. لم ترد كلوديا الارتباط بالأحق الذي
كنته رغم معارضة أهلها فحسب، وأنت سيّد العارفين، وإنّما
ساعدتها هذه العائلة على تعييني في منصب خطير، والي يهودية،
تلك الخطة التي ما كان لي أن أحلم بها لولا حمايتها ودعمها.
نحّبتي كلوديا بروكولا وتحترمني مثل أيّ سيّدة نبيلة من روما،
وقد دأبت على إبداء رأيها والمشاركة في أحاديث الرجال. لم أكن
لأتحمل ذلك من أيّ سيّدة أخرى، وغالبت بشدّة ذاك العنف
الذكوريّ الذي كان سيرغمني على إسكانها. من أجل الحفاظ
على مكانتي بين رجالي، اتفقنا على ألا نتحاور على الملأ. لكنّها
كانت تتهزّ خلوتنا لجدالنا الحادّ.

- لن تفعل بي هذا. لولا يشوع لكنت في عداد الأموات.

كانت تلمح إلى مرضها الذي ألزمها الفراش لأشهر طويلة.
كانت تنزف ببطء. أحضرت كل أطباء فلسطين والرومان والإغريق
والمصريين وحتى اليهود دون جدوى! لم يستطع أي واحد منهم
إيقاف النزيف الذي يدوم عند النساء أربعة أيام في العادة، لكنه لم
يتوقف عند كلوديا بروكولا.

غامت الحياة في وجهها وفي لونها. أرعبني شحوب شفيتها.
أدنى حركة كانت تجعل قلبها ينبض بإيقاع عجون فأرى نهاية كلوديا
تقترب.

حذنتها إحدى الخادמות عن ساحر الناصرة فاستأذنتني في
استدعائه. قبلت دونما أمل، ولم أحضر حتى المقابلة.

أمضى الرجل كامل الظهيرة قريبا. عند المساء توقف نزيف
كلوديا. لم أستطع تصديق الأمرا بقيت مترددا في أمر استلامي
للسعادة بشفائها.

- ماذا فعل بك؟

- لقد تحدثنا، لا غير.

- ألم يلمسك؟ ألم ينصت لقلبك؟ ألم يظلك بمرهم؟

- تبادلنا الحديث فحسب. وخضنا في أمور عديدة.

لم تقو على إجابتي لكنها ابتسمت لي. في الصباح، بدت أوفر نصارة
وحبوية، كأنها طالتها قطرات الندى. التفتت إلي وقالت بباطة:

- بفضلہ رضیت آتما لم ننجب أطفالاً.

أنت تعلم يا عزيزي تيتوس كيف يبدو أولئك النسوة من عليّة القوم من روما: يمنحك جملة غامضة ونظرة عميقة وعليك أن تزعم أنك فهمت لكيلا تصنف كغبي. تظاهرت بالتفهم مع مسحة من الدحشة ولم تتحدث بعدها.

- لقد أنقذني يشوع. أسعفه أنت أيضًا.

اعتمدت ميثاقًا للشرف لا يمتّ بصلّة لمنصب الوالي الذي أشغله.

- سأجلده أمام الملأ.

في العادة، تكفي دفقة من الدماء لإطفاء تعطش الحشود. هكذا، وقفنا عند هذا الحدّ.

وافقت كلوديا. قدرنا سويًا أنّ الساحر سيخرج من المأزق. لكنّ مشهد جلد السباط لم يحقق التأثير المرجوّ. جلب جنوديّ الرجل إلى فناء حصن أنطونيا وانهالوا عليه ببعضيّهم. لكنّ عجبًا، لم يصرخ المّدان، ولم يحتجّ ولم يطلق أيّ خرخرة من أثر الضربات. كان يبدو كمن به مسّ. أحكم وثاقه لكنّ سلوكه لم يشبه سلوك المذنبين ولا الأبرياء على حدّ سواء: كان عرضة لعذاب لم يرقّ له لكنّ رضي به. جرح وسال دمه دون آنة واحدة. استهزأ يشوع بجلاّديه، جاعلاً من العدالة محلاً للسخرية ومن العقاب زيفًا وتزويرًا. خاب ظنّ الحشود. ثارت ثائرتهم واعتبروه ممثلًا فاشلاً. أرادوا فرجة ونهاية مثيرة. كانوا يطالبون بالموت. التحفّت بكلوديا في ظلال الحصن

لأبلغها بفشل غمطنا. لكنّها تابعت المشهد وأراحت رأسها بين ذراعيّ وهي تتحبّب.

- قم بأيّ شيء. أتوسّل إليك. افعل شيئاً.

لو ذرف يشوع ريع دموع كلوديا لدفع الحشود إلى طلب الرحمة دون شكّ. ساجد مخرجاً من أجل هذا الساحر ومن أجل زوجتي ممّا.

- التقاليد! تقاليد عيد الفصح!

فهمتني كلوديا فوراً وشكرتني بنظرة إعجاب جعلتني اعتقد أنّي لا زلت شاباً ووسياً رغم أغوامي الثمانين.

أصدرت الأمر إلى رجالي ليخرجوا من السجن نصّاً معروفاً هنا، سرق الجميع واغتصب عديد الصبايا. كان هذا الحقبير يمضي ليلته الأخيرة هناك لانه يتظر أن يصلب في الماء رفقة نصّين آخرين أقلّ خطراً.

صحت بالأهالي وذكّرتهم بأنّ تقاليد أيام عيد الفصح تقتضي من والي روما أن يعفو عن أحد المساجين. اقترحت عليهم حيثنّ أن يخيروا بين باراباس ويشوع. لم أشكّ لحظة في اختيارهم. كان يشوع محبوباً ومسالماً وباراباس خطيراً وغيظاً.

صمت الناس، وهم مصنومون. كانوا يرون يشوع متهاوياً مطاطاً الرأس، ينزف، ثمّ رأوا باراباس متصبّاً يصفّ على ساقيه المفتولتي العضلات يتعلّاهم في جراءة. شرعوا يتهامون

ويشاورون فيما بينهم. انتقل بعض الرجال من فرقة إلى أخرى: ظننت أنهم أتباع الساحر يحاولون التأثير على القرار. رفعت نظري نحو الحصن فلمحت عبر النافذة عيني كلوديا الثاقبتين. تبادلنا ابتسامة.

صاح صوت العامة بحكمهم. تضرع مثل إشاعة همسوا بها، ثم نطقوها، ثم هتفوا بها، ثم رددوها، ثم صرخوا بها: «باراباس! لم أفهم. طالبت الحشود بتحرير اللص والمفتصب والقاتل. لم يقترف يشوع شيئاً، عدا بعض التناول على الدين، الذي اتهم بيه، أما باراباس الحقيق، القفّ، الدموي، الأناني، باراباس الذي اشكت منه كل أسرة هنا، كان يستحق العفو في نظرهم!

ثارت ثائرتي، خاب ظني وأحسست بالقرف، لكن كان عليّ الإذعان لهم.

قيدت يدي عندما التزمت بالأمر معهم. قرّرت أن أغسلهما أمامهم. أتيت هذا الطقس الذي يعني أنّ الأمر لم يعد يعني. أمام الرقاب الغاضبة، من أعلى منصتي، سكبت الماء اللين الناعم على يدي، وفركت كفّي في هدوء، ولمحت قطعة من قوس قزح تتحلّل في المياه المتلاطمة وسط الوعاء النحاسي.

فكرت في أعماقي: أنا لا أمثل العدالة على أرض يهودية، لكنني أمثل روما. في اللحظة ذاتها، جال بخاطري: لماذا رضخت لأمر روما وهي التي تنصّلت من العدالة في أراضيها؟ ذهبت لألقي نظرة أخيرة على المساجين قبل العودة إلى الحصن، وبغته أدركت ما

غير مصير الرجلين، ووضع أحدهما على الصليب والآخر خارج السجن: كان باراباس وسيماً أما يسوع فقبيحاً.

كانت كلوديا تنتظري في حجرتها. نظرت إلى هذه الرومانية الفارعة تغطّيها غلالة شاحبة اللون وقد حبت مفاصلها الرقيقة في أسورة ثقيلة، هذه السيدة النبيلة التي كانت تلال روما السبعة رهن إشارتها، عصّت أصابعها من أجل قرويّ من الجليل!

كانت تردري الحشود من نافذتها، ملاحظها مشدودة وقد صبح شفيتها الغضب، ولم تستغ الظلم بعد.

- لقد أخفقتنا يا كلوديا.

واقفتني بإيماة بطيئة. ظننتها ستحتج، لكنها بدت قابلة بالأحداث الماضية.

- لم يكن بوسعك فعل أيّ شيء، بيلاطس. لم يساعدنا بشيء.

- من؟

- يسوع. بسلوكه ذاك، جنى على نفسه بالموت. كان يريد أن يموت.

لعلها كانت على حق. لم يوجه الساحر أيّ إشارة يحصل بها على الرافة، لا إلى الكهنة، ولا إلى الحشود ولا حتى إلى. في مقابل ذلك، حمله جموده إلى حتفه.

- لا تملك غير الترقّب، خنمت كلوديا.

تفرّست فيها دون أن أفهم.

- ترَقَّب ماذا، كلوديا؟ لن يظلّ هنا بعد سويعات.

- علينا أن نفهم ما قصد إليه من موته.

حاولت جاهداً حبّ كلوديا، أشرف صبري الذكوري على النفاذ أمام ذكائها الأنثوي. تشمي كلوديا إلى الطائفة التي تجدد في كلّ ما يحيط بها علامات، تساقط ورقة من شجرة، تخليق عصفور، التلقظ بكلمة ماء، التقاء الأفكار، اتجاه الرياح، شكل غيمة، عيني قطّ أو حتى صمت الأطفال. إنّ النسوة، مثل النجمين، يفكرن في كلّ شيء، يرون العالم كقطعة رقّ، هنّ لا ينظرن وإنما يفككن رموزاً. كلّ شيء يحمل دوماً معنى، إن لم تكن الدلالة ظاهرة للعيان، فإنّها مخفية بصفة مؤقتة. لا توجد نفرة أبداً ولا شيء دون معنى. لا يوجد عالم مبهم تماماً. كم وددت إجابتها بأنّ الموت هو الموت، وألا أحد يقصد شيئاً بموته، وأنا جميعاً معرّضون للموت، وأنها لن تجد من معنى لموت ساحرها سوى أنّ حياته انتهت. لكنتي تمالكت نفسي في آخر لحظة: ربّما اخترعت كلوديا كلّ هذا العالم بنفسها لتجنّب شدة العذاب.

اتخذت كعادي ملامح من يقلّر كلام كلوديا والتحقت بجنودي لأتحقق من تفاصيل الإعدامات.

بعد سويعات، كان يشوع ميتاً وباراباس حراً طلباً.

-اختفت الجنة!

مستفهم صدمتي عندما يأتي قائد الجند بورروس يعلمني بالخبر.
ما زال الكثير في جراب الساحر استفرح كلوديا حتمًا.

أحاطت بي فرقة من حُرّامي الشخصيتين وأنا أعبر المقبرة،
غير بعيد عن القصر، لأتلق ذرات الحقيقة المتبقية في الهواء. ثمة
عشرات من اليهود، نساء ورجالًا، يقفون حول القبر، وقد تراجعوا
إلى خفاف الزهور عند مرورنا. لم يتبق سوى زوج من الجنود قبالة
الحفرة العميقة. من بزاتهم، أدركت انتهاءهم لحراس قياغا، الكاهن
الأعظم للمعبود، أشرس من سعى إلى إدانته يسوع وإعدامه.

- ما الذي يفعلونه هنا؟

شرح لي قائد الجند أن الكاهن الأعظم توجس خيفة من سرقة
الجثة لتحويلها إلى طقس عبادة تفرض حراسة حول القبر منذ ليلة
أمس.

- إذن، ماذا رأيتم؟

صمت الحارسان. جفوتها مغلقة، توشطت رأسين بملامح
غليظة كفأس، كأنها قنعتها من الطين أصابع خراف مَيَّء. ارتجفت
شفاهما لكنهما لم يقولوا شيئًا.

- لقد جلستما يا بيلاطس. يقولان إنهما لم يلاحظا شيئًا أثناء
الليل.

- مستحيل.

اقتربت من الضريح، قبر من الطراز المحلي لا أظنك رأيت مثله.

لا تحفر الأرض في فلسطين، وإثنا يتّؤون غارًا في جدار صخري. ثم يخلق الغار بصخرة مستديرة عظيمة تحل محل الباب.

جذبت الصخرة جانبًا وصدّت بيسار جعل المدخل مفتوحًا تمامًا.

- لماذا فتح الضريح؟

- أنت النسوة هذا الصباح لوضع الطيب من المر والعود العطر هدايا للفقيد.

- من دحرج الصخرة؟

- - النماء بمساعدة الحراس. لم يوقفوا بسبب ثقل الصخرة فانضمت إليهم أثناء جولتي، أجاب قائد الجند. هكذا علمنا أن الضريح خال.

نظرت نحو قوّة الظلال. لم أتمكن من تصديق قصة الجثة المخفية. إذا تطلّب الأمر كلّ هذه الجهود لنقل الصخرة، فكيف تمكّن الساحر من ذلك بمفرده أثناء الليل؟ إطلاقًا. محال. ولجت الضريح دون انتظار. فعلت ذلك مكرّمًا. ذهلت. لماذا نزعج الموتى؟

بعد ردة قصيرة، قادنا الغار إلى غرفة حفرت في صخرها ثلاث طبقات، كانت كلها خالية تمامًا. فوق واحدة منها فحصب، وجدنا آثار الساحر: شرائط ومراهم وبالحصوص كفتًا قد من نسيج عالي الجودة، متسخًا بآثار جروح داكنة. كان مطويًا بعناية على حافة المرفد.

غير معقول. بالإضافة إلى اختفاء الجثة، فإن هذا النسيج المرتب بهذه الدقة غير منطقي تمامًا. من جرّده من قطع الجلد وقشور الجرح التي تبقيه ملتصقًا بالجثة؟

ثم من تحسّم عناء ترتيبه بشكل هندسيّ دون فائدة؟ من له كلّ هذا الهوس الخارج عن الموضوع؟ هل كان الساحر على هذه الدرجة من العناية حتّى إنّهُ لما عاد حيًّا...

أمسكت ذلك الشيء وعصرته بأصابعي، كأنتي أستلزّ منه الحبل. اختلط عليّ الأمر وراودني الفتور. جلست على المرقد لأتحلّل نفسي هناك، ميتًا، ومحتجزًا لساعات بلا نهاية، في ظلام حالك سوى من بصيص شمس تسأل عبر شقوق الصخور، في هذا العالم الخالي من النبات والأصوات. رأيت نفسي يشوع الفارع ذا الجسد النحيل ملقًى هنا بعد آلام الصليب. تسأل شيء كالرصاصة المصهور إلى رثتي. رزح صدري وكنتفيّ تحت حمل كان يدكّني ويسوّني بالأرض. رغبت في الاستلقاء. خارت قواي. خدر عجيب ترادح بين المتعة والحزن سلّبي إرادتي وساقني على حدّ سواء. بغتة، أدركت ما جرى عندما لمحت كومة هائلة من الأعشاب المعطرة، مزيج من المرّ والعود، وضعت هناك لتتقيّ الهواء لكنّها كانت تحذّرنني.

انتزعت نفسي من الضريع وخرجت متطلعًا كالسهم. صفعتي قبض من نور الشمس صفعة محيية. اطلعت إلى الكروم، وأشجار الكرز المزهرة، وأوراق الربيع الخضراء، هذا الكون المشيع عطوّرًا وألوانًا وزفرقة عصافير حتّى يجعلنا نشكّ في وجود الموت. عندما

عدت إلى حصاني، أَلقيت نظرة أخيرة على الحُرَّاس الذين وقفوا
ببلاهة. تحققت فوزًا من حذقاتهم الواسعة وقدّرت أنهم تحت
تأثير المخدرات. أبصرت قريتين من الجبل فوق العشب غير بعيد
من هنا. فارغتين! عندما شممت عنقي القريتين، لم أستطع تبيّن
أيّ مخدّر بين الروائح الخشنة والقويّة لخمور فلسطين السيّئة. رغم
ذلك، وجدت شيئًا ذا بال؛ لقد تمّ تخدير الحُرَّاس. لذلك لم يتمكّنوا
من رؤية مجموعة اللصوص أو سماعهم وهم يدرجون الصخرة
ثمّ يعملون الجثة ويطلقون الضريح. لإخراج مسرحيّ ممتاز؛ حتّى
جمهور على درجة من الذكاء كان سينسب إلى الساحر قوى خرافية.
عدت إلى القلعة واتخذت قرارات حاسمة: يجب اعتقال اللصوص
والعثور على جثة يشوع.

تعجّب أمانتي.

- يا سيدي الوالي، لن نشغل أنفسنا بتدنيس تابوت يهوديّ. إنّ
الأمر يهمّ الكاهن الأعظم وليس من صلاحيّاتنا.

- عليّ ضمان الأمن.

سلامة الأحياء يا بيلاطس، وليس سلامة الجثث، جثث يهود،
ولاستيّا جثة يهوديّ مجرم.

- لم يكن يشوع مذنبًا.

- لكنك أمرت بصلبه.

ضربت الطاولة بقبضتي.

- أطيعوا الأمر فحسب. لو تركنا الناس يظنون أن يشوع عاد حيًا ودحرج صخرة ضريحه بمفرده، فإثنا سنخوض أكبر فوضى يمكن تصورها على هذه الأرض المتعقنة! سيتمكن مرتكبو السرقة من خلق حركة دينية قوية ليصبح اسم يشوع قريبًا على شفاه جميع بني إسرائيل حتى يتمردوا علينا ولن يقر لهم قرار حتى يطردونا، نحن الرومان، سبب عذاباتنا. ربما تزداد الأمور سوءًا وتقلب موازين القوى هنا. لو ينجح عرض اللصوص، سيثرون حفظة الشعب ضد الفريسيين الذين كانوا يفضون يشوع، وضد الصدوقيين الذين حاكموه، وحتى ضد المتطرفين لأنه تم إطلاق سراح باراباس، ابنهم، في مكان يشوع. باختصار، إذا لم تعثروا هذه الليلة على المهرجين الذين سخروا من الجميع، فإن بني إسرائيل سيتأخرون غدًا وسنغادر إلى روما، شرط ألا يُقضى علينا قبل التحاقنا بميناء قيصرية. هل هذا واضح؟

نفذ بوروس تعليماتي وانطلق يبحث عن المذنبين. كانت لي فكرة دقيقة عن أسمائهم. بعد سويعات، ستنتهي هذه المهزلة ويستتب النظام. في الأثناء، أكتب لك، أخي العزيز، لأعلمك بالأمر أولاً ولأخفي تفاد صبري. لم ينفك الخدم عن حزم أمتعتنا للعودة إلى الشكنة، فأنا أثق في أن هذه القضية ستحل سريعًا. سأكتب لك حول الأحداث حالما أصل إلى مقرّي في قيصرية. كن بخير.

من بيلاطس إلى العزيز قيتوس

كانت الساعات الأخيرة مربكة. تحدى الموقف منطقي الخاص،
رغم أنني لست من أولئك المتحمسين الذين يحملون بالحقيقة دون
رؤيتها فعلاً، وينسبون إليها ألف خصلة، وألف كلمة غير منطقية،
وألف نية مستترة تكون سبباً في مواساتهم، وألف صمت يعتبر عن
نفسه في سروره، لست البتة من أولئك الذين يعشقون في خيالهم،
لست من خالقي الطيبة والجمال، محبي الكمال، الطوباويين، صانعي
البهجة والسرور. أنا أعرف الحقيقة، أو أسوأ من ذلك، أشك في
أمرها. أتوقع يوماً أنها أقبح مما تبدو عليه، وأعنف أيضاً، أشد
تشعباً، مخاتلة، حقودة، أنانية، بخيلة، عدوانية، ظالمة، ومتغيرة،
باختصار شديد، محيية للأمال. لا أتركها لحال سبيلها أيضاً، وإنما
أتعقب هذه الحقيقة، أحاصرها، أرصد ضعفها وروائحها التنة،
وأستعجل ثمرتها القنطرة.

يضمني صفاء ذهني طعمًا لاذعًا على وجودي، لكنه يجعل مني
واليا ناجعًا. لا يمنعني أي مديح أو كلام معسول مليء بالوعود
من الوعي بما يحدث حولي. قليلاً ما أخطئ لأن ذهني مشحود
كسكين. تعودت إغفال الرؤى المتفائلة وصرت أذهب رأساً إلى
هدي في وسرعة. لكن الساعات الأخيرة منحتني شعوراً بمراوحة
خطاي في حلقة مفرغة.

عشر رجالي في الظهيرة على أثار المريدين. لجأ المشيعون ليشوع
إلى ضيعة مهجورة، خير بعيد عن اورشليم.

غادرت القصر مخفورًا بعشرين رجلًا. عندما عبرنا أبواب المدينة، تجاوزنا الحجاج القافلين إلى أقاليمهم، الذين احتال عليهم أصحاب الخانات، واستغلهم التجار، وابتزهم الكهنة، لكنهم كانوا يحملون ملامح لينة وعبودًا راضية لرجال أتموا مناسكهم.

انصبت أورشليم خلفنا، في قاع الوادي، تحيط بها الأسوار، مفاخرة بقلاع قصر هيرودس الأكبر، وشموخ المعبد بأبوابه الرخامية البيضاء التي زادها طلاء الذهب بروزًا. رفعت كفتي: لقد كانت عاصمة حقًا، لكنها عاصمة مشرقة، مرفقة، متفطرة، وخداعة، عاصمة للأكاذيب الدينية، عاصمة لاستغلال السجايا الطيبة، عاصمة للتلاعب بالأنفس عبر ثنائية الذنوب والتوبة، معقل للابتذال أدانه الساحر الناصري بضراوة، وهنا أعترف بأنني كنت أوافقه تمامًا.

عندما تجاوزنا القعة، أشار بوروس بإصبعه إلى حظيرة غم متصدعة السقف بالأسفل.

- إنهم يختبئون هنا.

نشرت الحراس بشكل يجعلنا نداهمهم من كل جانب حتى لا يلوذوا بالفرار. ثم ركضنا، عند إشارتي، نحو البناية.

لم يتحرك أحد داخل الجدران. كان علينا إخراج الاتباع واحدًا تلو آخر لأنهم كانوا يرتجفون كالجراد.

اصطفوا قبالي. زكمت أنفي رائحة حيوانية انبعثت من

أجسادهم، رائحة الرعب، رائحة من ينتظر الموت. لقد ظنوا أنني سأعتقلهم لأجعلهم يعانون مصير معلمهم نفسه. توقعوا صلبهم وهم يتصيّبون عرقاً بعروق متفتحة وعيون جاحظة، وكان رد فعلهم أكثر غريزية من سيدهم.

لم أكن غطئنا: كان عددهم كافياً لدحرجة الصخرة ونقل الجثة في صمت. لقد روي أنهم فرّوا من أورشليم يوم اعتقال يسوع، وأتهم لم يشهدوا لإعدامه، خوف تكالب الكهنة على الأتباع بعد المعلم. ربّما اختبأوا وقت الإعدام، ثم تولّوا، في غفلة من الجميع، سرقه الجثة في مسرحية متقنة اضطرتنا إلى تصديق اختفاء الساحر من تلقاء نفسه بفضل كراماته الماورائية. كان هذا الغموض يكفيهم ليعيشوا بضعة سنوات أخرى بشعائر يسوع في ظلّ السذج.

- أين الجثة؟

لم يجب أيّ منهم. لم يبدُ أنهم فهموا السؤال.

- أين الجثة؟

تفادوا نظرتي وقد ازداد رعبهم. كانوا خائفين منّي بشدة جعلتهم يودّون إجابتي. جثا أحدهم على ركبتيه.

- الرحمة، سيدي، الرحمة.

حذا الآخرون حذوه. ركعوا ملتجئين علزاً.

- لقد صدّقنا يسوع. خدعنا بوعوده وكلامه المعسول، لكننا لم نؤذِ أحداً، مطلقاً هو من بعث معروضات تجار المعبد، وهو

من طرد الباعة والصرافة بضرب السياط! أما نحن فقد بقينا في الخلف، قابعين أسفل الباب، مندهشين من غضبه. هو من عارض السبت لا نحن. خطونا الوحيد أننا أنصت له كثيرًا. لكننا اليوم نادمون. منذ قضي نحبه على الصليب دون أدنى رد فعل مثل أيّ لص، أدركنا خطانا. ونحن الذين تركنا أسرنا وأعمالنا من أجله..

كانت لهم رؤوس تحمل فضيحة من تعرّض لخيانة. حسب جواسيسي، اتبع بعضهم بشوع منذ أربع سنوات، وقد لازموا بؤسه، إيانته، كفاحه ورؤياه، والآن تحطّم حلمهم عند موت بطلهم في مقبل العمر. تحطّمت مناعتهم على صليب! اليوم أدركوا كم كانوا مُدَجَّجًا. غداً سيعاملون كحقيقى. سيسخر منهم الجميع دون هوادة حتّى أيامهم الأخيرة، والأنكى من ذلك أنهم سيضطرون إلى التهنّك من أنفسهم. كانوا يهوذا بؤساء، شابًا من أبناء الشعب لكنّ قسوة الترحال والتعرّض لأشعة الشمس، والاستجداء جعلتهم يبدون أكبر سنًا من أترابهم الرومان. انبطحوا عند قدمي كالقطيع.

- أنتم عشرة فحسب، لماذا؟

تذكّرت أنّ تقارير جواسيسي شملت اثني عشر متشيّعًا.

- انتحر أحدنا شتقًا.

- والثاني عشر؟

- لبث يوحنا شقيقنا في أورشليم.

مال بوروس عليّ وهمس لي أنّ يوحنا و جاكوب سلبا أسرة
ثوية نافذة تربطها علاقة وطيدة بالكاهن الأعظم قيافا.

-لقد غادرنا يوحنا هذا الصباح ليذهب إلى الضريح.

-وأنتم؟

-نحن، نحن سنعود إلى بيوتنا. لقد عرفنا خطانا.

-أين كنتم هذه الليلة؟

-هنا.

بدوا صادقين. ما كان لهم أن يشعروا بالذنب لو أنهم كذبوا.
كانوا سيدلون بحججهم بكل قوة.

أمرت رجالي بتفتيش الحظيرة وما حولها. لم يعثروا على الجثة.
لم يبد على الأتباع أنهم وعوا ما كنت أبحث عنه، فقد واصلوا اتهام
الساحر والدفاع عن أنفسهم. كان سيميون أشدهم شراسة في إهانة
سيده السابق. كان عملاقاً، عريض المنكبين، مفتول العضلات،
رقبه قوية فيها عروق نافرة. كان يتنصل من كل ما عبده في السابق
بطاقة جعلتني أتحلل حجم المبالغة التي عظم بها يشوع وأحبه في
الماضي.

بدأت أشعر بالإرهاق جراء هذا الأمر. كان جلياً أنّ هؤلاء
الأتباع فقدوا كل شيء واقتنعوا بأننا قدمنا لاعتقالهم، وأن مصيرهم
سيكون حتماً سجن أنتونيا، محاكمة بمجلس السنهدريم والموت آخر
الأمر. لو كانت لهم حجج أخرى يدافعون بها عن أنفسهم لقدّموها.

في تلك اللحظة، ظهر على الطريق شكل أبيض اللون. قدم من
أورشليم ركضاً شابٌ وسيم، ممشوق القوام في الثامنة عشرة من
عمره، وقد بدا فريسة لانفعال شديد. لم يأبه لوجودي وأصرع نحو
الأتباع صارخاً:

- اختفى يسوع من قبره!

ذهل أولئك اليهود حتى جعلنا جمودهم ترتاب في سماعهم
الخبر. كرر الشاب الخبر في جهور وهو مندهش من عدم استجابتهم.
نظر إلى الأتباع بأطراف عيونهم دون أن يستمعوا له، كأنهم يحاولون
إخباره بأنني هناك.

التفت الشاب اليافع وابتمسم لي دون اضطراب.

- عمت صباحاً، بيلاطس البنطي. أدعى يوحنا ابن زبدي.
قدمت لأعلمهم بأن جميع من في أورشليم يعلمون الآن
بالأمر. لقد غادر يسوع قبره!

كان ليوحنا ما لأبناء العائلات النافذة من جسارة وقحة.
لأنني لا أطيق أن يوجه إلي الخطاب قبل أن أنكلم أولاً فإنني لم أجب
وأشرت إلى طاقمي بالتجمع.

أشرفت على الأتباع من علي.

- لن أعتقلكم. عودوا إلى دياركم، ولا تطلقوا أورشليم مجتذاً.
إنّ كلماتي، انفرجت الأسارير كما تروى الأرض الجافة عند
هطول المطر.

نظر بعضهم إلى بعض مندهشين: صاروا أحرارًا!
انحنوا أمامي جميعًا إلَّا يوحنا. أما سيمون، فقد دفعه العرفان
إلى تقبيل قدمي دون انزعاج من فرحته المعزوجة بالهوان.
أتبينهم للمرة الأخيرة:

- عودوا إلى بيوتكم وأعمالكم، انسوا الساحر وكفّوا عن نشر
خبر اختفاء جثته. سنجدّها بعد برهة، ونلقّي بالصوص في
السجن.

انعجر يوحنا، ضاحكًا. لمحت أسنان الشاب الجميلة تسخر
مني في وقاحة. أمسكت سوطي لأجلده، لكنّه استوقفني قائلاً:
- أعرف من أخذ جثته بشيء.

بدا صادقًا. هل يفدّه استجابتي إلى كم المشاعر المحترمة هذه؟
أصّر وهو يطنع إلى عيني:
- أعرف من يكون.

أعدت سلاحي إلى عزاسي ببطء. في نهاية الأمر، لم تكن هذه
الحملة دون جدوى

- كيف عرفت ذلك؟

- كان كلّ شيء مسطرًا. كانت هناك خطّة.

- عظيم، كيف ذلك؟

- سار الأمر كما خطّط له.

- عظيم. ومن سرق الجنة؟

- الملاك جبريل.

تأملت الصبيّ البائس طويلاً. كان يؤمن بما قاله بكلّ جوارحه. لعلمك، من حسن الحظّ أنك تجهل كلّ هذه السخافات العبرانية. أعلم أنّ الملائكة اختصاص محليّ، غامّا مثل البرتقال والتمر والخبز الخالي من الخميرة، هم رسل من الإله الواحد، مخلوقات نورانية تتخذ أشكالاً آدمية، لا جنس لها، تدخلت مراراً لتكتب تاريخ هذا الشعب. يهبطون من السماء ويصعدون إليها، يتخذون سلام لم أرها قطّ. إنهم ضدّ الرومان اليوم كما كانوا معادين للمصريين قديماً، لأنهم يتضامنون مع اليهود في كلّ معاركهم. يطلب اليهود عونهم كلّما أعوزتهم الحيلة ويحدث هذا دومًا. لقد فسر هذا الشاب كلّ ما لم يستطع إدراكه على أنّه تدخل من السماء، وليضفي مزيداً من المصداقية على تفسيره فقد أخبرنا بلقب الملاك: جبريل، لأنّ هذه المخلوقات العجيبة، رغم أنّه لا أحد يدعوها، لها أسماء متشابهة تدلّ على خلقهم الإلهي. ميكائيل، رفائيل، جبريل. ستقدّر من خلال هذه السففة ما معنى أن تكون حاكم يهوديّة. لا أشهد يومياً حالات فوضى من خصام وانتفاضات وأعمال شغب فحسب، وإنّما فوضى أفكارهم أيضاً. نصيني يهوديّة بالجنون مثل الخمر التي تذهب بكلّ الصفاء. إنّ المفارقة على هذه الأرض الجائعة الصحراوية دون غيوم تكمن في الضباب الذي يصيب الفكر. أمرت جنودي بالعودة، وغادرتنا الاتباع في صمت لأننا صرنا نعلم وجهتنا لاسترجاع الجنة.

عندما علمت أن الأتباع لن يقدموا على فعل أي شيء من شدة
حبهم، خنت فوراً موطن الحيلة. لا شك أنه شخص نافذ يستطيع
تجنيد فرقة لصوص مهرة، كتومين وصامتين، ثم يخفي الجثة دون
إثارة الشكوك. اتجهت إلى ضيعة الثري المحترم جوزيف الرامي.
كيف لم أفكر فيه من قبل؟

لا شك أن جوزيف كان الرجل الذي يتحكم بكافة الأحداث
مثل يومين.

ظهرت الضيعة شرق أورشليم بعد بحر من الزياتين. حولها
امتدت الكروم على مرمى البصر. كان جوزيف من أثرى الأثرياء
هنا بفضل الخمر التي كان يعصرها منها، وقد مكّنه ذلك من مقعد في
السندريم، ذلك المجلس الذي يقيم العدل في القضايا الدينية، منها
عاصمة الساحر. يضم السندريم ثلاث طبقات - الكهنة والفقهاء
والعائلات الثرية الكبرى - وعلى الأخيرة يعتمد جوزيف من أجل
مقعد هنا، وهو يقدّم خطاباً معتدلاً، بعيداً عن الغلو الديني المعهود.
لكنه كان مهتماً بيسوع. جاءني جوزيف ليلة الإعدام يطلب الإذن في
إنزال يسوع عن الصليب وغسله ودفنه في قبر جديد هبّاه له.

كان يبدو متزججا عند طلبه هذا، لذلك شككت أن تصويته في
السندريم على إعدام يسوع كان من قبيل الانضباط فحسب، وأن
المصلحة الدينية كانت أكبر مما بدت عليه. قبلت اقتراحه بدفن يسوع
دون تردد، شرط العجلة في الإنجاز قبل مغيب الشمس، وقبل أن
يمنع شباط والقصح كل نشاط. علاوة على ذلك، احترمت جوزيف

دومًا، ناجر حكيم، أب مثالي، وعضو معتدل بالمجلس الذي أحاول
جاهدًا السيطرة عليه.

في تلك الآونة، لم أتخيل أنني وافقت على حيلة كبيرة.

تجاوزنا بوابة الضيعة وألفيناها في حالة عجيبة. كانت الأبواب
والنوافذ مفتوحة ولم تكن بها نساء يتنادين؛ والحظيرة مفتوحة على
مصراعها، وقرن الدجاج مرارب، لكن لا يوجد أي أثر لراعي، أو
سائس خيول أو مزارعة. تقدّمتنا عبر وسط جامد، يبهتنا الصمت.
أكوام من التبن متشرة على الأرض، ومعدّات ملقاة، وعصي
متصبة مغروسة في الدبال.

ترجّلنا واكتشفنا مزيدًا من الغرابة داخل منزل الضيعة: كانت
الحزائن خالية والأكياس مبقورة، والثياب مبعثرة، والأثاث مقلوبًا،
والأسرة رأسًا على عقب، والحشايا ممزقة والستائر ممجّنة. لا مجال
للسك: الضيعة نهب.

لكن، أين ساكنوها؟ خشيت الأسوأ. أرجو ألا نعرثر على جثث!
أمرت رجالي بتفتيش الحظيرة والإسطبل وما جاورهما. جُلت
في البيت رفقة بوروس.

ولجت الحجرة الرئيسية، حجرة جوزيف وزوجته. كان كل
شيء رأسًا على عقب لكن لا وجود لأثار دماء. جحظت عيناي
عندما لمحت الفراش، إذ تثررت فوق الملاءات المتجعّدة محتويات
خزانة من الحلّي والأساور والخواتم وسبائك الذهب..

كيف يمكن تأويل هذا؟

زار اللصوص منزل جوزيف ولم يحملوا شيئاً إذن؟ هل تركوا هذه الثروة مخافة العقاب؟ عمّ كانوا يبحثون؟ عن شيء آخر؟

- القبوا علينا التوجه إلى القبوا تبني بوروس دون أن يفهم. عندما اقتربنا من البوابة الثقيلة، تناهت إليّ أنات وعلمت أنني على حق: كان كل من في الضيعة من نساء ورجال، وأطفال وشيوخ، مقبدين ومكتمين وسط الجرار والبراميل.

خلصت جوزيف من أغلاله بنفسي وساعدته على الخروج من القبوا. كان وجهه يحمل تجاعيد بارزة وواضحة، تحيط كالشمس بعينين زرقاوين شاحبتين، وتلمخص نزاهة حياة كاملة. كان كل شيء متناسقاً ما عدا حاجبيه الكثيفين.

- ماذا حدث يا جوزيف؟

- رجال أتوا يبحثون عن الجثة.

التفت نحوي ونذت منه ابتسامة ساخرة.

- لقد فكروا مثلك.

- من هم؟

- كانوا ملثمين.

فهمت من كلام جوزيف أن الرجال كانوا ملثمين خشية أن

يعرفهم، وذلك لأنهم من أورشليم، ومن من أورشليم يريد أن يجد
الجنة ليمنع أي عبادة بعد موت يسوع سوى رجال السهديم؟

غمغمت في اهتمام:

قيافا؟

لم يجب جوزيف الرامي، كانت الطريقة المشرفة الوحيدة التي
يكشف بها يهودي سر الروماني.

- هل عاد قيافا بخفي حنين؟

تطلع إلي جوزيف الرامي مطولا.

- أجل. إذا لم تصدقني، أذهب وأسأله. لقد اهتمتني بأشياء لم
تخطر لي على بال. لحسن الحظ. لأنني سعيد بأنني شهدت الأحداث
دون أن أحرّك ساكنا. والآن لا نملك سوى الانتظار.

- ماذا ننتظر؟

- التحقق من سرقة الجنة. يجب أن تبرهن أنت وقيافا على
ذلك.

- ليس علينا إثبات أن الجنة محتمة هي جنة مسروقة: الدليل
قاطع.

- لقد صار أقل وضوحًا. أخشى أن يصبح الدليل مع كل يوم
يمرّ هو جبريل الملاك.

كنّا داخل المطبخ الظليل، حيث تدلّت النوايل من العارضة،

ومعها ثلاث دجاجات تتظر نف ريشها. تحلقت النسوة حول خادم نحيف وطويل أصيب أثناء مقاومته الرجال المثلثين.

- لم يكن يشوع رجلًا عاديًا، تابع جوزيف. لم تكن حياته مألوفة، ولن يكون موته عاديًا أيضًا.

- لماذا صوّت على موته إذا كنت تراه هكذا؟

جلس جوزيف ودّعك جيته. لقد سأل نفسه السؤال الذي وجهته إليه ألف مرّة. صبّ لنا بعض النبيذ.

- يرى قيافا، كبير كهنتنا، أنّ الأمور بسيطة دومًا. يميّز الخير من الشرّ بوضوح. يكون قاطعًا حيث تتردّد بعض العقول البسيطة. هذا ما يجعله يستحقّ الريادة. أنا أرى الأمور معقّدة دومًا. كان يشوع يأسرنى ويهينني بحيرة. تدهشني معجزاته ويغضها هو. لقد كره قيافا يشوع وكان يؤاخذه على تجديفه، والأسوأ من ذلك أنّه يجدف والناس يصفقون له. لم يكن ما قاله يشوع يتعارض مع نصوصنا، لكنّ قيافا كان يرى في يشوع خطرًا على المعبود. فلم يتوانَ عن إدانته بكلّ ما أوتي من قوّة.

- إذن فقد أذعنت لقيافا عند المحاكمة؟

- إطلاقًا، لقد أذعنت ليسوع.

- عفوا؟

- لحظة التصويت، كنت عازمًا على إنقاذه، لكنّ يسوع نظر

نحوي، كأنه يسمع ما يدور بخلددي. قالت لي عيناه هو ضوح:
«جوزيف، لا تفعل ذلك. صوّت على موتي مع الآخرين».
لم أشأ الانصياع له، لكنّ كلّ ما صرخت به نظراته بقي يتردّد
بقوّة في ذهني. لم يتركني البتّة، كنت فريسته. امتسأمت
أخيراً وصوّت على موته.

- لم تكن هناك حاجة إلى الإجماع؟

- إطلاقاً، كانت الأغلبية تكفي.

- إذن؟

- هذا ما أراده يشوع.

هكذا فهم جوزيف، تماماً مثل زوجتي كلوديا بروكولا، أنّ
يشوع أراد الموت بشدّة. إنّ الإعجاب يجعلنا نخطئ حساباتنا. كان
جوزيف وكلوديا معجبين بيشوع، ولم يستسيغا فكرة موته المجاني،
فقد ظنّا أنّ يشوع عجل بنهايته. لن يظلّ بطلهما لو أنّه لم يتمنّ
موته ويتحكّم في مصيره. يا لها من فكرة معوّجة وسخيفة! لماذا لا
يواجهان الحقيقة! كان على جوزيف وكلوديا أن ينفخا في صورة
المساحر باستمرار حتّى يحفظا اعتدادهما بنفسيهما.

تركت جوزيف. التفتُّ إليه عند تجاوزي للبوابة.

- لا أريد أن أحلّ مكانك، جوزيف. كان يشوع فريداً، ملهماً،
لكنّه كان رجلاً شجاعاً لم يسيّ إلى أحد، ولم يستهدف روما
قطّ. فعلت ما في وسعي لأنقذه من الإعدام. لم أَرْضِخْ إلّا

تحت ضغط الحشود بعد أن غسلت يدي من دمه أمام الملا.
ضميري مرتاح. لكن أنت، في حرم السنهدريم، والحال أنك
كنت تستطيع أن تصوت ضدّ الإعدام، دون ضغط مسلط
عليك من الأغلبية، كيف استطعت أن تدين بريئاً؟ لقد
أعدمت شخصاً محقاً. لم يؤثر خطابي في جوزيف وأجابني
ببساطة:

أدنت رجلاً محقاً لو كان يشوع رجلاً حقاً، لكنّ يشوع لم يكن
بشرّاً.

- من كان إذن؟

- ابن الربّ.

كففت عن المحادثة وقفلت عائداً إلى أورشليم. هل ترى المأزق
الذي اتخبط فيه أخي العزيز؟ في أرض تعجّ أنبياء الربّ،
وسط الشام والبطيخ، حيث يدان أبناء الربّ أولئك ويعدمون على
الصليب تحت شمس حارقة! الطريقة المثلى لنيل رضا الربّ دون
شك!

على أية حال، ها أنا دون خيط جديد، محتجزاً في أورشليم أهت
خلف جثة تتحلّل، يمدربي تسليمها رسمياً إلى دود الأرض قبل أن
يعفن اختفاؤها الأذهان في فلسطين. تمنّي لي حظاً طيباً وكن بخير.

من ييلاطس إلى العزيز تينوس

لقد استفدتم زوجتي كلوديا كلّ تفائس روما إلى أعماق فلسطين. ثمكنت هنا من تنظيم مآدب عشاء تزيد الحياة عذوبة إذ ينساب الزمن في سرعة جرعات الخمر في الخناجر وإذ تلعب المحادثات بالرؤوس من فرط طلاوتها وتزعجها، مثل تلك الليالي المثالفة والمسكرة التي تُقضى بين ضفاف نهر النير والنجوم التي نجعلنا نشعر بأننا مركز الكون ونمكثنا من عشق روما ونجعل كل حياة خارج أسوارها متنى.

استغلّت كلوديا البارحة بقاءنا بالقصر ونظمت إحدى الحفلات التي لا يعرف سرّها سواها، يخال كلّ مدعوّ نفسه ضيف الشرف، كلّ طبق يبدو صنفًا جديدًا، كلّ عادثة تبدو شيقة. كلّ هذه الأوهام التي تلقىها سيّدة البيت مثل أوراق اللعب. هي تعلم كيف تعلي من شأن أيّ كان ونجعله يفصح عن مكنونه وهو مشدوه، ونجعل الآخرين يعجبون ويدهشون. تختار ضيوفها مثلما تختار أطباقها: فريدة، متنوعة، مليئة بالبهارات. تثير الأفواه والعقول بلمسات سريعة، لأنها لا تتباطأ مطلقًا، تمرّ الأطباق مثل المحادثات بينما تتحكّم هي بخيوط اللعبة. على سبيل المقارنة، كم بدت لي حفلاتنا زمن طفولتنا سيّئة يا أخي العزيز.. هل تذكر؟ طبق واحد، عادثة واحدة! لم يوجد أبسط من ذلك! ينتهي كلّ شيء عندما يخلو الطبق أو يرهقنا الحديث.

كانت الحياة أمرًا مملًا إذ علينا أن نأكل لنكتسب طاقة وأن

تتحدث لنحلّ مشاكلنا. بفضل كلوديا، جرّبت الضحالة وأنا عمتنّ لها بخروجي من برائن المنفعة لأتذوق لذة التحلّق.

احتوى القصر البارحة كلّ ما ملكت أورشليم من زوّار مضحكين: مارسلوس، شاعر أصلع، حدّثك عنه دون شك، اشتهر رسمياً بقصائده الغنائية حول نهر التير، ويعرف بصفة شبه رسمية بأبياته الإباحية؛ ومؤرّخ إغريقي، وتاجر من كريت، ومصريّ مالطي، ومجهّز سفن من مرسيليا، وفايان، قريب كلوديا، الثري الخليع، من الذين يستحقّون لقب «زير نساء». كانت وسامته مزعجة. تزعج وسامته النساء ويتزعج منه الرجال... لوسامته أيضاً. رآته النسوة عشيقاً مثاليّاً واعتبره الرجال غريباً في الحال. ييّد فايان جواً من الاجتياح والصراع والتواطؤ المسموم. على الرغم من ذلك فقد ألقيت مختلفاً ليلة أمس. لأوّل مرّة، لم ييّد تأثيره المألوف؛ لا لآله لم يبدُ رائعاً، لكنّه بدأ لي منشغلاً. ستفهم ذلك لاحقاً.

تحدّثنا عن أعياد الفصح. زعم الشاعر مارسلوس أنّ جميع الأديان، في روما، أثناء قرطاج أو أورشليم، ابتكرها القضاة.

- قرايين! قرايين طوال الوقت! من يستفيد من الجريمة؟ القضاة! من يسمح لهم بالعمل طيلة الأعياد المقدّسة؟ القضاة! إنّ كلّ حفل ديني على كلّ ضفاف بحرنا هو دوماً من تأمر القضاة الذين ينقبون الأحشاء ويريقون الدماء. إذا كان القضاة على درجة من الغباء لم تؤهّلهم لابتكار الآلهة فإنّهم خالقو الطقوس دون شك.

- ماذا ينحر اليهود في عيد الفصح؟ تساءل فايان.

- خرفانًا، أجبته.

- إطلاقًا، لم تعد الخرفان تفي بالحاجة. لقد احتاجوا هذا العام إلى التضحية برجل.

كان المصرفي المألطني من تفوه بالأمر. تطلّع إليه الجميع مشدوهين. كان يملك وجهًا مألطيًا سمجًا، بشرة داكنة، ملامح حادة، وعينيّ ثعبان. شرح بتجرّد، وهو يأكل، كيف إنّ اليهود احتاجوا إلى التضحية بأحدهم، كامن منحرف، وأنّ الأمر كان جيّدًا بغض النظر عن ذلك الشاب، لأنّ موت كبش فداء يهدّي شعبًا كاملاً، ولمدّة طويلة، خذها من رحالة مثلي!

شحب وجه كلوديا، لكنّها تصرّفت كمضيعة مثاليّة وانضت إلى قريبها فايان.

- فايان، أيّ رياح طيّبة ألقت بك في أورشليم؟

ألقي فايان إليها قبله بعينين ساخرتين كناية عن إجابة. لو هله، رجع إلى عادته القديمة، تنفّح منه رائحة المخادع، كمّن قضى ظهيرته في المضاجعة.. كان ذلك جليًا في شفبه المرسومتين بعناية والمتفختين طبيعيًا، وفي لامبالاته، وبالحصوص في بشرته المتألّفة اللينة التي تبعث على المداعبة والقبل.

تردّد قبل الإجابة. أصرت كلوديا لأنّها شعرت برغبته في الظهور.

- شؤون القلب، ربّها؟
- تعلمين جيّدًا أنّني لا أملك قلبًا عزيزتي كلوديا. أو لعلّه ينفضّ بخفوت.
- انفجر الجميع ضاحكين.
- مهما يكن من أمر، لن تصدّقيني!
- لقد جُبلنا على تصديق كلّ شيء، ولاسيّما ما لا يصدّق، قالت كلوديا.
- سيدو لك الأمر تافهًا.
- كان يتظاهر بالتردد. لم يجبه أحد، لكي يتورّط في الأمر.
- فليكن، قال فايان. لقد أثبت لأنّ...
- لم يجد الوقت ليطرد. تدرّج ثلاثة من خدمي إلى القاعة كأنهم دُفعوا دفْعًا. خلفهم غامّا، ظهر رجل فارغ، عريض المنكبين، متوّعدًا. كان شعره مجعدًا يغطّي جسده وبرّ كثيف وملابس رثة وقد أشهر هراوة مهدّداً.
- بيلاطس! مرّ خلعتك باحترام الفلسفة!
- قفزت فرحًا. من خلال الرجل المتوحش، تعرّفت إلى كراتيريوس، كراتيريوس عزيزنا، الذي كان معلّمنا بروما، أخي، عندما كنّا في العاشرة.
- كراتيريوس! أنت في اورشليم!

ارغمي أحدنا على الآخر، أو بالأحرى أحدنا في حضن الآخر
من شدة حرارة عناق كراتيريوس. ذهل خدمي. كان حاكمهم
الأمرد الحليق دوماً المتتوف الشعر، المهووس بالنظافة، قد تعلق
بحضن قرد عظيم متوحش ترزّل قهقهته الأعمدة.

- أذّب طافمك يا بيلاطس. أخير هؤلاء الخثالة أننا نعرف
الرجل من رجولته لا من ديونه لدى الخياط هيا انشعوا
أيها العصر اصير.

فرّ الخدم دون انتظار إشارتي.

قدّمت كراتيريوس إلى ضيوفنا في سعادة. تهلّلت الأسارير
عندما شرحت أنه كان فيلسوفاً كلياً من طلاب ديوجين.
ذكّرهم بأنّ والدي، الذي شدّه ما يتقاضاه كراتيريوس من أجرة
لم تتعدّ مأكله، قد أوكل إليه مهمة تعليننا لبضعة أشهر قبل أن
يطرده طبعاً مع وابل من الشائم. نخر كراتيريوس من متعة هذه
الدكري.

- لشدّ ما استخبرت بطردي من قبل الأولياء الذين يشغلونني.
ذلك دليل على نجاحي في جعل أطفالهم أحراراً.

- هل أنت جائع؟

- هل تظنني أنّي لولا الجوع؟

استمعت كلوديا بها في هذا الفيلسوف الغاضب من مظهر
فقط: لمحت بعض الغيبة أسفل خصلاته.

- اجلبوا الطعام، أمرت كلوديا. لا شيء مطهيًا من فضلكم،
خضراوات نيئة ولحوم نيئة.

فيلوكاريوس، المؤرخ الإغريقي، لم يستسغ، كشأن العديد
من مواطنيه، هذا الانحراف الوقح للسلطانية. واستوقف الخدم
بإشارة واحدة ثم أعطى كراتيريوس وعاء قهامة.

- مادام أتباع الفلسفة الكلية يتخفون الكلاب قدوة فإن
بعض العظام تكفي.

ثم أفرغ الوعاء عند قدميه بوقاحة.

تفرس كراتيريوس المؤرخ من رأسه حتى أخمص قدميه. انتظرت
جولة أخرى دامية. عوضًا عن ذلك، اقترب كراتيريوس من المؤرخ
في هدوء وغمغم:

- إنه على حق.

أقوى، تشتم الفضلات، حرك مؤخرته امتنانًا ثم استوى واقفًا
أمام الإغريقي، حرك أسنانه بين فخذه ثم أخرج منها قضيبه.

- كيف نسيت هذا؟

ثم راح يتبول فوق رأس المؤرخ بهدوء شديد. توقف الزمن.
استمع الجميع في ذهول إلى صوت دفق لا ينتهي يلمطخ لباس
الضيف المشدود وبطنه وفخذه. يتبول كراتيريوس بقوة دون
توقف، وانفجرت ملامحه وهو يفرغ مثانته. عندما فرغ، هدهد
قضيبه ليتخلص من قطرات البول الأخيرة، ثم خبأه واستدار.

- تعاملني ككلب: اتخذ إذن سلوك كلب.

تمدد قرب المنضدة المجاورة وبكلتا يديه أمسك الطعام الذي قدمه له الخدم مرتجفين. كادت كلوديا أن تنفجر من الضحك، لكنها تمالكت نفسها. أشارت إليّ أنها ستحمل فيلو كاريوس إلى جناحها. كان هذا الثاني غاصباً جداً وقد فقد القدرة على الكلام.

فكرت بك، أخي العزيز، وبدهشتنا أمام سلوك كراتيريوس الذي بدا لنا غريباً قبل أن ندرك منهاجه العنيف. كان كراتيريوس يأكل ويتجشأ ويسرد رحلته الأخيرة.

- طردني ذلك الأبله سوليبيوس كأتني أرمذ من الإسكندرية. لم ينجح لقاؤنا منذ البداية. عندما لمحته ماراً من الجادة الرئيسية، متبرججاً مثل عاهرة رخيصة، متمدداً داخل عربة مذهبة يحملها ثمانية من العبيد، تعجبت قائلاً: «لا يلائم الففص هذه الدابة!» دعاني إلى قصره. ظننت أنه سيلقي بي في السجن، لكنه كان قد سمع عني، علم بنوادر وقاحتي تجاه طغاة آخرين، وعاملني بودة متحلاً دور النبيل المنحزر الذي يدرك كل شيء ويغفر كل شيء. طاف بي أرجاء قصره متكلِّفاً ومتصقفاً، وهو يشير إلى الأحواض وأعمدة الممر والأشياء المذهبة. عندما لزمت الصمت، كان يعبر عن حماسة شخصين في آن واحد. شخصين؟! بل قل عشرة! فجأة، أراني حديث النعمة هذا مرتبعت جليز زرقاء. في تلك اللحظة صلت حشيرة من حشيرة فصاح بي السمع: «

لا تبصق على الأرض. الأرضية نظيفة!»، فبصقت على وجهه عندئذ مضيقاً «اعذرنى، إنه المكان القذر الوحيد الذي وجدته». فنفاى الوقع من الإسكندرية.
ضحك كل واحد منا ملء صدقته.

- لقد خرجت سالماً يا كراتيريوس، قلت له. أي شخص مكانك كان سيعدم.

- لا يخاطر أي طاعية بالتورط في قتلي. لا أحد يقتل ضميره.
لكن دعنا من أمري. أظن أنني قطعت محادثة ما. أين توقفتم؟

عادت كلوديا وأخبرتنا بأن المؤرخ خير الانسحاب والتفتت نحو فايان الوسيم:

- كان قريبي فايان الذي يحيا سعيداً في روما ويمش فوقه في هدوء سيشرح لنا سبب رحلته إلى أراضينا. هيا فايان، لا نشوقنا أكثر.

نظر فايان حوله ليتحقق من استشاره بانتباه الجميع:

- حسن، في الحقيقة، ما أتى بي من مصر وجعلني أمر اليوم يهودية وسيحملني قريباً إلى بابل هو... النبوءة!

- النبوءة؟

لخيم صمت مريب من حولنا.

- في الواقع، واصل فاييان، تملكني دومًا فضول المتجملين والعرافين والسحرة. باختصار، يمتني المستقبل وعلومه.
- فكرة غيَّة! صرخ كراتيريوس. عوض القلق بما سيحصل غدًا، يجدر بالرجال الشاؤل عما يفعلونه اليوم.
- لا شك أنك على حق، كراتيريوس، لكنّ الرجال جبلوا على النظر أمامهم عندما يمشون، ولا يخطون خطوة وهم ينظرون إلى أقدامهم. باختصار، لطالما استشرت منجمين مختلفين، واليوم توافقت توقعاتهم. إنّ العالم يسير نحو عهد جديد. مستغفر. العالم يهوي.
- نظر إلى الضيوف وهم مندهشون من حديثه.
- الآن، سيحلّ عصر جديد. أجمع على ذلك كلّ الفلكيّين من الإسكندرية وأرض الكلدانيين وحتى من روما.
- إلام ترمي؟
- سيظهر ملك جديد. حاكم جديد. رجل شابّ سيصبح سيّد العالم. سيتمّد عرشه على كامل الأرض.
- أين سيظهر؟
- في هذه الربوع، أجمعت التوقعات على هذا أيضًا. سيخرج هذا الرجل في آسيا. يذكر بعض المنجمين فلسطين، ويقول آخرون كيليكيا وأشوريا. على أية حال، سيظهر شرقيّ بحرنا. تشاور الضيوف فيما بينهم، منبهرين.

- هل من علامات أخرى؟ تساءلت.

- أجل. إنَّ الرجل من مواليد برج الحوت.

ارتجفت ملامح كلوديا، كأنَّ سحلية قلقة تتحرك تحت جلدها. كانت عيناها متسعيتين وداكتين. كانت الأفكار تعصف بها. أعلم أنَّ زوجتي تميل إلى كلِّ ما هو غير منطقيٍّ، وخشيت أنَّ يكون فايان استمالها بشلَّة وخفت من عواقب خطابه. حاولت إنهاء الحديث.

- ما من إمبراطورية سوى روما. لا ملك سوى تيريوس حاكم كلِّ العالم الذي نعرفه.

نذت ضحكة ازدهاء عن فايان.

- أولاً، ليس تيريوس من مواليد برج الحوت. ثم، جلنَّا نعلم أنَّه يحكم العالم الذي آك إليه، وتعلم أنَّ اللهو والمجون لا يصنعان السياسة. أخيراً، تيريوس في أرذل العمر.

- عفواً؟

- أجل. جمعت معلومات من فلكيين دقيقين وخلصت إلى أنَّ هذا الرجل المقدس ولد من التواء زحل والمشتري في كوكبة برج الحوت. هكذا تمكَّنت من حساب سنة مولد هذا الملك.
- يعني.

- لقد ولد سنة 750.

- مثلي تمامًا، صرخت على أمل إضحاك الجميع.

- مثلك يا بيلاطس. وهو اليوم في الثالثة والثلاثين مثلك.
- حدثت ضجة كبرى جعلتنا نقفز من مكاننا؛ سقط الكأس من يدي كلوديا. غمغمت بكلام غير مفهوم.
- قد ذعرت زوجتي، قلت باحًا لها عن أعذار. لقد ظنت لوهلة أنني المقصود.
- لا يا بيلاطس، لقد فكرت بأمر آخر أشد خطرًا.
- قبل أن تنهي جملتها، أمرت الخدم بتنظيف بقع النبيذ على السجاد.
- التفت فايان نحو جميع الضيوف متفرسًا ملاحظهم.
- لو أن هذا الرجل تجاوز الثلاثين لشرع حتمًا في عمله. هل سمعتم بأحد مثله؟
- أجاب كراتيروس أولاً.
- أعرف عددًا لا بأس به من الأوغاد الذين يحملون بسيادة العالم، بعضهم يملك مدينة أو مقاطعة، لكنني لا أرى أحدًا منهم قادرًا على تحقيق حلمه، حلم أراه غيبًا دون شك.
- يدت الريبة على الشاعر الأصلع والتاجر الكريتي ومجهز السفن من مرسيليا والمصري المألطي. كلهم التقوا أشخاصًا أشاوس وطموحين، لكن لا أحد منهم كان يبدو قادرًا على تحقيق هذه النبوءة.
- وأنت يا بيلاطس؟ سأني فايان. هل اعترضك أبطال قادرون على غزو العالم؟

تطلعت إلى كلوديا كأنها كنت أملك جوابًا. رفعت كتفي.

- ليست يهودية مكانًا مناسبًا لنجد رجلًا مثله. هنا، يسمى المغالون إلى التخلص منا، لكنهم يهود مترقون في تديتهم. يظنون أنفسهم شعبًا مختارًا، ولا يعيرون بغزو العالم. هم ييغضون الآخر ولا يهتجون بغير أنفسهم. إن اليهود شعب غريب، متعلق ومكتفٍ بذاته. متجدد هنا زعماء محليين، لكن ما من إمبراطور بحجم العالم. ثم إنه، وأخشى أن أخيب أمّلك، لو قام إسكندر آخر لقاومته وأفنيته، فأنا أدافع عن روما.

- روما ليست خالدة.

- بيم تهذي، فايان؟ لديك سلوك طفل مدلل.

- طوال حياتي، أتيت أمورًا دون طائل، لموت وضاجعت وأنفقت وخرجت منها بعمل كبير. أظن أن حياتي ستكون أكثر نفعًا لو لقيت هذا الرجل.

التفت نحو قريبته الشاحبة، كأنّ الدماء غابرت شفيتها.

- يبدو أن حكايتي شدّتك يا كلوديا.

- أكثر مما تتصوّر، فايان. أكثر مما تتصوّر.

عاد بنا التاجر الكرّيني إلى النقاش حول الفضيحة الأخيرة لمنجمة من دلف، سيّدة شابة أوهمت الناس بأنّها ملهمة قبل أن يفصح أمرها ويكتشف الجميع أن الجنرال تريماركوس هو من كان

يهمس لها الأجوبة لكي يتفقد سياساته، وعاد النقاش إلى وتيرته. كنت أراقب كلوديا بطرف عين، وكأنت صامتة، ساهمة، وشاحبة ولم تلعب دور المضيفة للمرة الأولى، وتركت أمواج الحديث تتكسر على ضفاف سريرها.

عندما رحل الضيوف، اقتربت منها، قَلِّقا.

- ماذا يحدث كلوديا؟ لست على ما يرام؟

- هل سمعت ما نفوه به فاييان؟ لقد توافقت رؤى المنجمين.

يتحدثون عن شخص نعرفه. لقد فاجأني أنك لم تلاحظ الأمر. عمن؟

شعرت بأنني أزعجت كلوديا. كانت تفضم أظافرها لكيلا تشتمني ونظرت إلي باستعلاء وبرود.

- بيلاطس، النبوة تتحدث عن يسوع.

- يسوع؟ الساحر؟ لكنه مات.

- له نفس السن المذكورة في النبوة.

- إنه ميت !

- إنه يجر الجميع خلفه، دون سلاح ولا طعام، لقد كَوَّن جيشا من المخلصين.

- إنه ميت !

- لا يخاطب اليهود فحسب، بل السامريين، والمصريين،

والشاميين، والأشوريين، والإغريق والرومان، يخاطب
الجميع.

- إنه ميت !

- لقد ذكر مملكة كوثية دعي إليها الجميع عندما وصف ملكه.

- إنه ميت، كلوديا، هل تسمعين، لقد مات !

صرخت، تردّد صوتي في أرجاء القصر الذي امتصّ غضبي من
قاعة إلى أخرى ومن عمود رخاميّ إلى آخر. رفعت كلوديا عينيها
نحوي، أخيراً، سمعني. أخذت شفتها ترحفان.

- لقد قتلناه يا ييلاطس. هل تعي ذلك؟ لعلّه كان المقصود
ونحن من قتله؟

- ليس هو ما دنا قتلناه.

أطرفت كلوديا. كانت الأفكار سهامًا ترتطم برأسها. ثم
انهارت بين ذراعيّ وانتحبت طويلاً.

بينما أكتب إليك، ترتاح كلوديا غير بعيد عني. تستطيع المرور
من حالة إلى تقيضها: تثناء بشدة ثم يغلبها النعاس، لا أعلم بهذا
المدّ والجزر، مزاجي معتدل ويطيء، دون تغلب من حالة إلى أخرى.
استيائي أقلّ وراحتي أقصر. لا أقوى على الغضب الشديد ولا النوم
العميق، أمشي على خشبة ضيقة، مريحة نسبياً، بين بين.

أحياناً، أستهي القيام بخطوة خاطئة.

في الأثناء، أقبلتك بكلّ ودّ، أخي العزيز. سأنتقل إليك أخبار
كراتيريس الذي ينوي الإقامة بأورشليم، قطالما أنّي لم أحلّ لغز الجثة
المختفية، سأجد مناسبات أخرى لرؤيته وتدوين شذوذه ومحافاته.
كن بخير.

من بيلاطس إلى العزيز تينوس

وددت لو لم أعش هذا اليوم. لأوّل مرّة في مراسلتنا، تمّنت
ترك الصفحة بيضاء، بسبب شقائي في إعادة تجربة الأحداث وأنا
أسردها عليك. غير أنّي أشعر بأنني لو مررت عليها مرور الكرام،
فلن أكتب إليك مرّة أخرى، بعد غدٍ ستجفّ دوائٍ وينقطع صوتي
وستفقد أحاك. رغم استرازي سأتحامل على نفسي لأروي لك
أحداث اليوم، حتى لا أقطع حبل المراسلة، لأنّ هذا الحبل المشلود
من أورشليم إلى روما هو حبل صداقتنا.

عند الفجر، دعا المقاتل بوروس إلى عقد اجتماع. تمّنت أن
يعلمني باكتشاف جثة الساحر. كنت قد أمرت بتفتيش كلّ بيوت
أورشليم تلك الليلة، ألم أخبرك بذلك؟

كان على رجالي كتمان ما بحثوا عنه، لأنّ ذلك سيفقد إشاعة
اللغز. كان عليهم فتح كلّ صندوق، وكلّ خزانة، وكلّ فتحة أرضية
يمكنها أن تخفي جثة.

لم يجد بوروس وقتاً للاستحمام، فقد مثل أمامي بسرعة،
شعره مليء بالغبار وجفناه حراوان. لم يكن يحمل الجثة لكنّه حث

على خيط. عثر صدفه على حرسين من حراس الضريح في حانة
يسكران في صفاء وقد وضعاً ثلاثين ديناراً أمامهما. كان مبلغاً كبيراً،
ما يعادل وأتبعهما لعدة أشهر، وقد أثار ذلك اهتمام بوروس. لقد تم
دفع أجرتيهما. ليأتيا أمراً؟ أو لكيلا يأتياه؟ لكي يقولوا شيئاً؟ أو
ليصمتا؟ كان علينا التحقيق معها.

هبطت رفقة بوروس إلى المحكمة حيث أوقدنا المشاعل، لأن
ضوء النهار كان خافتاً، ثم أدخلنا اليهوديين، أو بالأحرى تم جرهما
نحوي لأنهما لم يدركا وجودهما في حضرة الولي من شدة الشمل.

- من أين حصلتما على هذه الأموال؟

- من أنت؟

- صديق.

- هل لديك شراب؟

- من أعطاكم هذا المال؟

...

- لماذا؟

...

- هل ستجيبان، بحق جوييتير!

- أليس لديك شراب؟

من شدة سكرهما، لم نحصل منهما على شيء سوى رائحة عرق

حامضة. قدّمت لهما إناء خر فارتميا عليه بلهفةٍ بعبر قضي أسبوعين في الصحراء. كنت أفقر ثقل أكياس المال لما التمتعت في ذهني فكرة. ثلاثون دينارًا! ذكرني ذلك بأمر قًا. نعم! كان ذلك ثمن الخيانة والوشاية التي تعيش أورشليم على وقعها. منذ أيام، عثر رجالي على المبلغ نفسه، كاملاً، بحوزة شخص نفّذت فيه عقوبة الشنق، يهوذا، أمين مال يسوع، الذي وُشي بمعلّمه إلى قيافا مقابل هذا المبلغ.

دنوت من الحراس الثملين.

- لقد دفع لكيا قيافا؟ هل تريدان مزيدًا من الخمر؟ إنّه قيافا، أليس كذلك؟

أوماً إيجابًا. أمسكت الكيسين.

- إمسا. يمنح قيافا كليكما ثلاثين دينارًا إضافةً لكي تسردوا كلّ شيء على مسمعي.

ترنّج الرجلان سرورين. لم يدركا أنّني أمنجهما مالهما.

- هياء، أخبراني.

- المشكلة هي أنّنا لا نعلم شيئًا.

- هل تسخران مني؟

- إطلاقًا، لم نشهد شيئًا سيدي. كنّا نائمين. أيقظتنا النسوة صباحًا لكي نفتح التابوت. عندما نحققن من فراغه، صرخن وقلن إنّها معجزة، وإنّ ابن الجليل حله الملاك جبريل. كان

إيمانهم بذلك قويًا. وصدعنا عند استيقاظنا. وهكذا، عندما أتى قيافا، قبل الرومان بكثير، يا سيدي، خيرنا أن نعيد ما قالته النسوة، وأقسمنا أننا رأينا الملاك جبريل صحبة يسوع بأم أعيننا. كان ذلك أيسر من قول إننا لم نر شيئًا إذ كنا نشرب بدل المراقبة. هنا، شعرنا بأننا أثينا خطأ كبيرًا، لأن قيافا تملكه غضب شديد كاد يقطع سرايين عنقه. صرخ قائلًا إننا كنا نهذي، وإنه كان علينا الصمت، وإننا سرجم لو ذكرنا الملاك جبريل أمام أي كان. كنا نرتعد خوفًا، فنحن نعلم أن الكاهن الأعظم يفي بوعده دومًا عندما يشر بالمصائب. ثم هداً وابتسم لنا ومنحنا المال بعد أن لقننا ما يجب علينا قوله، أو بالأحرى كتمانته.

- الحق أن قيافا دفع لكما من أجل كشف الحقيقة.

- هذا هو.

- والحقيقة هي أنكما لم تشهدا شيئًا.

- لا شيء، سيدي.

أعدت إليهما كيسَي المال. انصرف الغبيّان يرقصان وهما يظنان أن كل واحد منهما يملك ستين دينارًا.

ثم اعتكفت في مجلس الشورى لأفكر بعمق. حيرني غياب قيافا منذ يوم الأحد. لماذا لم يأت الكاهن الأعظم رأسًا للقائي؟ لو كان يبحث عن الجثة هو أيضًا، أو كان من مصلحته مثلي ألا يرتبط أي

استيهاهم ديني باختفاء الجثة، فلماذا لم يقترح عليّ البحث عن الجثة
سويًا؟ لم يعرّدي قيافا بهذا القدر من الكتمان. إنّه يدين لي بتنصيبه
على رأس مجلس السنهدريم ويصدق عليّ هداياه مقابل خدماتي. إنّه
أفضل حالًا من صهره، «أناس»، الكاهن الأسبق الذي عزلناه. هو
يدرك وضعه جيدًا ويتعاون مع روما. بوصفه سياسيًا محنكًا كان
يخشى الساحر قدر خشية ردة فعلي من قضية يشوع، يخاف أن تزيد
شعبية يشوع من انزعاجي وتدعم سلطتي. أثناء المحاكمة، سمى إلى
ضمان النظام «من الأفضل أن يموت رجل واحد من أجل الشعب
وآلا تفتى أمة بأسرها». لماذا قبع قيافا خلف جدران المعبد دون أن
يطلب عوني أو يعرض مساعدته منذ سرقة الجثة؟

كان يقود تحقيقًا موازيًا. كان أسرع منّي، ويسبقني في كل مكان،
عند الضريح وعند جوزيف الرامي.. لماذا يفعل ذلك بمفرده؟

لم ينضمّ قيافا إلى حليفه الوحيد الاعتياديّ عند أصعب
اللمحظات أ نرى ما الذي يخفيه هذا؟ اقتربت من النافذة وتطلّعت
إلى أورشليم. في الأفق، رمّتي مدرجات المسرح البيضاء بسهم من
الحنين. هذا المسرح المهجور لم ينمّ استغلاله كثيرًا، فاليهود لم يحبّوه
رغم الفُرْق والمسرحيات التي جلبتها إلى هنا، عند مشاهدته أفكر
بروما في ألم وأندم على الرحيل. لمحت ثوبًا أبيض يتحرك على خشبة
المسرح، وتعرّفت مارسلوس، ضيفنا البارحة، الذي كان يطوّح
بنزاعه أمام المقاعد الحجرية الخالية. كان يلقي إحدى قصائده،
يزن وقع كلماته وتبض أبياته. لعلّه يتمرّن على فنّ التراجيديا؟ وهنا

التمتعت الفكرة في ذهني: كان قيافا يمثل! يعرف حق المعرفة أين توجد الجنة لأنه تولى إخفاءها بنفسه.

كيف فائتني الفكرة؟ لقد رتب قيافا كل شيء. الخطوة بسيطة. كان عليه وضع حراس على ضريح يشوع، لكنه يخدوهم في الأثناء. ينام هؤلاء الحراس. يأتي عسس آخرون، يدحرجون الصخرة، يسرقون الجنة ويغلقون القبر. من الأفضل أن نحترس مرتين: بإبعاده الجنة، وتحقق قيافا من تجنب قيام أي شعائر بعد موت يشوع. لكن الأمور لم تجري كما خطط لها لأن النساء المقربات من يشوع سيعدن فتح القبر ويكتشفن اختفاء الجنة ويشرعن في الهديان ذاكرات الملاك جبريل. والكارثة أن هؤلاء العسس سيعيدون الحياقة نفسها! سيخرس قيافا الغاضب الجميع ویرشوهم. لكن الإشاعة ستنتشر ويصعد الخبر إلى رأسا.. ومأشع في التحري.

من بيلاطس إلى العزيز تيتوس

هذه اليهودية الفارعة ذات الأظافر الحادة، يلتمع حليها كأنها تحمل أوسمة حرب، جميلة لكنها كثيرة التبرج، هيروديا هذه، جسدها متقد ونظراتها سهام وتقضي على كل من يعوق طريقها. لقد اعتقلت يوحنا المغطس في حصن ماشرونت. لكن هيرودس رفض إعدامه، لأن هذا الرجل التقى ظن أن مسجينه نبي. فانخرطت هيروديا⁽¹⁾ في حرب استنزاف وأخرجت من جمعيتها سلاحا آخر،

(1) ابنة اوسطوبولس أحد أبناء هيرودس الكبير، تزوجت هيرودس بن هيرودس الكبير،

أقوى وأنجح: ابتها سالومي⁽¹⁾. كانت سالومي ترقص أمام زوج أمها رقصاً مستفزاً ومثيراً حتى وعدّها هيرودس بتحقيق كلّ أمانيتها. همست لها أمها أنّ طالبي برأس يوحنا، ووقع هيرودس في الفخّ فجزّ رأس النبي ليهدّيه إلى سالومي في طبق فضّي. منذ ذلك اليوم، تغيّر هيرودس، أحسّ بوخز الضمير، انزعج كثيراً وغلبه ندم عيف ولثيم، واعتزل الناس خوف انتقام الرب. استغلت هيروديا هذا الخوف طبعاً لتلاعب بالحاكم العجوز وتسيطر عليه. لا أعلم إلى أي مدى سيصل طموح هذه السيّدة، لكنني أخشى عاقبة وخيمة. فهيروديا تعشق السلطة في حدّ ذاتها وتتشي بها، وهذا ما يجعلها اليوم قويّة، لكنها ستتخفق بها يوماً. اقترح عليّ قيافا زيارة سالومي.

كان عليّ اخترافي حشد كبير للوصول إلى قصر هيرودس الصغير. هناك، تجتمع عدبد المتفرّجين، وتساعدت حماقاتهم كالطنّين، ونحشّم حرمي الشخصيّ عناء شقّ طريق بينهم. رفع رجالي أصواتهم وشرعوا يدفعون اليهود. خشيت من قيام أعمال شعب. أمرتهم بانتظارني وشققت طريقي دون حراسة، بمعية قيافا، أغالب المرافق وأرفس الأقدام وأشدّ المعاطف. تجاوزنا البوّابة المزدانة بنفوس باذخة، في ذوق رومانيّ شرقيّ يبعث على الاشمئزاز، أعدت

لكنّها طلفته وتزوّجت أخاه. فأخذ يوحنا المعمدان يوبّخها وينقّد بعملها إلى أن حرّفت ابتها سالومي على طلب رأسه من زوجها، فقتله زوجها.

(1) ابنة هيروديا زوجة هيرودس فيلبس، هي التي رقصت في حفلة عيد ميلاد هيرودس أنثياس ممّتها غير الشقيّة، فرّقه، وأقسم أنّه يعطيها ما تطلب، وبناء على مشورة أمّها طلبت رأس يوحنا المعمدان على طبق، لأنّه كان يوبّخ هيرودس أنثياس، قائلاً له إنّّه لا يحلّ أن تكون له زوجة أخرى.

لتعجب تيريموس لو رام يوماً زيارة هيرودس. هنا، أسلمنا أنفسنا
للزحام يتقاذفنا. حملنا التيار إلى منتصف الباحة. فوق مسطبة، كانت
صبيّة يافعة تشاهد الحشود بعيتين كبيرتين زادهما المخدر اتّساعاً،
عينين شاخصتين، تتوّمان كعيني كاهنة دلف.

- هذه الأميرة سالومي؟ قلت متعجباً.

أوماً قيافاً إيجاباً. خاب ظني.

- لا تبدو كما وصفتها لي.

- هذا ما يظنه الناس أولاً.

بدت سالومي في السادسة عشرة. لم تكن امرأة بعد. كانت
صورة امرأة. بدت كلّ مفاتها: خصرها، أردافها، وصدرها،
ضامرة لكنّها كانت أيضاً مدوّرة وخصيية، تثير حرقة كالتي نشعر
بها عند تباشير الربيع... عند رؤيتها على هذا الحال، بريئة ومثيرة،
نحيقة وثقيلة في ثيابها الشفافة، نظنّ أنّها لو تحرّدت من كلّ ثيابها فلن
تكون سوى رمز للعراء.

لم أدرك ما يربط هذه الصبيّة بسمعتها كحسنة فاتنة. كانت
سالومي ثلاثم ذائقة اليهود دون شكّ، وليس ذائقة الرومان.
ظننتها هادئة لكنّي اكتشفت أنّها كانت تروي أمراً ما.

كان على الرجال والنساء الاقتراب منها، أسفل المسطبة
ليصتوا إلى كلمات تخرج كالأنفاس وتساب كنغم من بين شفثيها
الجاملتين تقريباً. لم يلبث قيافاً أنّ حيأها لا يعدو أن يكون تكلفاً. يقع

الرجال في الشرك حالما يشتّمون عطرها أو يقفون في حضرتها. ألم
به دوار زاده عقب المسك شدة، وعيناي متعلقتان بكاحليها المزليين
كقبضة عازف قيثارة، تحيط بهما جلاجل تحدث رنيًا. رفعت رأسي
لأنهل من قصتها الغربية التي تميدها إلى ما لا نهاية. كانت تتحدث
عن نفسها كأنها تشاهد حياتها في ذهول.

- دخلت سالومي الى القصر الكبير المظلم. عادت سالومي
من المقبرة حيث بكت موت الكاهن. سالومي حزينة،
والمساء بارد، والأرض مظلمة. في البداية، لم تتبين سالومي
الرجل في الشرفة. لكن الصوت استوقفها «لماذا نتحين يا
سالومي؟» كان الرجل فارغًا ونحيبًا، وقد غطت الظلال
رأسه. وسالومي لا تحبب الغرباء عادة، لكن الصوت لم
يتركها. «أنت تبكين يشوع، أعلم ذلك، وأنت مخطئة.» «هذا
ليس من شأنك، أبكي من أشياء» اقترب الرجل فاضطربت
سالومي بشدة. «ليس عليك أن تحزني من أجل يشوع. لقد
مات بالأمس واليوم بعث.» كان الرجل يقف قريبًا جدًا.
ذكرها صوته وعيناه بأمرًا. لكن عتمة القصر أصابت عيني
سالومي. «من أنت؟» عندئذ، نزع الرجل قبعته فتعرفته
سالومي وخرّت على ركبتيها. «انهضي يا سالومي. لقد
اخترتك لشكوني الأولى. لقد أتيت ذنوبًا عديدة يا سالومي،
لكنني أحبك، وقد غفرت لك. انطلقني وانشري الخبر السعيد
بين الناس. هيا!» لكن سالومي كانت تبكي بشدة أفعدتها،
ولما مسحت دموعها كان الرجل قد رحل. غير أن سالومي

سمعت الخبر الطيب: يشوع يحبها. لقد عاد. لقد بحث من جديد. سعيد سالومي الخبر السعيد على مسامع الرجال.

ما لحت كمشهد من بعيد، بدا لي الآن اعترافاً. أظن أن سالومي تمايلت وتحدثت من أجلي. سألت من عينيها دموع سوداء مدرارة، وفتحت ذراعها العاريين، وتمايلت دون حياء تحت رداؤها، وبدا صوتها كحبة خوخ تغري بقضمها في قبض الصيف. كان يمكن أن أتحمل سماع روايتها ثانية وثالثة، لكنّ حشود النظارة الجدد دفعنا جانباً.

على الطريق مجدداً، تريننا لبضع خطوات، لكنّ أفكارنا علقت بتلك المساحة وظلت مثبتة على سالومي.

- في نهاية المطاف، ليست سيئة، قلت لقطع جبل الصمت المزعج.
تفل قيافا أرضاً.

- سيء الأمر لو كانت أجمل.

مشينا خطوات أخرى دون حديث. أنساها جمال سالومي، إذ تمكّن منا، سبب عجبتنا لساعها. توقفنا قرب نافورة. هذان ظلّ شجرة الدلب وخرير المياه وأنعشا أفكارنا.

- ما الذي روتته؟ تساءلت.

- زفزة مفككة مفادها أنها رأت يشوع حياً. لم تتعرفه بادي الأمر. أخبرها شيئاً جيلاً: إنه يحبها.

- من يهتم؟

- لا أحد. سيفد الجميع على القصر لكن لا أحد سيهتم. يأتون لرقية سالومي ولساعها. يأتي الرجال ليمتعوا أنظارهم وتفد النساء لتغتابها. لا شيء غير ذلك.

- هل تظن أن أحدهم يتلاعب بها؟ سألت قيافا.

- إطلاقاً. وهذا ما يطمئني. ربّما لا توجد خطط وراء كلّ هذه الفلواهر. ربّما لا يوجد رابط مباشر بين اللجنة المسروقة وهذيان سالومي. هذه الفتاة مجنونة بكلّ بساطة. إنها مجنونة آل هيرودس. كلّ يملك مثلها في أيّ بيت وأي قرية. لن تنتشر شائعة البعث.

شعرنا بالاطمئنان. إن ممارسة السلطة تجعلنا في حيرة، لأنّها تتطلب استباق الكوارث، وبعد مضيّ سنوات تنحت فينا قِيلاً إلى ترقب الأسوأ دوماً. اعتدنا صباحاً أن الوضع خرج عن سيطرتنا، وبعد لقاتنا سالومي، عاد لنا هدوؤنا. لم يمنع هذا من ضرورة العثور على اللجنة وتوحيد جهودنا في البحث.

- عندما نجد جثة يشوع، صحت قائلاً، سأعرضها عند أسوار المدينة، كما يفعل الإغريق، وسيحرسها جنودي، وسأتركها تنعفن لأسرع، الزمن الذي تستغرقه الأمور لتعود إلى نصابها.

لحظة افتراقنا، أمسك قيافا ذراعي لكي يشير إلى تجمع أخذ

يتشأ في ركن الساحة. قدمت سيّدة على ظهر حمار، سيّدة ناضجة
وجيلة جدّاً، رقيقة الشفتين، نقيّة التقاسيم، صاحبة ملامح متقنة
التفاصيل. همس قيافا باسمها: «مريم المجدلّية». تفرّستها بإعجاب.
كان لها شيء من النبل في جبينها النقيّ. كان شعرها الأسود الكثيف
ملقّى على كتفها. كانت، وهي تعلي حمارها، تجسّد سيادة ملكة.
أبلغني قيافا أنّها بنتي من الحيّ الشماليّ. كانت النسوة يرعن بين
يديها تجذّبن القوة التي تشعّ منها.

- رأيتك! رأيتك! لقد بحث حيّاً.

قالت ذلك بصوت خفيض ودافئ ومغرّ كعينها السوداءوين
وأهدايا المندعشين.

ترجّلت عن دابّتها وقبلت رفيقاتها.

- ابتهجن. لقد يُبحث حيّاً. أين والدته؟ أودّ أن أخبرها بذلك.

وسعنا لها الطريق. خرجت مزارعة من بيت من القرميد. كان
وجهها المسنّ يزرّح تحت وطأة سنوات من الكدّ وشظف العيش
ويحمل تورّماً من أثر الأحزان الأخيرة. لم تزل هذه الأم التي
فقدت ابنها إثر عذاب مهين قادرة على اعتراض من يأتي لزيارتها
بالأحضان.

خرّت البنيّ تحت قدميها.

- يا مريم، ابنك حيّ! لم أتعرفه فوراً. الصوت مألوف وكذا
العينان. لكنّه كان يضع قلنسوة. اقتربت من ذلك الغريب

لأنَّ كلَّ ما ذكره لي لأمس شغاف قلبي. عندها، حدّدت
هويّته. قبلني وقال لي: «اذهبي وانشري الخبر السعيد بين
الناس جميعًا. لقد مات يسوع من أجلكم جميعًا، ومن أجلكم
بموت حيّا». ابنك حيّ يا مريم! إنّه حيّ!

تسمّرت الثكلى. كانت تنصت لكلمات المجدليّة في صمت
وعوض أن يبدو عليها الارتياح، بدت مرهقة، واعتقدت أنّها
مستنهار. ثمّ سألت دمعان ببطء على جفّتيها المحمرّتين. سينهمر
الحزن أخيرًا، لكنّ شهقة واحدة لم تبدر منها. تغيّر نور عينيها وعاد
إلى الحياة، والتمع وسط هذا القناع من التجاعيد حبّها الرائع، الباهر
والكبير لابنها، وكان مشرقًا كطلوع الفجر في عرض البحر.
ضغط قباغا على مرفقي بشدّة حتّى خلّته بعضني.

- لقد قُضي علينا!

لم أقو على الرّد. تركته هناك وعدت راکضًا إلى البلاط.
أمر ما أثر فيّ لدى تلك الساحة ولم أستطع قوله له ولن أبوح
به لسواك: في عينيّ هذه العجوز اليهوديّة لمحت، لم هلك، نظرة أمّنا.
مأواصل الحكاية لاحقًا.. ما دامت الذكري قد أحكمت قبضتها
عليّ.

لك كلّ عاطفة أخيك، وكن بخير.

من بيلاطس الى العزيز تيتوس

يبدو لي منصب والي يهودية أشبه بمنفى. يقود الحنين جهودي وسعيي لغرض احترام روما أكثر مما يفعله الواجب. يشدني الحنين إلى روما حيث أطمح إلى العيش مجددًا. أحيانًا تزيد هذه الرغبة من هشاشتي حتى صار كل أمر غريب ومختلف يصدمني ويبدو لي همجيًا وأرغب في التوقع، دافئًا رأسي بين فخذتي وإبهامي بين شفتي، وبالعودة إلى مدينة الذئبة⁽¹⁾. غمرتني هذه الموجة التي جعلتني أعود في الزمن حتى إنني قطعت حكايتي، والشوق إلى مدينتي وإلى أمتي ينهشني، إحداهما حية والأخرى ميتة، لكن كلاهما غائبتان.

أيقظت طبيبي سرتوريوس ليهدي من روعي، فدلكني مطوّلًا. تضرّعت رائحة تبّ جافّ من إبطيه، والغريب أنّ هذه الرائحة الحامضة طمأننتني. جعلني أتحدّث عن قلقي وأنصت لي بملامح مهذّنة يملكها العلماء. عيانه ضيّقتان وشفاته حازمتان ورأسه يومئ تأمينًا وتشجيعًا. لسرتوريوس موهبة احتواء مشاكلي. كان يهتم كثيرًا لكلّ ما أتفوّه به وقادرًا على إضفاء معنى على أيّ تفصيل نأفه. لقد روّح عني وخفّف ثوثر جسدي. عند انصرافه، لاحظت بداية صلح أعلى رأسه وتهدّلاً في كتفيه، وختت أنّ طيبه خضع، هو أيضًا، لإرادة الزمن، وزاد ذلك في اطمئنان.

(1) تقول الأسطورة إنّ التوام رسوس ورومولوس، مؤسسي مدينة روما، أرضعتها ذئبة بعد لحلي والدتهما عنها.

تناولت ريشي مجدًا لأروي لك أحداث هذا اليوم المرهق.

غادرتُ قيافا عند دخول مريم المجدلية لأورشليم كي تزعم أنَّ يسوع بُعث حيًّا. منذ تلك اللحظة، لم أعد أتوهم. لو تغاضينا عن رواية سالومي لوحدها، فإنه كان لتأكيد مريم المجدلية أنَّ يغذي الإنشاعة. طافت الحكاية بأورشليم من لسان إلى لسان ومن امرأة إلى أخرى. في الواقع، لم تتناقل الحكاية سوى النساء وذلك ما نزع عنها مصداقيتها، لكنَّه ضمن لها في الوقت نفسه انتشارًا سريعًا. ذلك المساء، عندما انتهى إلى أورشليم رجلان يؤكدان رؤيتهما يسوع، أدركتُ أنَّ الداء استفحل وآته كان عليَّ جمع قواي كلها للقضاء على العذر الذي قام بهذه المؤامرة.

اعتكفت بـ برج قلعة أنطونيا حيث جلب لي عميوني خطاب الرجلين. صففت العناصر جنبًا إلى جنب بعناية. مثلت كلَّ الأحداث علامات؛ بين السطور، كان عليَّ إيجاد الفكرة التي تنظمها وتنصب لي هذا الفتح.

تحدث الحاجان مثل سالومي ومريم المجدلية ثمًا. عند مغادرتهما أورشليم عقب أعياد الفصح، في طريق عودتهما ليلًا، وعند اقترابهما من ايبايوس، اعترضهما رجل يضع قلنسوة ويجلس على قارعة الطريق. انضمَّ إليهما. لم يكونا على معرفة به لكنَّ أمرا ما عند هذا المسافر بدا مأكوفًا. تحفنا وعبرا عن آمالهما التي أودعها يسوع وعن خيبتها من جرّاء إعدامه. هنا رافقهما المسافر إلى خان ايبايوس وأعلمهما بأنهما في حلٍّ من الشعور بالخزن والحياة لأنَّ

يشوع لم يزل بينهما. تعرّفاه على ضوء فوانيسهما. وطلب منهما يشوع العودة إلى أورشليم ليذيعا الخبر السار. ثم اختفى دون أن يتبها. ما بدا لي مريباً أولاً، كان التشابه المائل بين هذه الروايات كلّها. أخي العزيز، أنت مثلي تعلم طبيعة البشر... نعلم جيّداً أنّ الشهود لا يرون أبداً المشهد نفسه وبالخصوص لا يقدمون التقرير نفسه. أرى النوع والتفرّد وحتى تناقض الإفادات الضامن الوحيد لمصداقيّتهم. في هذه الحالة، كان التطابق التام للروايات يتضوّع كذّباً. أحدهم درّب شهود الزور بعناية ناقة وأراد إضفاء وهم الحقيقة عبر هذا التطابق. لم يتوق لي سوى اكتشافه. عزيزي تيتوس، هنا تجلّت عبقرية أخيك. عندما قارنت الإشارات، لمحت اليد الخفية. زعمت سالومي أنّها رأت يشوع عند عودتها إلى قصر هيرودس. ولقيته مريم المجدلّة في بساتين يسميث، وهي مزارع تملكها أسرة هيرودس، وإليها يأتي هيرودس للصيد عند إقامته بأورشليم. قرب ايها يوس يوجد البيت الصيّفيّ الذي يحبّه هيرودس. هيرودس، هيرودس، هيرودس! كان يحرك خيوط المؤامرة. دون تردّد، رافقت ثلّة من الجنود إلى قصر هيرودس الصغير. لم يخف أمين قصره شوزا أنّه فوجئ وانزعج حال رؤيتي. عَضّ على شفتيه حتّى حبس عنهما الدم والتمس عذراً ليمنعني من الدخول.

- جلالتها نائمة. لقد عادت من الصيد. احتفلت وثلجت كثيراً.

- شوزا الطيب، أشكّ كثيراً أنّ هيرودس يشرب النبيذ الآن.

أيقظه، اسكب الماء على وجهه - إنه لا يطيق الماء - وأدخلني.
اختفى شوزا. تناهت إلى سمعي دمدمة وصراخ من داخل
القصر، ثم ظهر شوزا أخيراً متأقفاً وفتح الأبواب البرونزية الكبيرة
المؤدية إلى قاعة الاجتماعات.

- بيلاطس! صديقي بيلاطس! أجل... في كامل الإمبراطورية!
في آخر القاعة، كان هيرودس شاحباً جداً، مستلقياً على كومة
من الوسائد مثل صدفة مفتحة ويخاطبني بإشارات من ذراعيه.

- بيلاطس! بيلاطس! رائحتك ذكية فضاهي رائحة سيّدة!
بشرتك أنعم من بشرة أيّ مومس! لا بدّ أن تيريوس يحبّك
كثيراً!

كنت معتاداً على إطراء هيرودس، ذلك التفاق الصوّيّ المشبع
بصنغ مبالغ وإيماءات جنسية، ذلك التفاق البارز المليء ثرثرة
شرقيّة. صار هذا التزلّف بمرور الزمن يمثل صراحتة، وطريقته في
التعبير عن سروره بلقائي واستقباله لي عن طيب خاطر.

- انظر واقاهر القلوب هذا. حليق، أملس الشعر قصيره، متوف
الساقين والمراعين، جلده مدهون ومعطّر بالطيب. قالوا لي
إنّك تستحمّ يومياً يا بيلاطس البنطي! كلّ يوم، هل يمكنك
هذا حقّاً؟ يا للرقّة والكياسة! لا شك أنّ زوجتك الجميلة
كلوديا بروكولا سعيدة بزواج أملس مثل حصاة من حسن
حظّها أنّها لم تتزوّج أحداً منّا. كان سيغمي عليها من رائحتنا

الستة. ولاسيما أنا الذي يفيض الماء. أسأل هيروديات، فردقي
الهرمة!

انفجر ضاحكًا. لقد تعلّمت ألا أنتبه إلى ألفاظه الفاحشة التي
تفوح من خطابه: كان عليّ حملها على مزاجه المرح.

نظرت من حولي وانتبهت إلى بعض الجوّاري عاريات وممّذات
على سرر أخرى. علّق هيرودس على نظري المتفحّصة:

- آه لو لم تُخطِبي الأجساد الشهية من كلّ جانب لشعرت أنني
أمكن قبري من الآن. أنا في الستين، هل تعلم، لي بضعة
شعيرات وفقدت كلّ أسناني. هل نفقد شهيتنا بمجرد فقدان
قدرتنا على القضم!

- أعرفك ورِعًا.

اكفهر وجهه، وبإشارة واحدة طرد أمين قصره وكلّ الشهود
الآخرين.

أوصدت الأبواب دوننا ونامت الجوّاري.

- لا أستطيع لمسهنّ. في شبابي كنت أكسر الجوز بقضبي.
كان صلبًا كخشب الزيتون يا ييبلاطس. أمّا اليوم فلا أقوى
على إيذاء حبة تبين متعقّنة. ماذا عنك؟

اكتفيت بالضحك كردّ على سؤاله. كنت أعلم أنّ أيّ محادثة مع
هيرودس ستستهلّ بالفحش.

-ماذا عنك؟ أصرّ قائلًا.

- لم آت لأحدثك عن مآثر ما بين فعذتي يا هيرودس.

- مآثر؟ إذن كل شيء على ما يرام! هنيئًا لك، سأتك لآتي أظن
أحيانًا أن عجزتي سيّته السلطة أكثر من تقدّمي في السن.
لكن لو تسألني... وتيريوس؟ إنه أكبر منّي سنًا ولديه سلطة
أقوى! حسب علمك، يعني حسب علمك، هل مازال قادرا
على..

- لا أدري يا هيرودس.

كذبت طبعًا. نعلم جميعنا أن تيريوس كان مضطّرًا إلى إقامة
حفلات عريضة ومجون صاخبة ليستثير رغبته، لكنني لم أتودّد في
مجانبة الحقيقة لكي يغيّر هيرودس الموضوع.

- يعني بالطبع، هذا ما روي لي يا هيرودس.

- إذن؟ سألتني في شوق.

- لقد بقي تيريوس... شبّاقًا جدًّا.

سقط رأس هيرودس على صدره اشمزازًا. بدا كمن انتزع منه
آخر أمل لديه.

- أنت محقّ يا بيلاطس. لا يزال تيريوس قادرًا على الإنعاط.
لهذا يبقى تيريوس تيريوس وهيرودس لا يعدو أن يكون
مجرد هيرودس.

أطلق شخصيًا فأخافني سمعته بوصفه سكّيرًا من أن يشرع في

البكاء على سوء حفظه. غيّرت دقة الحديث فوراً بعدما قدّرت أنّ فترة التمهيد قد انتهت.

- هيرودس، لقد أثبت لأحدك عن يشوع.

- ما الذي يمكن قوله؟ إنها مسألة متهيبة. امسك، اشرب كأساً. أنصحك بنيذ شالاس، إنه أكثر عدوية من نيذ لاسوم، لكنّه أسهل هضمًا من نيذ كالزار الأبيض.

- نحن ثعلبان يا هيرودس، والثعالب لا يخدع بعضها بعضًا طويلاً. أعرفك جيّدًا. منذ رحيل والدك، قُسمت فلسطين على أربع. أنت الوحيد الناجع والجدير بين الإخوة الأربعة. تحكّم الجليل، مقاطعتك، بقبضة من حديد. وحدك تستحق لقب رئيس الربع. هل أذكرك برأيي في أخيك الأكبر؟ أعاني من عدم كفاءته في يهودية. أما إخوانك الباقون، وهذا ما لمسته قبلي، فلن يصبحوا سوى أشباه ملوك بلا حول ولا قوّة. وحدك تملك موهبة التربع على العرش، علاوة على شرعية نسبك.

قاطعني هيرودس مفهقًا:

- من أطرائك إيتاي على هذا النحو، أشعر أنّك تخفي عني أمرًا جليلاً. أنا متشائم.

- صبرًا يا هيرودس، صبرًا. أنتم اليهود خضتم قرونًا عن الغزو والاحتلال والاستعباد. تاريخكم سلسلة من الخضوع المتكرّر.

هل تعلم السبب؟ ليس لأنكم ضعفاء، بل على العكس، لا تنقصكم القوة والشجاعة. إطلاقاً، السبب هو أنكم متفرقون كثيراً. حتى إيمانكم بربكم الأوحيد تعيشونه بطرق مختلفة تجعلكم تتخاصمون. أنت نجل هيرودس الأكبر، أنت الوحيد خليفة، أعلم بما تحمل: وحدة وطنك تحت راية ملك واحد وعقيدة واحدة. لقد اخترت نفسك ملكاً. أما بالنسبة إلى العقيدة، فقد اخترت يسوع، أو بالأحرى دين يسوع. ومع هذا تقرر أن تطرد كل غريب عن أرضك، وأولهم أنا دون شك.

نظر إلى هيرودس مبتسماً.

- ييلاطس، هل أنهيت؟

- ليس بعدا

- سأجيبك بعد أن تتم موعظتك إذن. هلاً سمعت لي باحتماء كأس عوض تدوين كلامك؟

- لقد اهتممت كثيراً بالمتنورين الذين جابوا بلادك. يزعم بعضهم أن مرة ذلك إلى ورعك وتقواك، لكنني أشك أن في الأمر حسابات سياسية. تبشر توراتكم بقدوم رجل، المسيح كما تسمونه، ينحدر من صلب داود، سيؤخذ كامل شعب بني إسرائيل. وقدم يوحنا الغطاس على ضفاف نهر الأردن، أرضك. اهتممت به، طمعت في استغلاله، ثم اكتشفت أنه ليس طبعاً بيا يكفي وأنه يخضك أنت وهيروديا،

فأعذمته. ثم ظهر يشوع بعد ذلك. أعلمني جواسيمي بأنك لقيته وتحدثت إليه. على خلاف يوحنا القفّاس، سمحت له بالقاء مواعظه وتجميع الرجال. قلت: «سمحت له لأن الأمر وقع على أرضك، في الجليل. إشارة واحدة منك ويختفي يشوع مثل يوحنا. على عكس ذلك، أذنت له بالتجوال وتعبئة الأتباع خلفه. لقد لاحظت أنّ هذا الرجل كان أكثر ثورية وشعبية من أي نبي آخر. غير حديثه الناس، تبعه الناس صاغرين، وترك رجالاً راشدون مهتهم وساروا معه وعاشوا على الصدقة. لقد أدركت أنك ستوظفه من أجل انتفاضة اليهود.

- روابتك آخاذا بايلاطس. إنها تفيض خيالاً واسعاً. أتساءل كيف منتهي حكايتك.

اجتذب يشوع عددًا كبيرًا من المؤمنين على أراضيك، لكن كان عليه القدوم إلى هنا، إلى أورشليم، ليُتمّ دعوته. لسوء الحظ، لم يره كهنة السندريم، ولاسيما قيافا، رؤيتك له. لقد تصدّوا ليشوع. شعرت بالخطر فقدمت إلى أورشليم.

- آتي إلى هنا كلّ سنة.

- ليس بمناسبة عيد الفصح بالضرورة. وليس لما تضطرك أعمالك إلى البقاء في الجليل. لكنّه كان يفترض أن تبقيك حرائق طبرية هذا العام على أراضيك. غير أنك أتيت على الرغم من ذلك. أردت أن تدعم يشوع. عند أبواب المدينة،

سألته الرحيل وكشفت له مؤامرة الكهنة ضده. كان عينا
ورفض الانصياع لك. علمت حدوده وأدركت أنه لن
يكون حليفاً ملانها لك، لكنك لم ترم المتدليل. أردت إنقاذه
لكي تستنله فيها بعد. لكنّ خيانة أمين الصدوق، يوداء
مكنت الكهنة من اعتقال يشوع ونصب محاكمة له في المساء
نفسه. تلك الليلة، كنت مضطرباً، وحاولت التدخل.
أخبرت الكهنة بأن مجلسهم لا يملك سلطة التنفيذ حتى بعد
إصدار حكم الإعدام. وهكذا، لجأ إلى السنهدريم وسلموني
إياه. عندها، أرسلت إلى شوزاء أمين قصرك، الذي ذكرني
بأن يشوع أصيل الجليل وأن تواجدنا بأورشليم يجعل
القانون يفرض علينا تسليمه لك أنت، هيرودس، رئيس
الربيع بالجليل. تخلصت من يشوع مسروراً وأرسلته إليك.
استرجعت يشوع. تم إنقاذه وقد يكتب لمخطئك النجاح.
تظاهرت بالتحقيق معه ثم رددته إلى زاعماً أنه غير خطير.
لم تضع في الحسبان إصرار قيافا الذي تحين عودة يشوع
إلى وتحريره الوشيك، فضغط عليّ مجدداً وطالبني بتنفيذ
حكم السنهدريم. كلنا نعلم النهاية. قضى يشوع تحبه على
الصليب.

- أجل، صلب يشوع. انتهت قصتك الأملية نهاية سيئة،
لكنها انتهت.

- إطلاقاً. ألا تعترف بالهزيمة. لقد سرقت الجثة ليلاً وخبأتها

هنا دون شك، في بلاطك، وهو والمعبد المكانان الوحيدان اللذان لم يفتشهما رجالي، ثم قررت إطلاق أسطورة يشوع. نهض هيرودس غاضبًا وقد اختفت كل سحرته وخطريته. ماذا آتي أسطورة؟

- هلا انتهيت من ادعاء البراءة يا هيرودس. ترهق نفسك وترهقني. خضت تحقيقًا واسعًا حتى علمت أنك مصدر الإشاعة.

- أي إشاعة؟

- تلك التي همست بها في آذان سالومي ومريم المجدلية وزوج الحجاج من ايمايوس. لا شك أن الأمر كلّفك ثروة من الذهب.

- أي إشاعة؟

- أن يشوع بعث حيًّا.

- هل هذا ما يقال؟ حقًا؟

شحب وجه هيرودس ومال إلى الاخضرار، ودارت عيناه الجاحظتان في محجرتيهما، ورفع يديه إلى عنقه كأنه يختنق، وارتعشت شفتاه وهو يلهث.

- بعث يشوع؟ لقد قتلت يوحنا الذي بشر به.. ثم قتلت يشوع نجل الرب..

انهار على سريريه مطلقاً حشرجة وتجميع الزبد حول شفتيه.

- ويلي من عذاب الأخرة. أنا ملعون..

تشتجت أطرافه بعنف كأنه كلب يرى كوابيس. استحييت من هذه المسرحية فأنيبها حازماً.

- هيرودس، توقّف عن هذه الخزعبلات. أنا لست أحق ولست

جمهورك. سأعود إلى حصن أنطونيا لكي أحرّر تقريراً إلى

تيبريوس. سأنتظرك إلى الغد حتّى تنهي هذه الخرافة. وإلا،

سوف يقرّر تيبريوس بنفسه نوع عقابك على عصيانك. وداعاً.

واصل هيرودس ارتجافه على الوسائد كأنه لم يسمعني. في

البداية، أعجبتني حيلته، لكنني وجدته مثيراً للشفقة فيما بعد.

عدت إلى القصر. وبطبيعة الحال، لم أشرع في كتابة تقريري

إلى تيبريوس، لأنني كنت واثقاً أنّ هيرودس سيكون عند وعده،

وسيسلمني الجثة، وأنّ الأمور ستعود إلى نصابها.

عندها، سأنجز مهمتي دون إزعاج الإمبراطور.

وحدك تعرف البؤرة التي اشتغل فيها، أنت فقط من يشكّ

في نفاق من أحدثهم، ومناهة الحيل التي يضطرونني إلى استعمالها.

لتحافظ روما على مكانتها، لا تستعمل أسلحتها. لدينا الذكاء

والسلاح؛ القوة والحكمة. هنا، الجميع مراوغون وسلاحهم

الإشاعة؛ بصيص أمل في الغضب.

رغم رضائي عن أدله مهمتي على أكمل وجه تلك الليلة، فأنا

أشعر بأنني مدنس من أثر المراوغة التي سلكتها لأحقق مبتغاي.
غداً أكتب إليك لأؤكد استجابة هيرودس، ولأعلمك، وآمل
ذلك، بعودتي إلى قيصريّة. في الأثناء، كن بخير.

من بيلاطس إلى العزيز نينوس

شدّ ما ساءتني أحداث اليوم التي أنبأ لسردها عليك
وأزعجتني، لكنّها تنتهي دوماً على نحو لا أجزئ حتى على رجائه.
أنتشوق إلى منحك الحفاضة رغم أنّه لا قيمة لها دون الاستجابات التي
خلصت إليها.

تعلم جيّداً حالتي ليلة أمس. كنت أظنّ أنني كشفت الأعياب
هيرودس المعقّدة. هدّته برفع الأمر إلى تيريوس وانتظرت توبته
اليوم علماً، أنّ ذكاه يفرق شجاعته.

طلب المقاتل بوروس لقائني فجراً. كان وجهه محترقاً عندما
سألني بصوت خفيض:

- هل يمكن أن يكون ذلك الممجّي القابع، في باحة القصر،
أحد ضيوفك؟

حبر النافذة، أشار إلى كراتيريوس وهو عمّد نصف عار في
أسفاله البالية.

- طبعاً، كان كراتيريوس معلّمِي قبل أن أصير رجلاً. إنّه
فيلسوف ذو خطر كبير.. ألا تعلم؟
احمرّ بوروس أكثر.

- هذا، لا أشك في قوته. يكفي أن ننحن قليلاً لترى بنفسك.

- إلام ترمي؟

تمتنت المشهد في الأسفل بانتباه ولم أقف على كبت صرختي.
نزلنا السلام بسرعة وانضمنا إلى كراتيروس.

- أهلاً بيلاطس، اليوم جميل !

كراتيروس متبرّم في العادة، لكنّه استقبلنا بابتسامة عريضة.
نزع الجلود التي كان يرتديها، وتمتدّ في ضوء الشمس الصباحي. لم
يكن حلقاً. كان قضيب كراتيروس المائل متصبّاً في العراء، وكان
يهدده في قلب باحة القصر. لم يغيّر وجودنا ولا ذهولنا من إيقاع
حركة يديه على قضيبه.

- أخائني سابقى برهة في أورشليم، تابع كراتيروس.
تحدّث أمس إلى زوجتك، كلوديا بروكولا -سيّدة راقية-
وشرحت لي الديانة اليهودية التي وجدتها، لعمري إنّها
تستحقّ الاهتمام، بل وعجبية أيضاً. هل تعلم أنّها الأقرب
إلى الفلسفة بين جميع الأديان التي خبّرناها!

إنّها، مثل معلّمينا الإغريق، تتحدّث عن إله واحد أوحد.

كان كراتيروس يتحدّث بجديّة ورزانة كأنّ يده لم تكن مشغولة
بأسفل بطنه. لكنني لم أقف على الإنصات له، كنت أرى ذلك التحرّر
بين ذهنه وأعضائه التناسلية ضرباً من المستحيل.

أشرت إلى موقع الحركة وسألت كراتيروس:

قل لي، كراتيريوس، هل تأتي تمرينًا فلسفيًا؟

- فلنقل علاجيًا، علاجيًا ونفسيًا! علاجيًا لأنّ الجسم يمثل
منيا، كما أشار أبقراط، وعلمنا مساعدته ليتخلص من مائه.
ونفسيًا، لأنني اعتزّ بحرّتي في التفكير والعمل، ولكيلا
أصبح عبدًا لخصيتي، فأنا أحرص على إقراغها كلّ صباح،
خشية أن يتراكم المنّي ويصعد إلى رأسي فأجنّ وأرتكب
بعض الحماقات.

- ما الذي نراه حماقة حقًا؟

- أن أصبح عاطفيًا! أن أتعلّق بأيّ فتاة ممثلة الخصر والفسخزين،
وأهل عنها جرّتها، وأتهوّر وأشبعها أطراء، وأطلق وعودًا.
والحال أن لا شيء من هذا القبيل مبصيني لو أتيت شهوتي
بمفردي كلّ صباح. أنصحك بهذا السلوك بيلاطس. ألم
أحدّثك عنه فيما مضى؟

لم أجه ونظرت إلى العضو اللذيب. هل سببه الحديث عن
الخدمة؟ بدت لي اليد في اشتغال تامّ وقد قربت النشوة.

- يعتبرني الناس شهوانيًا، قال وقد زاد من إيقاع قبضته،
والحال أنّي أبغض الجسد، أبغض الجنس، أريد التخلص.
أمم.. من هذه القذارة.. اه!

أنهى كراتيريوس رياضته الصباحية برعشة النشوة، ومسح
مخلفاتها بالجلود التي يرتديها.

- أين كنّا؟ اه أجل، بيلاطس، هؤلاء اليهود ديانة ذات فائدة.
كما سبق وقلت لك، يدعون إلى ربّ واحد، وهذا ما بدا لي
الذكاء بعينه. من اناكساغوراس إلى سقراط، هذا الطريق
الذي سلكه فكر الحكماء. إذا وُجد الإله فهو واحد. لا
تصوّر الإله إلّا واحدًا، مطلقًا، بديعًا، مصدرًا للوحدانية،
وسببًا للوجود. أليس مدهشًا أنّهم يتقاسمون بكلّ عقوبة
النظرية ذاتها التي أتى بها كبار فلاسفة الإغريق؟ مصادفة
غريبة! التوحيد، لقد اكتشفه المفكرون تدريجيًا بإعمال
العقل؛ لكنّ اليهود أوحى إليهم منذ بداياتهم! علاوة على
ذلك، كما تقول كلوديا بروكولا -سيّدة امستنائية، يا بيلاطس
وأرجو أن تنتبه إلى ذلك- فإنّ اليهود يؤكّدون أنّ أوجههم
قادم وليس من الماضي، هل تنصّرون؟ بينما تتطلّع الديانات،
وحتى الفلسفة، إلى لحظات تأسيسهم في حنين، يتقدّم اليهود
ويتطوّرون! يضعون أملهم في السعادة بين أيدي المستقبل،
يتظنّون، يأملون، كلّ التاريخ لا يمثل لهم حلقة دائرية،
وإنّما حركة إلى الأمام، سببًا يتّجه نحو هدفه. هذا ما شرحت
لي كلوديا بروكولا أمس وقد ذكرت كتابين. هي في الواقع
سيّدة مذهلة، تسمو عاليًا على طبقتها الأرستقراطية، أنساءل
ما إذا كنت تستحقّ فعليًا زوجة مثلها.

وافقت كراتيريوس تمامًا في هذا الشأن: لم أفهم يومًا كيف
اختارتني كلوديا بروكولا من بين عشرين آخرين أوفر مالًا واطلاعا
ومجدًا.

- لزوجتك إحدى الخصال النادرة لدى النساء : الاستقلالية .
لها ذوقها الخاص وأفكارها الخاصة وأحكامها الخاصة .
تنقل كما تشاء . ولا ترى أن زواجها قد يعيق حرّيتها .
ستهجرك لو خيّت ظنّها يا بيلاطس . هي إلى جانبك لأنّها
تحبّك ، وتحقق كلّ صباح من دوام حبّها لك . لقد حدّثني
عن فيلسوف أصل هذه الربوع يدعى يشوع ، كان يدعو إلى
عقيدة لم تشأ كثيرًا عن عقيدة ديوجين العظيم . حياة بسيطة
وزهد ، ازدياء الجبابة ، إجلال المرأة واحترام الرجال
الجدّيرين بالاحترام . سأسأل عن هذا الحكيم .

- حسن ، أسأل . لكن ، رجاء يا كراتيريوس ، تحبّ تدريباتك
العلاجيّة والنفسية أمام الملا . خلافًا لما تعتقد فإن اليهود
لا يشاطرون الإغريق إجلالهم للفلسفة ولا حتّى فضول
الرومان . لا يحترمون سوى شريعتهم ، يدون حياة شديداً
ويعاقبون كلّ فاحشة بقسوة . يتهذّب الموت رجلاً قبل أن
أتمكّن من الدخّل لصالحك .

رفع كراتيريوس كفيه ، وانجبه نحو المبلّغ لكي يقتات من البقايا .
ثمّ قدم رسول من هيروديات ليخبرنا بأنّ الملك هيرودس
يحتضر . ربّ عذر أقبح من ذنب . كان هيرودس يريد ربح الوقت
بشئى الوسائل . انطلقت إلى بلاطه متبوعاً بعشرين مقاتلاً . نشر
رجائي حول القصر ، ثمّ طرقت أبواب هيرودس . أسرع شوزا ، أمين
قصره ، وخرّ أمامي على ركبتيه .

- هيرودس يحضر يا سيدي.

شدّ ما أزعجني هذا الأئين وهذه المبالغة التي تميّز الشرقيين، فتجاوزت شوزا وفتحت الأبواب وصولاً إلى قاعة الاحتفالات. كان هيرودس ممّداً على فراش كبير كأنه ميّت معروض في نابوت. اقتربت من الثعلب الذي كان يفتعل نومًا عميقًا ليتجنّب التحدّث إليّ. دنوت من وجهه المليء دهونًا حيث تساقطت مساحيق التجميل، وقد خثّرها العرق، في شكل قشور فوق بشرته المجعّدة الهرمة. راقب سرتوريوس، طبيبّي الذي أحضرته، أنفاس هيرودس المنتظمة.

- إنّه نائم.

- أيقظه.

حفنه سرتوريوس في ذراعه بغلظة. لم يتحرّك جسده. ولم ترتعش حتّى جنبات أنفه. قاطعنا صوت ارتفع من أعماق القاعة:
- لو كان نائمًا لنذّ عنه شخصير.

كانت الملكة هيروديا تقف بين شمعدانين ضخمين، يحيط بقوامها فستان فخم وقد لطلّحت وجهها المساحيق. شدّ ما قاومت أثر الزمن حتّى استبقته تمامًا. لقد زادت مساحيق الزينة والشعر المستعار من سنّ سيّدة أربعينيّة جميلة. تقدّمت نحوي وهي تتغنّج في مشيتها دون حياة.

- ليس ميتًا، لكنه أنخرط في سبات عميق.

- هل ذلك خطير؟

- أرجو ذلك. تزوّجت هذا القدر التّن على أمل أن أصير
أرملته. إنّه يعلم ذلك. أليس كذلك هيرودس؟ ألا أبغضك
وأنظر أن يتعفن جلدك؟

لم يطرف جفنا هيرودس الرخو. ولم أمالك عن الضحك من
سلوك هيروديا.

- أرى أنك لازلت لحينه.

- دوماً، أجابت هيروديا في دعة.

فحص طبيي هيرودس واستج أن رئيس الربع لا يشكوشيتاً
خطيراً، لكنّه تعرّض لصدمة حادة جعلته يفقد الإحساس بنفسه.
إنّه معرّض للتخلّص من هذا الخدر أو للبقاء على حالته فحسب.

- سيفيق، جزمت هيروديا، يفيق دوماً. لقد فعلها معي سابقاً
عندما استلم رأس يوحنا على طبق. بعد أيام ثلاثة، رجع
إلى عاداته المقرّفة. فعلت به زيارتك بالأمس ما فعل به جرّ
رقبة الكاهن القدر. ما عساك قلت له؟

رويت لها، في نبرة صارمة لكي أبهرها، كيف قوّضت مخطّط
هيرودس، وكيف أمرته بإخاد كلّ الشائعات التي نشأت حول
نبش القبر. أنصت لي هيروديا في اهتمام، بعينين برّاقتين وملامح
شاخصة. صمت برهة طويلة قبل أن تردّ:

- أنت مخطئ يا بيلاطس. ألمعيّ استتاجك هذا الذي هدف
إلى اتهام هيرودس، لكنّه مفرغ بامتياز. ذلك القدر ماكرٌ

جداً، وأنت لا تولي اهتماماً لما يلي: هيرودس متشبعٌ بعقيدة أجداده ولا يحيد عن الشريعة أبداً لأنه تقىٌ جفاً. لم يتقبل أنني انتزعت منه موت يوحنا المعمّس؛ كان يراه نبياً حقاً، وقد خاف كثيراً لأنه اغتال كاهن الرب. لم يكن يعاشري منذ زمن بعيد، وبعد هذا الحادث، لم يعد يتحدث إليّ أيضاً. عندما ظهر يسوع، وقد بشّر به يوحنا المعمّس على أنه المسيح الحقيقي، علّق عليه هيرودس أملاً كبيراً. ودّ مساعدته وعرض عليه مالا ليشعر في دعوته. لكنّ يسوع سخر منه. لم يشعر هيرودس بالإهانة. كان يرى النبوءات تتحقّق واحدة تلو أخرى وتثبت هويّة يسوع. عندما أعلن الناصريّ عن رغبته في الذهاب إلى أورشليم، بمناسبة عيد الفطير، لكي يتمّ دعوته، حزم هيرودس حقائبنا لكي نشهد نصره. ولما اعتقل يسوع، لم يخف هيرودس لحظة واحدة، إذ كان واثقاً أنّ يسوع سيقضي على خصومه بوضع سدّ من اللهب بينه وبين القضاة، أو أنه سيقوم بأيّ معجزة أخرى. لقد عودنا يسوع بشفاء الكثير من المرضى. عندما علم هيرودس من جواسيسه أنّ السهديم لم يقف إلى جانب يسوع، وأنّ أعضائه استأثروا من سلوك يسوع العنيد، وصوّتوا على موته بالإجماع، تدخل واستعمل ثغرات في القانون ليرسل إليك الناصري. وتلك الليلة..

توقّفت برهة، مرهقةٌ مما سترويه لي. رمت برأسها إلى الخلف، ثمّ عاجلت رأس أحد خواتمها بحركة خاطفة، وسحبت منه خنجرًا من

محقوق وضعته على لسانها وعلى جفניה المفلقين، وبدت في كامل قواها مجذّداً.

- لا شيء يسير وفق المتوقع، يا بيلاطس، لا شيء. استقبل هيرودس يشوع بكلّ لطف، وأعلمه أنّه سينقذه. أجابه يشوع أن لا أحد كان يستطيع إنقاذه، وبالخصوص هو، هيرودس؛ كان عليه أن يعيش قدره. كان عليه أن ينقذ الناس وليس هو من يجب إنقاذه. لم نفقه شيئاً. كان يشوع يتمنى الموت، وقال إنّ موته محتم. بدا لنا منهائراً، منحطّ المعنويات. كنا هلعين ورجوناه أن يثوب إلى رشده ويأتي شيئاً من معجزاته. كان له جواب وحيد: كتب عليه الاحتضار والموت في ظروف فظيعة. ظلت دوماً أنّه كان محتالاً، لكن هيرودس أدرك، تلك الليلة ولأول مرّة، ففكرتي. انخرط في غضب رهيب، وشرع في شتم يشوع مطالباً إياه بإتيان معجزة في حضرته. لم يجرّك الناصري ساكتاً، وبقي واهناً، خائر الكتفين كأنّه لصّ قبض عليه. حرّض هيرودس القصر بمن فيه من عسس، وخدم، وعبيد؛ هاج الجميع على يشوع يشتمونه ويسخرون منه. بالفنا في استفزاز طمعاً في ردة فعله. عوضاً عن ذلك، بقي الناصري رخواً كدمية من القش وترك الجميع يدوسونه، ويشتمونه، ويلطخونه، ويحسّونه، ويقبلونه، وقد حملت عيناه خضوعاً حزيناً ضاعف من غضب جميع المشاركين. أخيراً، من شدّة اشتزازنا وخيبة أملنا، أخيراً، أرسلناه إليك يا بيلاطس، على تلك الحال التي تعلمها،

قذراً، ممزق الأسهل، تكسوه حمرة قانية، لنسخر من زعمه
تأسيس مملكة، ولتعلم أنّ الأمر يتعلّق بمحتال بغيض،
بالمناسبة، وجب عليّ القول إنّنا كنّا سنمزقه مَرَّ ممزق ونقتله
تلك الليلة لو لم نتفق مسبقاً على رده إليك.

تتهدّت مطوّلاً. تحسّرت على تأخير إعدامه. كانت هذه المرأة
الغريبة مهووسة بالقتل.

- إذن يا بيلاطس، بعد أن علم هيرودس بإشاعة بعث حيّ،
رأى نفسه يقتل رسول الربّ ثانية. أظنّك تفهم الرعب
الذي تمّلكه وأرسله في ميات إلى مجاهل خالية ومطبقة،
يلتجئ إليها عندما يفقد الشجاعة على الحياة.

نطلّعت إلى عيني في حزم.

- هل تؤمن بهذا البعث؟

- إطلاقاً بطبيعة الحال.

- ولا أنا أيضاً.

التفتت وسارت نحو تمثال من الذهب والعاج وداعته مطوّلاً
بيديها ذوانا الأظافر الرائعة. كانت تفكّر، وشعرت أنّها لم نعد نتقاسم
الغرفة ذاتها من شدّة تأملها. بغتة، تجعّد جيّنها وتوقّفت عن لمس
المنحوتة، ثمّ حدّقت في بعينين نصف مفتوحتين، كأنّها تفتش عن
الحقيقة في أعماق بؤبؤ عينيّ.

- هل خامرك شكّ في نسخة شيهة منه؟

- ماذا؟

- ما صدمني في كل الشهادات هو أن النساء و الرجال لم يتعرفوا يشوع فوراً. كان الرجل يعتمر قلنسوة لم ينزعها إلا قليلاً ثم توارى عن الأنظار. قد يكون نسخة بنسبة تشابه ضعيفة.

- لم يكذب الشهود إذن، وأنها وقعوا في شرك نسخة من يشوع.

- بطبيعة الحال. لا شيء أكثر هشاشة من شاهد زور. والحال أنك تخذ الشاهد التزيه، والشاهد الذي وقع ضحية خدعة مسرحية، والشاهد الذي تعرض للتعذيب، يصدقون كلهم بروفيثهم يشوع حياً.

أدركت فوراً مغزى هذه الفرضية. تركت هيروديا، ثم وجدتهني بجبراً على عرض خدمات سر توريوس عند مغادرتي.

- هل توذنين أن أترك لك طيبسي لكي يسهر على صحة هيرودس؟ عبت هيروديا في ازدراء.

- لا فائدة في ذلك! فهيرودس ثابت وراسخ ومعمّر مثل عشبة ضارة لا تنتظر الربيع لتزهر.

كثرت هيروديا إثر هذه الكلمات. لا شك أنها كانت تبغض هيرودس بشدة. عبرت أورشليم مفكراً في اقتراحها. من الممكن أن يبرر انتحال الشخصية هذا الإيجاز الشديد الذي أحاط بظهور

يشوع بهالة من الغموض. كان الرجل الذي يلعب دور يشوع يظهر في الظلام بحذر كبير، متخفياً تحت قلنسوته؛ ويشرع بالحديث مع ضحيته ليختبر مدى حزنها، ومن ثمَّ ميلها المحتمل إلى تصديق عودة يشوع؛ وعندما تبلع السمكة الطعم ويصبح المصلوب عطشاً انشغالهم، ينزع الرجل قلنسوته.

رغبت في أن أشاطر قيافا هذه النظرية، فبعثت رسولاً إلى المعبد، فقدم الكاهن الأعظم، دون إبطاء، حِزَّه الغضب.

- انزل إلى السوق وأنصت لهم يا بيلاطس: لا تبس شفاه النسوة بغير اسم يشوع. هذا ما ينتظرنه لو تقاعنا معهن: نسوة يفكرن، ونسوة يبدين آراءهن! لم لا نجد نسوة في السلطة أيضاً؟! يتجمعن في الساحة العامة ويطالبن ببداية عهد جديد! ليت موسى يشهد هذا! علاوة على ذلك، أيّ نسوة شهدن ظهور يشوع؟ سالومي؟ مريم المجدلية! شبيقة لا تكفي وأخرى عاهرة! كلتاها بارعتان في فنّ ما تحت البطن! متحفستان تهديان وعمران من البغاء إلى التصوّف! من نشوة إلى أخرى!

- ألا تزال مريم المجدلية هذه تمارس مهنتها؟

- تزعم هذه الائعة أن يشوع أبعداها عن الرذيلة. سهل جداً! لقد فهمت أنها أدركت أرذل العمر. سافلات، كلهن سافلات!

تركت قيافا يواصل توبيخه، ثم اغتنمت أخذه نفساً، فعرضت

عليه نظريتي الجديدة. أنصت لي منزعجًا في البداية، ثم باهتمام وأخيرًا بارتياح:

- أنت محقّ طبعًا يا بيلاطس: إنَّ يسوع يتعقّن في مكان ما بينما انتحل آخر دوره. لكن من؟

فكرنا سوياً. عبر النافذة، رأيت ضوء النهار يخفت. اصطبغت السماء بلون أرجواني، واختفت ظلال الأجساد من الطريق. كانت اللحظة المبهمة التي ينقُص بها الليل والنهار أحدهما على الآخر دون أن يتصر كلاهما. شعرت بخمود تلك اللحظة الساكنة.

لم يستطع أحدنا أن يظفر بشبه ليسوع في ذكرياتنا، لأنَّ يسوع لم يكن يحمل ملامح متميِّزة. لم نذكر أيّ ميزة معيَّنة. لم استحضر سوى نظرة واحدة، نظرة تحمل حدة مريبة.

تركني قيافا وقد وعدني بالتفكير في الأمر واستشارة أعضاء السنهدريم. لكنني لم أجِد الطريقة ناجعة: ربّما أتى الشبه من مكان آخر، من الجليل مثلاً، ولم تكن نعرفه. لا، كان عليّ القبض عليه متلبساً، لكن كيف السبيل إلى توقُّع ذلك؟ فحصت أماكن ظهوره وتوقيتها لأعثر على طرف خبيط. لم أجِد شيئاً، سوى... سوى غمّاطة أكبر. لقد استهلَّ هذا المحتال مسرحيته مع سالومي التي لم تكن تعرف يسوع كثيراً ثمّ واصل مع حجييج ايمايوس الذين اتبعوا يسوع لأسابيع عديدة. ثمّ شجَّعه نجاحه ونجراً على الاقتراب من مريم المجدلية التي ألفت الناصريّ منذ سنوات.. لا شكّ أنّه يعترم الظهور على المقرّبين من يسوع. من سيختار أولاً؟ أتباع يسوع؟

أمرته؟ سيفضل العائلة حتمًا لأن أتباع يشوع حُجِّرت إقامتهم
بأورشليم. لو استطاع إقناعهم، فقد قضى الأمر.

دعوت أربعة رجال فحسب، من ضمنهم يوروس. طلبت
منهم التخلي في معاطف التجار وحملتهم ليلاً إلى مساحة النافورة،
حيث قدمت مريم المجدلية تذييع الخبر السار على سامع أم الساحر.
انتشر رجالي عبر الظلال ليرصدوا حول بيت القرميد الصغير.

لن أزيد من تشوُّقك أخي العزيز. أثناء دورة الرصد الثالثة
بعد منتصف الليل، ظهر في الشارع ظلٌ رجلٍ يحمل قلنسوة. كان
يخطو بحذر شديد، ولا يكفُّ عن الالتفات. كان يحترس مثل لص.
حبسنا أنفاسنا. بدا متردِّدًا. هل حَزَرَ مكمننا؟ لم يحرك ساكنًا لوهلة.
ثم اقترب من بيت مريم مطمئنًا إلى الهدوء من حوله. أمسكت
رجالي. ارتبك مجذِّدًا، التفت، ثم طرق الباب. عندها، انقضَّ عليه
رجالي، طرحوه أرضًا وشلُّوا حركة يديه ورجليه وأصقوا رأسه
بالبالوعة القذرة. دنوت منه ونزعت عنه قلنسوته فترامى لي وجهه
تلميذ يشوع الأصغر سنًا وقد تغيَّرت سحته.

يوحنا ابن زبدي، هو نفسه، الذي هرول من قبل عائداً إلى
رفاقه ليخبرهم باختفاء الجثة، هو نفسه الذي تمنى عون الملاك
جبرائيل، قد حلق لحينه ودهن جفنيه بالفحم حتى صار يشبه
سبته تقريباً... أخذته المفاجأة أكثر من الرعب، فلم يقاوم. تلقفتي
أحاسيس متباينة، شعرت بارتياح عند اعتقاله، وأصابني استمزاز
من هذه المزامرة، حتى أنني لم أنس بيت شفة. حملناه إلى حصن

أنطونيا ورمينا به في زنزانة بالقبو. إنه يجثم تحت قدمي الآن.
سأحقق معه أثناء فترة الحراسة الرابعة، عندما يخفت اشمزازي من
هذا السلوك المخادع.

هل تذكر سقطتي في سنّ الثامنة عندما كنّا نلهو فوق سطح
البيت وقد علقت قدمي بلبنة؟ لقد نجوت منها بأعجوبة. لم أخف
ساعتها، لكنني خفت فيها بعد. أمضيت ساعات طويلة مرعجًا
وخائفًا من الميتة التي تفاديتها. الليلة، عشت الموقف ذاته: بدل
الاحتفاء بنهاية القضية، انتفضت مفكرًا بكلّ المخاطر التي تجتبتها.
غداً، أطلعك على تفاصيل استجوابي.

في الانتظار، كن بخير.

من ييلاطس إلى العزيز تيتوس

ما المفاجأة؟ حدث غير متوقع يثير فينا الحزن أو الفرح؛ سريعة
هي المفاجأة؛ وبمضى منا أثرها دومًا، سارة كانت أو سيئة. لكن
ماذا نسمي مفاجأة بلا نهاية؟ هل هي سهم يستقرنا في ارتباكنا؟

نزلت إلى الزنزانة ليلة أمس. لم يكن هناك سوى يوحنا وبرفته
الليل. كان الفتى ملقى على بطنه، ذراعاه متقاطعتان ووجهه إلى
البلاطة. عبر قضبان النافذة تسَلَّت حزمة أشعة أطلقها قمر
خافت. كان طويلًا، مثل يشرع. كان لباسه الأبيض بلاثم منكبيه
العريضين وخصره الرفيع وردفيه القويين وساقيه الطويلتين.

تجولت مطولًا في أرجاء الحصن الساكن. تجمّدت بردًا. لا

أحبّ ليالي الربيع الباردة التي لا تنفي بوعود دفء النهار. تأملت
يدي يوحنا دون أن يراني، كان باطننا كفيه ملتصقتين بالأرض
ويداه ناعمتين كزغب الحدود.

- اقترب يا بيلاطس ما دمت تشتعل رغبة في الحديث إليّ.
اختلجت. ترددّ صوته أسفل السقف المقوّب دون أن يحرك ساكنًا.
- اقترب.

ابتسم. بالغ يوحنا في عحاكاة يشوع حتّى صار يتكلّم مثله
بهذه النبرة القاتلة المتخفية خلف قناع من الرقة، هذه الألفة الغريبة
التي لا تفرّق بين راع وإمبراطور.
تقدّمت من القضبان وممت:

- وضعية غريبة للصلاة.

- كان على هذا الوضع عندما قضى نحبه على الصليب، مثل
أي مجرم. سأصلي هكذا من هنا فصاعدًا. منذ قليل، تحيّلت
المسامير مدقوقة في قبضتي.

لملم أطرافه بفته، ثمّ استدار وجلس قبالي. أحاطت ذراعه
بركبتيه والتمعت عيناه السوداء وان بينما اصطبغ شعره الطويل بزرقة
في ضوء القمر الباهت.

- أردت أن أشبهه إلى أقصى حدّ ممكن، وأن أقلّده ما دمت حيًا.
جعلتني نبرة الصدق التي ترددت في صوته أشكّ في جنونه.

هل كان يرى في نفسه معلّمه يشوع؟ هل خدع الشهود رغبًا عنه،
دون نية سيئة ربّما؟ لعلّه لم يكن يعي أنّه بغالطهم؟
كان عليّ الشروع في استجوابه.

- مهما قالوا عنه في السهدير، اعتقدت دومًا أنّ يشوع رجل
صادق وعادل.

- هل تلقّيت حتّى أنت نور كلماته يا بيلاطس؟
كم أبغض هذه البلاغة الخاصّة باليهود، تلك الصور المتحمّسة،
ذلك الحيز اليوميّ لفكرهم الضبابيّ. أعدته إلى حججه.
- إطلاّقًا. لأنني ببساطة تلقّيت نشئة إغريقيّة وحافظت على
فضوليّ إلى الحكماء.

- لكنّ يشوع ليس حكميًّا!
- بلى، حكيم أخرق، حكيم عنيد، مثل سقراط الذي مات لأنّه
لم يشأّ الإنكار.

- يشوع ليس حكميًّا!
خلت أنّي تمثّلته بهذا الإطراء الهائل - قارنت معلّمه بسقراط -
لكنّني فشلت في تقليص المسافة بيننا، وأقام ذلك جدًّا من الصمت.
انغلق الفتى تمامًا.

- لماذا نتعلّج شخص يشوع؟
نظر إليّ دون أن يفهمني وقد بدا ذاهلًا حقًّا. شرعت أتساءل

عَمَّا إِذَا كَانَ النَّاسُ يَرَوْنَ يَشُوعَ فِي يَوْحَنَانَ دُونَ أَنْ يَدْرَكَ هُوَ ذَلِكَ.

- اسمعني يوحنا. كان هناك شبه طفيف بينك وبين يشوع وقد خلقت لحيتك لتغذي هذا الشبه. فكرة جيدة. سودت جفنيك بالفحم لتبدو مرهقًا وأكبر سنًا. أخفيت وجهك بقلنسوة، وحاكيت صوته، وعندما كنت تجد محادثتك جاهزًا للوقوع في الالتباس، كنت تكشف وجهك للمحظات وسط العتمة.

- إطلاقًا.

- بلى. إذن، لماذا قمت بذلك وأنت يهودي ورع؟ لا يخلق يهودي تقى لحيته!

انفجر يوحنا ضاحكًا.

- لم أخلق لحيتي لأتبعه بيسوع، وإنما لأراوغ حراسك. لقد نهيتنا نحن أصحاب يسوع، عن دخول أورشليم. لكنني كنت أعلم أن أشياء كثيرة ستحدث هنا. تجاوزت منعتك وقررت الاختفاء. لبست قلنسوة لهذا الغرض. نعم، لقد أخفيت وعشت في السرية، لكنني لم أنتحل شخص يسوع.

- لماذا ذهبت إلى والدته؟

- كان يسوع يحب أمه حبًا جمًّا وأنا واثق أنه سيأتي ليلفها الخير السار. وددت الحضور لأنزوي في ركن وأشهد ظهوره من جديد.

حَيَّرَنِي هَذَا الْفَتَى. كَانَ يُؤْمِنُ إِيْمَانًا عَنِيفًا بِكُلِّ مَا قَالَهُ وَلَمْ يَكُن قَادِرًا عَلَى الْكَذِبِ.

- أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ يَا بِيْلَاطُسَ. دَعْنِي أَذْهَبَ إِلَى بَيْتِ مَرْيَمَ. لَا أُرِيدُ أَنْ يَقُوتَنِي الْأَمْرُ.
أَمْسَكَ بِيَدِي وَنَظَرْتَهُ تَتَوَسَّلُ لِلَّيِّ.

- بَعْدَ ذَلِكَ يَا بِيْلَاطُسَ، سَأَقْبِعُ فِي السَّجْنِ قَدْرَ مَا تُرِيدُ، يُمْكِنُ لَكَ حَتَّى صُلْبِي. لَا يَحْتَمِ، مَا دُمْتُ سَأَرَى يَشُوعَ. دَعْنِي أُنْتَظِرُهُ فِي بَيْتِ مَرْيَمَ.

اِبْتَعَدْتُ لَكِي يَقْلَتْنِي. خَرَّ أَرْضًا وَهُوَ يَتَوَسَّلُ. طَالَمَا أَنَّ هَذَا الْفَتَى لَمْ يَكُنْ يَكْذِبُ، فَإِنَّ عَلَيَّ التَّشَبُّهَ مِنْ صَحَّةِ فَرَضِيَّتِي الثَّانِيَةِ: لَمْ يَكُنْ غَادَعًا مُتَعَمِّدًا وَإِنَّمَا كَانَ غَادَعًا دُونَ وَعِيٍّ مِنْهُ.

- هَلْ تَنْفِي اتِّحَالَكَ شَخْصَ يَشُوعَ؟
- طَبَعًا.

- هَلْ لَاقَيْتَ سَالُومِي ابْنَةَ هِيرُودُسَ مُؤَخَّرًا؟
- أَجَلْ.

- وَمَرْيَمَ الْمَجْدَلِيَّةَ؟
- أَجَلْ.

- وَحَاجَتِي إِيْمَايُوسَ؟
- طَبَعًا.

كان يعترف دون دهاء. كان يجهل أثره عليهم.

- ما رأيك في شهاداتهم؟

- أنا أحسدهم. بيلاطس، أرجوك، دعني أنضمّ إلى مشروع في بيت والدته. لا أحتاج إلى رؤيته بعيني لكي أصدق، لكنني سأكون سعيدًا جدًا بلاقائه. اتركني لحال سيلي. أعدك بتسليم نفسي فيها بعد.

تركته يصرخ، ثم صمت. أدرك أنني سأبقى في الزنزانة، فانبطح أرضًا على شكل صليب، وشرع في الصلاة مجتهدًا. رأيت بعدًا وعاد تنفّسه إلى انتظامه.

لقى الفجر بألوانه الشاحبة على قضبان النافذة. تخنّنت أن من الأجدر أن أرتاح قليلًا قبل مواجهة يوم جديد. نهضت لأغادر السجن.

- أحبك يا بيلاطس.

نطق يوحنا بهذه الكلمات حين رأي منصرفًا. تسوّرت في مكاني.

- أحبك يا بيلاطس.

التفت نحوه وكلّي رغبة في شتمه لكي أخرسه.

- توقّف عن التحدّث مثله!

- لقد علّمني ذلك بنفسه.

- كيف نزعم أنك تحبني؟ احتجزتك في السجن؛ سأسلّمك

للمسهرديم بعد سويعات؛ قد لا ترى نور الشمس مجدداً
وتزعم أنك تحبني؟ تحبني أنا، أنا الذي أعدمت معلمك!
- لقد طأبنا بأن نغفر لك و هو على الصليب.

- أنا؟

- أنت والآخرون. لقد همس لنا: «أبانا، اغفر لهم لأنهم لا
يعلمون ما يعملون».

دون وعي متي، ارتيت على القضبان، وجذبه وشرعت أمره
في عنف.

- ليس أنا، أسمعني، ليس أنا. لست مضطراً إلى أن تحبني!
ليس عليك أن تغفر لي! لا أريد ذلك!
- لا تكن متكبراً. كان يشوع يحبك.

طُفح الكيل. كان يوحنا يهددي وهو في زنزانته. صار هو
القناص وصرت أنا الطريدة. تراجعت إلى العتمة لكي أحتمي من
طيته التي لا تطاق.

- أنتم مجانين! مجانين! قبالا على حق: يجب إلبامكم. علينا
إعدامكم جميعاً!

- ألا ترغب في حبي لك؟

- إطلاقاً، لا أرغب في حبك. أفضل اختيار من يمنحني حبه،
ومن أمنحه حبي. هذه ملكية خاصة.

- أنت محقّ يا بيلاطس. ما هو مصيرنا لو أننا جميعًا أحببنا بعضنا بعضًا؟ فكّر بهذا بيلاطس. ما هو مصيرنا في عالم يفيض حبًا؟ ما هو مصير بيلاطس، والي روما، الذي يدين بمنصبه للاحتلال وكره الآخرين وازدراءهم؟ ما هو مصير قيافا، كاهن المعبد الأعظم، الذي يتزوّف إليك بالهدايا ويعزّز سلطته بواسطة الخوف الذي يزرعه؟ هل سيوجد يهود واغريق ورومان في عالم يسوده الحب؟ أقوياء وضعفاء كالعادة، أثرياء وفقراء، رجال أحرار وعبيد؟ أنت محقّ يا بيلاطس عندما تتوجّس خيفة: سيهدم الحب عالمك. لن تشهد مملكة الحب إلّا على أنقاضك.

هل أستطيع أن اعترف لك بهذا، أخي العزيز؟ هربت من مواجهة كلّ هذا القدر من الجنون. غادرت حصن أنطونيا قاصدًا بلاطنا. تسلّقت السلام المؤقّية إلى جناحنا مرعًا وهناك، كما يجد الناس في الصحراء برّاء، ازعجت في فراش كلوديا. كانت نائمة على جنبها فالتصقت بها، وداعبتها لتفيق. ابتسمت لرؤيتي وصاحت في سرور:

- بيلاطس، لقد وددت أن أقول لك...

أطبّق فمي على شفّتيها. كنت أفيض حنانًا، وبنوع من البهجة المتوحّشة، ورغبة شديدة في ضمّ زوجتي ومداعبتها ومضاجعتها. تقلّبتنا في فراشنا. أرادت المزيد من الحديث، لكنّ فمي منعها. استلمت أخيرًا والتصق أحدها بالآخر تمامًا ومارسنا الحبّ مطوّلاً بكلّ عنف.

عندما قرّرتنا النشوة، استلقينا جنباً إلى جنب، ثم نهضت كلوديا وجاءت لتجلس أمامي.

- بيلاطس، لديّ أمر على غابة من الآهية سأقوله لك.

- أنك تحيّي كلوديا؟

- هذا ما قلته لك منذ لحظات.

تبادلنا القبل مجدداً.

- بيلاطس، لديّ أمر آخر سأقوله لك، أمر لا يصدّق، مزعج.

ثم صمتت. قبلتها في عنقها لتشجيعها.

- نعم؟

- لقد رأيت يشرع هذه الليلة. لقد ظهر لي. لقد بعث حيّاً.

من بيلاطس إلى العزيز تينوس

كيف أنهيت رسالتي إليك ليلة أمس؟

ما عدتُ أعلم.

أفكر بصعوبة.

تحدّى الوقائع كلّ منطق، وترتع وتنخذ مارات مجهولة

وتهرب عبر الحلاء. تمرّ كلوديا عليّ أن أتبع تلك الرفائع، وأن

استنبط منها أفكاراً. لا أقدر على ذلك. لا أستطيع التخلّي عن

المنطق السويّ، الذي يتمسك باحتمالين لا غير، الحياة أو الموت،

وليس الاثنين معًا. هذه الأيام، كما سبق أن قرأت، أكثر من استعمال الحبل حتى أحافظ على نقتي.. في التفكير المنطقي. كنت أنتهي إلى الفشل كل مرة ونصفني الحقيقة، حقيقة عنيدة، عبثية، غير مقبولة، لا تحظر على بال، مرعبة ومذهلة.

لم تر كلوديا يشوع، أما أنا فكنت أحتجز شبيهه في زنزانة بحصن أنطونيا فحب. لقد ظهر يشوع لأمه أيضًا ثم لشوزا، أمين قصر هيرودس، في الليلة ذاتها، وزف لكليهما ذلك «الخبر السار».

لا أفهم ما لذي يكونه هذا الخبر السار. قدرت أولًا أن الأمر يتعلق بخبر بعثه، إذ من البديهي أن العودة بين الأحياء مبهجة جدًا، لكن كلوديا أكدت لي أن الأمر لا يمكن أن يمحصر في مجرد فكرة شخصية وأنانية. حسب كلوديا، لم يعش يشوع من أجل ذاته فحب، ولم يموت من أجل نفسه، ولذلك لن يعود من أجل نفسه أيضًا.

وهي واثقة من أنه اختار الظهور أمامها، هي الرومانية. رغم أنه اصطفاها، فهي غير قادرة بعد على فهم الرهان ولا تزال مقتنعة بأنه سيرسل إشارات أخرى.

تخيل موقعي.. قد أشك في كل الشهادات إلا شهادة كلوديا بروكولا. بظهوره لزوجتي، وهو ما أشك فيه، فإن يشوع كان يقصدني أنا. كان يريد إقناعي. لكن بماذا؟

لماذا يظهر ثم يختفي في الوقت ذاته؟ لماذا هذا المزيج من الحضور والغياب؟ لو كنت مكانه، متهمًا زورًا، ولو عدت من الموت بمعجزة،

ماذا كنت أفعل؟ أفر من جلادي إلى بلد آخر. أو أفيد من المعجزة لأظهر بكل جرأة وأحتمي خلف سمعة الحصانة. سأختار موقفاً واضحاً. أخفي أو أظهر للعيان. لا يتبع يشوع هذا المنطق. إنه يتحارب، يخادع، يراوغ ويثّ البلبلة ويحيط نفسه بالغموض. كيف أطارد خصماً لا أستطيع فهمه؟

حاولت عبر استنطاق كلوديا وحثها على تقديم تفسير، لكنّها كانت مضطربة مثلي، لأسباب أخرى طبعاً، وتعبت في إنارة دواخل الناصري.

- علينا فهم نصوص الشريعة اليهودية، كانت تقول لي.

ذهبت لاستشارة نيقوديموس، عضو مجلس السنهدريم، العالم، الخبير بأدق تفاصيل الفقه المشعب.

رجتني كلوديا اصطحابها. تخفينا في معاطف الحجيج لأن زيارة والي روما وزوجته إلى نيقوديموس قد تكون غريبة، واتجهنا صوب حيّ الخزافين، ملفوقين، مقتنعين، وتجاوزنا ساحة الأبرياء ثم طرقتنا الباب. أبطاً نيقوديموس في فتح الباب. عندما نفحصنا من كوة الباب، رفعت رأسي قليلاً لكي يتعرفني. تحرّكت المزالج فأدخلنا وأحكم إغلاق الباب خلفنا. لم أنصوّر بيت فقيه على هذا الشكل: تحيّلته مليئاً لفائف وخطوطات، لكنني لم ألح سوى رفوف خالية وجرة محطمة. حرّر نيقوديموس دهشتي.

- لقد صادروا كل ما أملك. لآمني قيافا على إنصاتي ليشوع، ومحاولتي تجنيبه المحاكمة، وعلى حمل جسده إلى القبر أيضاً.

لقد صَبَوْا جام غضبهم عليّ منذ ظهوره للعيان. حوّلني
عجزهم القاهرة إلى كبش قداء.

كان الرجل يتسم.

- تركوا لي بيت أبيّ إلى حدّ الآن. أظنّ أنّهم سيفتكونه بعد
أسبوع أيضًا ومأصلب كلّ شيء.

لم تبدُ عليه علامات التأثر. كان سعيدًا وصبّ لنا الماء فيها تبقى
له من اقتراح.

- نعيش لحظة فارقة؛ فضلّ مبین أن تشهد الربّ الخالد في الدنيا.
يا له من شرف عظيم! لم نحنّ؟ الآن وهنا، لماذا؟ هذا للربّ!
كان موسى أوّل من بشر بمقدم نبيّ وإرساله عهدًا جديدًا.
ثم داود، حزقيال، أوزيوس، وخاصّة جيرميا، كلّهم تنبّؤوا
عن طريق الوحي ببعث المسيح. ثمّ ظهر يسوع. وعلى خلاف
كلّ الأنبياء الحقيقيّين الآخرين أو متعلّي صفة المسيح، فإنّه
حقّق كلّ النبوءات واحدة تلو أخرى. أوّلًا، قيل إنّ المسيح
سيولد في بيت لحم، وقد ولد يسوع هناك. وإنّ أوج دعوته
سيتمّ بأورشليم، وقد تسبّب يسوع في شغب كبير بها. عندما
بلغ سنّ الرشد، تعرّف إليه يوحنا المعمّس، آخر نبيّ قبل
عجّيء المسيح، وسط حشد كبير، وجثا أمامه وأعلن أنّه ظهر
بأرض فلسطين. تسارعت الأحداث إثر ذلك وأخذ يسوع
يحقق النبوءات. «ابتهجي كثيرًا يا بنت جبل صهيون! أطلقني
صيححات الفرح يا بنت أورشليم! هذا ملكك فدّ أنك عادلاً،

مظفرًا ومتواضعًا، يركب حمارًا، حمارًا بافقاء. مثلها توقع حزقيال غمامًا، فقد دلف يشوع إلى اورشليم يركب أنثًا لم يسبق أن وضع عليها سرج؛ تعرّف الناس العلامات، ففرشوا الطريق عباة، ووضع آخرون أغصانًا وسعفًا جلبت من الغابة؛ كان الناس الذين يمشون في المقدمة والذين يتبعون على حد سواء يصيحون «أوصنا! مبارك الآتي باسم الرب!» هنا، على جبل الزيتون، حسب زكريّا، سيتجلّى الرب يوم القيامة. كان كهنة المعبد حانقين يأمرّون الأطفال بالصمت، وكان يشوع يردّ عليهم «لم تقرأوا الكتاب المقدّس إذن: ألم يتصاعد الثناء من أفواه الأطفال!» طبعًا، زعم البعض أنّ يشوع كان يستغلّ معرفته بالكتاب المقدّس لكي يجهّز ردوده وتنقلاته. لكن طالما أنّه متحيل، فلماذا يخطر بوقع المستقبل؟ هل تذكرّون غضبه في الهيكل، عندما قلب المناضد والأوصام وكلّ ما يجبس النيران والنعاج، وعندما طرد التجار بسوطه. برّر فعلته مستعملًا الكتاب المقدّس: «سبّدعى بيتي بيت الصلاة لكلّ الأمم، وأنتم جعلتم منه حانة للمصوص»، ثمّ غامر هو أيضًا بنبوءة «اهدموا هذا الهيكل، وسأشيدّه في ثلاثة أيّام». لم يفهم الكهنة شيئًا وانخرطوا في الضحك. «تطلّب بناء هذا المعبد سنًا وأربعين سنة، لتأتي أنت وتقيم صرحه في ثلاثة أيّام!» وهذا ما فعله حقًا، وما أدركناه سوى هذه الساعة. إنّ الهيكل الذي كان يتحدث عنه هو جسده. جسده الذي بعث حيًّا بعد أيّام ثلاثة! ثلاثة أيّام!

حَتَّى هَذَا الْإِقْرَارَ الْقَاطِعَ عَلَى التَّلْمِيحِ إِلَى وَجُودِ تَلَاْعِبِ
بِالْأَلْفَاظِ، لَكِنْ كَلُودِيَا اسْتَوْفَقْتَنِي بِضَغْطَةِ عَلَى يَدَيَّ.

- هل اقْتَضَتْ النُّبُوَّةُ أَيْضًا إِعْدَامَ الْمَسِيحِ عَلَى صَلِيبٍ مِثْلِ أَيْ
لَصٍ وَضِيعٍ؟

- طَبَعًا. لَقَدْ حَدَّثَنَا أَشْيَاءٌ «سِينَجَعُ عِبْدِي»، قَالَ الرَّبُّ،
سَيَصْعَدُ وَسَيَتَجَلَّى أَذْهَلُ الْجَمْعِ لِأَنَّهُ كَانَ مَشُوقًا حَتَّى صَارَ
لَا يَشْبَهُ بَشَرًا. سَيَعْتَقِلُ وَسَيُحَاكِمُ ثُمَّ سَيُعَذِّبُ وَيُدْفِنُ مَعَ
الْكَفَّارِ. ظَلِمَ وَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ. كَشَاةٌ تَسَاقُ إِلَى الذَّبِيحِ، وَكُنْعَةٌ
صَامِتَةٌ أَمَامَ جَارِزِيهَا فَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ.

أَنْتُمْ مَعَشَرُ الرُّومَانِ وَالْإِغْرِيْقِ لَنْ تَتَخَيَّلُوا أَحَدًا أَهْلَكُمْ يَدْعِي
فِي هَوَانٍ عَمَالًا، أَنْتُمْ تَحْلُطُونَ بَيْنَ الْقِدَاسَةِ وَالْجَسَارَةِ. وَالْحَالُ أَنَّ
بِمَكَانَاتِنَا اسْتِخْلَاصَ مَعْنَى مِنَ الْعَذَابِ.

رَضِيَ الْمَسِيحُ بِالْمَوْتِ مِنْ أَجْلِ خَلَاصِنَا. لَمْ يَحْمِلْ عَلَى الصَّلِيبِ
آثَامَهُ فَحَسْبَ، وَإِنَّمَا آثَامَ الْأُمَّةِ. «حَمَلَهُ الرَّبُّ ذُنُوبَنَا جَمِيعًا»، قَالَ أَشْيَاءُ.
لَقَدْ جَعَلَ مِنْ حَيَاتِهِ قَرْبَانًا لِلتَّكْفِيرِ عَنَّا. كَانَ يَحْمِلُ خَطَايَا الْجَمِيعِ
وَيَشْفَعُ لِلْمُخْطِئِينَ. لَقَدْ تَكَبَّدَ كُلَّ آثَامِنَا لِأَنَّهُ خَبِرَ الْعَذَابَ وَتَكَبَّلَ
بِنَا. إِنَّهُ يَأْتَانَا أَنْ نَعْتَرِفَ بِسَيِّئَاتِنَا وَنَكْفُرَ عَنْهَا. أَهْ لَوْ تَعْلَمُونَ، لَقَدْ
تَحَقَّقَتْ كُلُّ التَّفَاصِيلِ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، حَتَّى الصَّغِيرَةِ مِنْهَا. قُلْنَا
«لَنْ يَحْطُمَ عَظْمٌ وَاحِدٌ مِنْ عِظَامِهِ»، وَأَنْتِ يَا بِيْلَاطُسَ، لَمْ تَبْرَأْ أَوْصَالَهُ
وَلَمْ تَمْرَقْهَا؛ لَقَدْ أَنْزَلْنَاهُ سَلِيمًا مِنْ فَوْقِ الصَّلِيبِ، أَنَا أَشْهَدُ بِذَلِكَ،
كَتَبْتُ هُنَاكَ رِفْقَةً يَوْسُفَ الرَّاْمِي. يَقُولُ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ: «سَيَنْظُرُونَ

إلى الذين طعنوه»، بينما يقف جنودك أسفل الصليب. «ستنبع أنهار من قلبه»، وأشهد أنه عندما يغرر جنديك رغبة في صدره، فإن الماء المزوج دماء سينبع من صدره. أليس كل ذلك خارقاً؟ على الرغم من ذلك، انتابني الشك ذلك المساء. أنا أيضاً، مثل قيافا، مثل الكهنة ومثل الجميع، انتظرنا مسيحاً أوفر مجداً، رجلاً قوياً، قائداً عظيماً أو ملكاً جليلاً. دراستي للفقہ جعلتني أنتظر ما قيل حرفياً. عندما قال داود إن المسيح سيخلص الأمة من أعدائها، فكّرت أنه سيخلصنا من الرومان أولاً. لم أدرك حينها أنّ خطايانا هي الأعداء الذين سيخلصنا منهم يشوع.

لم يكن عليّ مواصلة المحاوره. لقد تعمّقت كثيراً في هذه الحماقات اليهودية، لكنني اصطدمت بأمور لا أظنني أقبليها: الإيمان بهذه النصوص التنبؤية التي وضعها ملتحون مسعورون على مدى قرون في أرض فلسطين المضطربة أو أن أفكر لحظة أنّ يشوع الذي بعث حياً قد يكون المبعوث الإلهي الذي بشرت به هذه الحماقات.

- ما لذي متفعله، نيقوديموس؟

- سأذهب إلى اورشليم. عند العشاء الأخير مع رفاقه، في الأسبوع الذي سبق موته، قال لهم: «بعد أن أبعث حياً، سأسبقكم إلى الجليل». نعلم إذن أنه سيظهر ويتحدث على الطريق إلى الجليل. ليس نحن من يتظر المسيح الآن وإنما هو من يتظرنا. عليّ إيجاد محفة.

- لماذا؟

أشار نيقوديموس إلى وركه.

- لا أقوى على المشي أو على ركوب دابة. لن أقطع المسافات الطويلة إلا بمدّاً. ووضعني المادّي لا يسمح بعد أن سلّمني السهديم أموالني. لكنني سأجد صديقاً يساعدني..

استمعت بإعاقته في شبّاته. بعد كلّ هذه الضباية الدينيّة المنهمرة، سرّتني رؤية نيقوديموس ينلي بتفصيل ملموس.

- صغيّب، نيقوديموس. لماذا لم يحاول يشوع علاجك عندما التقيته؟

- لأنني لم أسأله ذلك.

أجابني نيقوديموس بصدق. اغتظت فصفت الباب دونه وعدت إلى البلاط. حلّ الأصيل.

حلّ الليل ولم أهدأ بعد. حلّ الأفق حزمة الضوء الأخيرة وترك لي قلقي. نظرت عبر النافذة إلى الهضاب، تلك الكتلة الداكنة من المرتفعات التي يختصنها الظلام. آلمني السكون الصامت والنائم عن الأسرار. إنّه يخفيهم عنّي.

أكتب إليك على متن هذه الأوراق الشاحبة التي تشبه أفكارني. أنا لا أفكر. أنتظر فحسب. أرفض الخيار بين خطاب حكيم وخطاب أحق. أنتظر عودة ذهني إلى صفائه. أنتظر من المنطق أن يرتب الوقائع.

منذ قليل، احتججت فجأة إلى الحديث مع كلوديا، اشتبهت
تقيلها. تسارع الدم في صدري. بدا لي أنني سأتأخر عن موعد
دعيت له. صعدت إلى غدعنا، وهنا أدركت سر انقباض قلبي.
لقد رحلت كلوديا. تركت لي رسالة واضحة فوق الفراش. كان
هناك غصن ميموزا يمنعها من التطاير في الهواء. «لا تقلق. سأعود
قريباً». كما تعلم، ألفت هذه القصصات التي نعلن حلول وحدتي
الاضطرارية. كانت كلوديا متعمدة على هذا الهروب، أعلم أنها لا
تستطيع كبح جماح شطحاتها وأني لن أحافظ عليها لو قررت عدم
تحملها.

تمددت على الغطاء الحريري. كانت الغرفة غامرة بحضورها،
رائحة عطرها من العنبر، وذوقها الراقى في اختيار ملابسها النادرة،
والمقاعد المنحوتة والمرصعة أحجاراً ملونة، ورؤوس التماثيل
العجيبة التي جلبناها من أسفارنا. أينما حللنا، تبعاً لطبيعة عملي،
لم أكن أشعر بالراحة في غير فراش كلوديا المشيع برائحتها. هذه
المرة، كنت أعلم أين توجد. لم تذهب في أثر قافلة، أو لتؤنس أبناء
أم مريضة، أو لتقضي بضعة أيام على شاطئ البحر مريحة رأسها على
صدقة باحثة عن أسرارها ومنهمكة في تأملاتها التي تحرمها الأكل
والشرب. لقد انطلقت إلى الناصرة هذه المرة.

سأتركها تواصل توثيقها وسأبحث عن حل هنا. الغريب في
الامر، أنني أشعر أن الأمور عادت إلى نصابها. لقد شطرت نصفين.
بقي جسمي وقوتي وحكمي هنا في حصن أنطونيا، أما نصفي

الحالم، الحساس، الذي يمكنه الرضوخ لسراب الأوهام، فقد وافق كلوديا على طريق الجليل المملوء حجارة. لثمت غصن الميموزا، وأنا لا أشك في وصول قبلاقي الساخنة إلى زوجتي أينما حلت.

أين أنت أخي العزيز؟ أين ستقرأ رسالتي؟ لا أعلم شيئاً عن الناس الذين سيحيطون بك، ولا عن الأشجار والبيوت التي ستسكن إليها، ولا حتى لون السماء عندما تفك شفرة رسالتي. أكتب إليك لأضم صمتي إلى صمتك، أكتب لأقلص المسافات، وأنتقل من وحدتي إلى وحدتك. نعم، الأمر الوحيد الذي تساوى به، ويفرقنا ويجمعنا في آن واحد.

كن بخير.

من بيلاطس إلى العزيز تيتوس

وجدتها.

عاد شقيقك إلى ما كان عليه. آلت الغلبة إلى المنطق. استعاد ذهني صفاءه ولم يتبق لي سوى فرض النظام في البلد.

اختفى كل ما هو غيبي. لم تعد الأحداث تتعارض مع المنطق، وإنما على العكس، صارت تساعد في فك خيوط مكيدة مراوغة، مأكرة، ذات بأس شديد، مؤامرة شرقية حتى قد تصنع سعادة أي شاعر. لم نتخلص بعد من الخطر كله في فلسطين، لكن خطر فقدان عقولنا يتزايد شيئاً فشيئاً. عندما تنهي رسالتي، ستكتشف أن لغز يشوع لم يوجد قط؛ لم تتبق سوى قضية يشوع. إنها مسألة سويغات.

أسعفني كراتيريوس بالحلّ دون وعي منه. لم يمثل لأوامر جنودي وظلّ يأكل جالساً القرفصاء وسط الباحة، بينما كان جنودي يصرخون:

«كلب ! كلب قذراً اذهب إلى قاعة الطعام إلى المطبخ». أمّا هو فقد واصل التهامه وأجابه في هدوء: «أنتم الكلاب! تحيطون بي عندما أحضر طعامي».

وصلت في اللحظة التي كان سيثبتك فيها مع بوروس، واتجهنا إلى الحمامات. كان الرخام يتضوّع بخاراً.

- أحب الحمامات، فهنا يساوى الرجال، في العري على الأقل، فلا أبواب ولا ألوان للتعالي على الآخرين.

وجد كراتيريوس بطبيعة الحال سبباً لافتعال فضيحة مؤثّبة الشباب ذوي الأجساد اللامعة المنهمكين في تمارين رياضية من مصارعة ورفع أثقال.

- مثّل الرجال الوسيمين دون معرفة كمثّل جرّار الرخام المليئة خللاً. أنتم تثيرون شفقتي! تمضون وقتكم في التمرّن لتصبحوا زُمّة وعدائيّين بدل أن تصيروا رجالاً شرفاء. ماذا سنكتب على شواهد قبوركم؟ كان مفقود العضلات؟

ثمّ هاجم صبيّاً متخفّفاً كان ينظر إلى الرياضيّين باهتمام كبير.

- ولدت رجلاً. وتودّ أن تصير امرأة؟ لماذا؟ لتفارق أزمك؟

تكلّمنا أخيراً من الحديث عندما عزلته في حجرة البخار. أعاد

على فكرة اهتمامه المتزايد بيشوع الذي كان يحسبه فيلسوفًا من الدرجة الأولى، تلميذًا لديوجين، طالما أنه كان يجوب الطرق ليثير فكر الرجال ويزعزع يقينهم.

- لقد تخلّى عن ماله و أهله مثل ديوجين. عاش رخالة يقبل الصدقات. هدم جميع العادات والأعراف، ولم يعترف بالقوانين السائدة، وجعل من الفضيلة ثروته الوحيدة. اسمع يا بيلاطس، مثلي ومثل ديوجين، اختار هذا اليهودي طريق الكلب.

- كيف تفسّر موته على صليب؟

- لا شيء، يستحقّ التفسير. الحكيم الحق لا يخشى الموت لأنه لا يمثل له شيئًا. لا يؤذنه ضميره لأنه اختفى بطبعه. يتعفن الفكر والخوف والرغبة في جثة تتعفن. علينا أن نرى الموت نعيمًا بخلصنا من كلّ أشكال العذاب، أن نرى الموت فرحة هي السبيل الوحيدة إلى الحكمة.

رويت له بقية الحكاية، اختفاء الجثة، ثمّ البعث من الموت، وظهور بشوع المتعاقب. فرغ كفيه.

- مستحيل!

- هذا ما قلت أنا أيضًا. لكن كيف تفسّر وجوده إذن؟

- بسيطة: لا يزال حيًا لأنه لم يكن قد مات على الصليب.

لم ألمس تماسكًا في وثوق كراتيريوس. ينقصه تفصيل، تفصيل

غريب. بلغشنا أصوات محتجة من القاعة الوسطى. ذهبت هناك واكتشفت مجموعة من الشبان يشتمون شيخنا، أو بالأحرى هيكلاً عظمياً يكسوه جلد مرقّل، كان يغطس في الحوض المبلط. جسده يحمل آثار حروق وقشور جروح لا تزال تحوي قيحاً. طلب الشبان منه المغادرة بدعوى تلويثه للماء بجروحه المفتوحة، لكنّ القيدوم لم يكن ينصت لهم، إذ انهمك يغطو داخل الماء القاسي البرودة.

عندها، استرجعت صورة لم تمرّ بذهني خلال الأيام الماضية، واليوم صدمتني كقبضة قويّة في بطني: عند زيارتي ضيعة يوسف الرامي، لمحت رجلاً فارغاً، شاحياً ومصائباً تحلق الخدم حوله.. ماذا لو كان يشوع؟ يشوع يتماثل للشفاء، ولم يتعرّفه رجال قيافا ولا حتى أنا ما دمنا نبحث عن جثة؟

غادرت الحثام لأفكر في هذه الفرضية وهذا ما سأكشفه لك الليلة، أخي العزيز، بعد التمهّص كلّه.

يشوع حيّ. يتحدّث. يمشي. يتنفس مثلنا لأنّه ببساطة لم يموت. لنعد إلى يوم صلبه. أرسلت ثلاثة مدانين، لصين ومعهم الناصري، إلى الجبل عند الظهيرة. كان يشوع آخر من وُضع على الصليب؛ بُتّ بمسامير بعد نصف ساعة. لكن بعد خمس ساعات، قدم يوسف الرامي إلى البلاط ليعلمني أنّ يشوع نفق وأنّ بإمكاننا دفنه. كان ذلك في صالحني لأنّ عرض الأموات طيلة أيام الفصح اليهودية الثلاثة كان ممنوعاً. أرسلت بوروس ليتحقّق من موت يشوع، فأكد لي ذلك. أعدم اللّصان الآخرين فأذنت بإنزال الجثث لدفنها.

لكن رأي طبيي قاطع: الموت بتلك السرعة غير ممكن.

شرح لي سرتوريوس أن المصلوب لا يموت من جراء جراحه رغم آلامها، ولا حتى بسبب ما تحدثه المسامير التي تثبته إلى الأخشاب من نزيف.

إطلاقاً، ليس الصلب إعداماً وإنما كرب عظيم، إذ يلفظ المصلوب أنفاسه ببطء. اقترح القضاة طريقة الإعدام هذه لأن الاحتضار الطويل يمكن المجرم من إدراك سوء أعماله. حسب رأي سرتوريوس المعجب بالتفاصيل الطبية والقانونية، فإن للصلب فضائل على الرجم الذي يمارسه اليهود. طبعاً، يمكن الرجم بالحجارة أولئك القرويين من إرضاء انتقامهم أو تنفيس ضغائنهم، لكن العملية تتم بسرعة، صدمة على الرأس تؤدي فوراً إلى الموت. لكن الصلب يعادل حرق الزاني بحياته، أو سكب الرصاص المصهور في الحناجر، رغم أن هذه الطريقة تمكن من الحفاظ على الجثة لعرضها فيها بعد. حسب خبرائنا يملك الصلب فوائد ثلاثاً: فهو يطيل العذاب ويؤدي إلى الموت ويضمن عرضاً يروع النظارة ويثبهم عن الوقوف ضد السلطة. لم يدخر سرتوريوس ثناءه على فوائد الصلب الرمزية: يعاقب المجرم بثبوت يديه التي استعملها في السرقة وقلميه اللتين ساعدته على الفرار بمسامير. باختصار، كان الصلب عادةً رومانية لا يهودية.

كيف يموت المصلوب؟ اختناقاً. يضغط ثقل جسده على ساعديه فيعصران صدره وتشنج عضلاته. ينسحق، يتنفس بصعوبة ثم يختنق ببطء.

- كم يستغرق اختناقه حتى الموت عادة؟

- في المتوسط؟ لا أدري.. يجب أن نضع النزيف في الحسبان، والتهاب الجروح، وحرارة الرأس من جزاء الشمس.. لا ننس أن سرعة احتقان الرأس والرتتين تختلف من شخص إلى آخر.. في نهاية المطاف، يمكننا القول إن المصلوب يموت عمومًا في غضون ثلاثة أيام.

- ثلاثة أيام؟

- يقال إن بعض الأشخاص الأشداء طالت حشرجتهم عشرة أيام قبل أن يسلموا الروح، لكن هذا استثناء.

- مدة خمس ساعات من الصلب لا تكفي إذن؟

- قصيرة جدًا. شهدنا أشخاصًا يتعافون إثر فصلهم عن الصليب بعد يوم كامل وتمثلوا للشفاء تمامًا، باستثناء بعض المخلفات. ربما كان هذا سببًا لابتكار طريقة كسر الساق.

بحسب الطبيب بين معداته وجلب جسمًا من الشمع مثبتًا على صليب. لم يتجاوز ارتفاع النموذج فخذي. علّق سرتوريوس الصليب على مسار في الجدار ثم أمسك بفأس.

- انظر إلى هذه الدمية التي صنعتها من أجل التدريس. يستند المصلوب على قدميه المثبتتين بالمسامير فيريخ ذراعيه من تحمل ثقل جسده. سيبقى معتمدًا على فخذه ويتنفس طالما احتفظ ببعض قواه. هكذا يتوجب قطع ساقه لو أردنا التعميل بموته.

ثم حطمت ساقَي المجثم بضربة فأس. فاكتفت الدمية المشدودة
من قبضتها المثبتتين بالارتقاء.

- يتم الاختناق بسرعة. تُكسر الساقان كتدبير أمني قبل نزع
الجثة من الصليب.

دعوت بوروس، المقاتل الذي أنيعلت بمهلتة مهمة التحقق.
روى أنه قطع سيقان اللصين الذين كانا آنذاك على قيد الحياة
ويطلقان الشتائم، لكنه لم يتر كاحلي يشوع لأنه كان ميتاً.

- كيف أمكنك الوثوق؟

- عُزز رمح في صدره ولم يتحرك.

- لم يكن ليتحرك أيضاً لو كان فاقداً للوعي فحسب.

- طبعاً، لكنّ الرمح عُزز في قلبه تماماً و كان ذلك كفيلاً بقتله.

ارتاب سرتوريوس مثلي تماماً. ليس كلّ جرح قاتلاً، خضنا ما
يكفي من الحروب لنندرك ذلك.

دعوت الجندي المسؤول إلى مُختبر الطيب. كان رجلاً من
هرسليا، قصيراً ومميناً كثيف الحاجبين.

- هل تريان ما قمت به.

أمسك الرجل الحربة وطمع الصدر. قاوم الشمع قليلاً لكنّ
الجندي غرزها بعنف، مأخوذاً بلعبة إعادة تمثيل الأحداث. تنفس
الصعداء.

- لقد غرزت الرمح بسهولة أكبر. يعني.. طعته في القلب.

حانت مني التفاتة إلى طيبي.

- ما رأيك؟

- أولاً، أظن أن القلب يقع في الجانب الآخر.

ابتعدنا ضاحكين. راح إرهاب الأيَّام الماضية يتبعثر مع كل قهقهة. كلُّها ضحكنا، زاد اعتناقي.

اكفهر وجه جنديٍّ مرسلٍيا وقد ضمَّ قبضتيه، وبدت مسحته ضيقة وجهته أصغر من جبهة فرد.

- أستطيع تمييز ميت، على أية حال

- حقاً؟ قال طيبي في مقت. كيف تميِّز شخصاً ميتاً؟ حتى أنا معرّض للخطأ إذا لم أقم بفحص شامل.

- ثق أنني غرزت رمحي بقوة. وبعحق. والدليل أن سائلاً ما قد تدقق منه.

- تدقق؟ كرر الطيب. بالضبط، الجثة لا تنزف أبداً. على أقصى تقدير، سينضج منها دم كثيف، داكن، يسيل بصعوبة لكنه لا يتدفق! نستنتج إذن أن المصلوب لم يكن ميتاً، وظننت أنك متحقق من موته.

- لكن طعنتي كانت كافية بالقضاء عليه.

- طعنة رمح لا تكفي. فُصِّر علينا بدل ذلك كيف كان جسده

عندما فصلته عن الصليب؟ هل كان ساخنًا؟ دافئًا؟ باردًا؟
هل كان ليثًا أم جامدًا؟

صار جنديّ مرسلًا قرمزيّ اللون وشره يبصره إلى الأرض.
أخذت الكلمة عن الطيب وأمرت الجنديّ بالإجابة فورًا.

- حسن... يعني... كان صعبًا علينا التفتّن إلى الأمر لأننا كنا
ننزل الجثث الأخرى في أثناء ذلك.

- ماذا! لم يكونوا جنودى الفين فصلوا المعلمين!

- لم يكن للآخرين شخص أو أسرة، بينما كان الشخص
الذي توسّطهما، الناصريّ، محاطًا بكثير من الناس تطوّعوا
للاعتناء به... ومنهم ذلك الشخص الذي زارك.

- يوسف الرامي!

- أجل، لأننا كنا على عجل...

أخي العزيز، لا يمكنني إخبارك ما إذا كنت غاضبًا أو
مرتاحًا. لعبت دور الغاضب وزججت بأولئك الرجال في زنزاة
بحصن أنطونيا، فالوالي مضطّر إلى عقاب كلّ من تقاعس عن
تنفيذ أوامره.

قد أتمت ضياع هيئي، أما عقلي فلا؛ انتابني شعور بالارتياح
بعد الفهم. إضافة إلى ذلك، عندما أقرّ الجنود بعدم لمسهم جثة
الناصرى، اتبرأ أحدهم، محتجًا وفخورًا بصنيعه، ففتح بصيرتي
أكثر:

- لقد فصلنا جثتين، أما اليهود ففصلوا واحدة فحسب، بدوا غير معتادين. احتاجوا إلى ثلاث محاولات لفك المسمار الكبير في القدمين. نحن مقدمون ولدينا خبرة مع اللحم الميت. أما هم فكانوا يتصرفون كما لو كانت الجثة تشعر بشيء ما.

تلك الليلة، علمت أنّ لي عدوًا بأرض فلسطين، عدوًا لم أرتب منه، يتلاعب بقيافا، وبها، وبالسهرديم، وبرفاق يشوع، وحتى بيشوع نفسه: إنه يوسف الرامي الذي يتوقع ويستبق الأحداث ويفسّل مسار التحقيق. كان يعلم أنّه لا يسمح بعرض أيّ مصلوب أثناء أيام الفصح اليهوديّة الثلاثة، فنوى استعمال هذه الحيلة منذ البداية: اعتقل يشوع ليلة العيد ثمّ حوكم وأدين، لكنّ الوقت لم يسمح بموته على المشنقة. ماعده أحدهم على حمل الصليب في طريقه إلى العذاب، ليُدّخر قواه دون شك، أو ليهمس له بالمخطط كلّه. بعد ساعات خمس، نظاهر يشوع بالموت ونطّ يوسف الرامي إلى البلاط لإخباري. ثمّ جرّ الرجل المحتضر رفقة شركائه وحمله إلى قبره بعناية، وخدّر عسس قيافا لكي يسترجع الجريح ليلاً. أخفاه بين خدمة ثلاثة أيام ليتعافى. ثمّ شرع في إظهاره للعبان بمقدار ضئيل لأنّ المصاب كان بعدُ ضعيفًا. لكنّ يوسف خشي موت الناصري، فكثّف اللقاءات هذه الأيام، ثمّ ذهب يخفيه في الجليل حفاظًا على سلامته وزيادة في الغموض. صحّة الناصري متدهورة، لذلك سيطلق يوسف قريبًا إشاعة مفادها أنّ يشوع سيظهر مرّة أخيرة قبل أن يلتحق بملكوت الربّ.

سوف يشيع يوسف أن يشوع هو المسيح إن لم أسبقه. لو رشح فكرة البعث في الأيام القليلة القادمة، فإن ملامح العالم ستتغير، سيقتضى على جميع الأديان الأخرى، وسوف تغمر العقيدة اليهودية البحر واليابسة. هذه الليلة، جاب رجالي كامل فلسطين للقبض على يوسف المحتال وشريكه يشوع. سيصبح ما ظننته قضية تافهة من الجليل مؤامرة تستهدف العالم بأسره...

اطمئن فقد ثاب شقيقك إلى رشده. عندما تصلك رسالتي، تكون الأمور قد عادت إلى نصابها. كلّي شوق إلى تأكيد ذلك لك. في الأثناء، كن بخير.

من بيلاطس إلى العزيز نيتوس

- أعرف سبب سيطرة روما على بقية العالم.

كان هذا ما ختم به قيافا، في إعجاب، بعدما قصصت عليه استنتاجي. ثم شربنا في سعادة نخب حلّ اللغز. بعد كؤوس عديدة من نبيذ لسبوس، ضحكنا من الفخاخ التي نصبها لنا يشوع: يشوع الخلق، الذي لم يتعرفه أحد، تعالجه النمو أمام أعيننا بينما كنا نبحث عن جثة؛ يشوع الذي ظهر في مناسبات قصيرة لأنه كان يتعافى، ومنح ظهوره المقتضب طابع معجزة. تلينا خاصة بهذا التفصيل من المكيدة: الكفن والضمائد المتروكة في الضريح. عندما قدم يوسف لحمل الجريح من قبره الزائف، طالب دون شك بأن يرتدي يشوع ملايسته كي لا يتم التعرف عليه في أزقة اورشليم؛

توقّع أيضًا أنّ أصحاب العقول البسيطة الذين سيبحثون على أشياء الناصريّ الدنيويّة سيخلصون بسهولة إلى أنّ الساحر تلاشى بغموض نحو السماء.

عادت الكتيبة الأولى من ضيعة يوسف وأقروا قراره. كان قد ترك البيت خاليًا، وترك أغنامه وكرومه لثلاث عجائز هزهنّ جنودي هزّاء يعمرنّ أخيرًا بأنّ يوسف رحل رفقة أهله إلى الناصرة ليلتحق يشوع.

أمّا الكتائب الباقية فقد جابت طرق الجليل.

الأمر الوحيد الذي اختلفت فيه مع قيافا كان تواطؤ يشوع. اقتنع قيافا بذلك ولم أقتنع أنا. كان قيافا يرى يشوع دجّالًا يقفًا، مأكّرًا وانتهازيًا، يختم رغبات الناس وضعفهم، يقوم منهجه برمتة على تعبئة غوغائية لمؤيديه. كان يعلم ثقل الاحترام اليوميّ النصارم الذي يوليه اليهود للشريعة: تنصّل بمهارة من طاعة الأحكام العمياء وأطلق شعاره: «لقد خلق السبت من أجل البشر وليس البشر من أجل السبت». كان يعلم مدى تمعّل النساء لحصرهنّ في وظيفة الإنجاب بالمجتمع اليهودي: فلامس وجدائهنّ بخطابه المستمرّ عن الحبّ. كان يعلم أنّ الرجال لا يكادون يوفّرون قوت يومهم: فمجدّ الفقر ووصمّ الموسرين. كان يعلم أنّ سكان فلسطين متعلّحون الأعراق ومتقسمون: فخلق فكرة الأخوة وتوسّع في الوعد. كان يعلم أنّ الناس يرتكبون أثمًا باستمرار: فابتكر فكرة الفجران. كان يعلم ورع اليهود وشدة تعلّقهم بتقاليدهم: فزعم

أنه لم يرسل لاستصاها وإثباتها للاضطلاع بها. كان مطلقاً على أدق التفاصيل في الكتاب المقدس: فحاول جاهداً تحقيق كل النبوءات لكي يعرف الجميع أنه المسيح المرتقب. كان يعلم أيضاً، حسب الشريعة اليهودية، لو أنه صلب قبل أيام الفصح الثلاثة فإن جسده لن تعرض على الناس: فرتب عملية اعتقاله، وعجل بمحاكمته. كان يدرك أن عليه ادخار قواه ليصمد سويماً على الصليب: فتظاهر بالمعجز وأوكل حمل صليبه إلى أحد المارة. وعلم أيضاً أن جسده سيفصل مساء: فتظاهر بالموت.

سبق أن أخبر بأنه سيعود بعد أيام ثلاثة: فاخفى عن الأنظار ثم شرع في الظهور. لم يؤمن قيافا يوماً بنزاهة الناصري ولم يتغير رأيه اليوم. لا اختلف عنه سوى في مشاعر مرتبكة. قد أميل إلى افتراض استغلال يوسف ليشوع، وإلى أن هذا الثاني قد يعلن بكل عفوية أنه حي يرزق. هل يتذكر كل شيء يا ترى؟ هل يحسب إغواءه على الصليب ميتة بعث منها حياً؟

أيمكن ألا يصدق هو ذاته أنه بعث حياً؟ ما لم أجرؤ على الإفصاح عنه لقيافا هو أن السبب الحقيقي لاعتقادي في براءة يشوع يدعى كلوديا. تستطيع زوجتي، أصيلة الأرستقراطية الرومانية، أن تميز شخصاً ذا خطيئة قبل الجميع. لكن يشوع يبدد قلبي كلوديا التي عانت من غياب الأطفال في بيتنا، وانتشلها من دموعها ونزفها، وأعاد إليها شعوراً بالثقة والطمأنينة لازلت أجني ثماره منذ أشهر. طبعاً، سداجة كلوديا أوقعتها في مهزلة البعث، لكن كيف لها أن

تقاوم إخراجًا مسرحيًا متفناً كهذا؟ ثم، من يضمن أن يشوع لم يقتنع حقًا بموته ثم بعث فيها بعد؟

صعدت إلى قمة حصن أنطونيا لأعترف للناس. لم أقصص لمسي بآثمي أقوم بعملهم. رافبت الأفق واستقصيت أدنى إعصار على الطرقات راجيًا رؤية الكتيبة التي تحمل لي يوسف ويشوع من خلال الغبار.

كن بخير.

من ييلاطس إلى العزيز تينوس
مازلت أنتظر.

في كل لحظة، كنت أخلق مبيًا لتأخر جنودي: حبيبت المسافات، الزمن الذي يستغرقه السير، التعب الذي ينال من الجياد، الوجبات والاستراحات الضرورية. لكن نفاذ الصبر عطش لا يرويه أيّ تعليل: كم أردت القفز من أعلى حصن أنطونيا، والانطلاق في الفراغ والتحليق فوق الجليل. استشطت غضبًا من رجائي. لو كنت مكاثم لركضت بكل عفوية، دون تردد، نحو الحظيرة أو الحان حيث يقبع يوسف ويشوع. لا أتحمل القلق الذي يصيب القائد: إلقاء الأوامر ومن ثم انتظار تنفيذهم في قلق عبط. كنت أفضل أن أحل مكان أحد جنودي، حتى آخر جندي في الفرقة، لأفتش الأجهات برعي، وأقلب أكوام التبن، وأتمس الفرش، وأبعثر الصناديق.

أنى فايان لبودّعني. كان سيمضي قدماً في رحلته. كان يشوع
يشير فضوله، لكنّه لم يعد يعتقد أنّه الرجل الذي بشر به المنجّمون
لأنّ علامات عديد كانت تنقصه: الدم الملكي وعلامة..

- حتّى لو تبعه اليهود النافهون بالآلاف، فإنّ هذا المسوّل لا
يطابق الملامح التي أحلها عن إمبراطور العالم الجديد.

لذت بالصمت، وعيناى شاخصتان إلى طريق الغرب، ولم
أجرؤ على الحديث عن كلوديا. أو أن أطلب منه إخبارها بمدى
شوقي إليها. بدا أنّه يقرأ أفكاري.

- أنت تفكر في قريتي، بيلاطس؟

- نعم. الأمر مضحك. لكنّ الحبّ يصينا بهاشة.

- على العكس، بيلاطس، يجعلنا الحبّ أقوىاء.

فاجأني فالتفت نحوه وتفرّست ملامحه. لم أجد الوسيم ذي
العينين البرّاقتين والشفّتين المستمتين والأسنان البيضاء القويّة،
وأنا رأيت رجلاً حزيناً، أثقلت كتفيه الأحزان المتعاقبة. لأول مرّة
لا يتسبّب فايان في غيري وعدائي، وأنا أثار شفقتي الثامّة. ثمّ كرّر:
يسنحنا الحبّ قوّة عظيمة. تبدو صلباً، متيناً وراسخاً يا بيلاطس،
ليس لأنك سباح ماهر أو فارس مغوار، وأنا بسبب حبّك لكلوديا
وحبها لك. أشعر أنّها سندك الحقيقيّ.

- لم يقل لي ذلك من قبل.

- لم يقل لك ذلك أحد لأنّ الجميع يثرثرون طوال الوقت.

بقيت مشدوهاً بنبرة المحادثة لكنتني لم أشأ مقاطعته.

- وأنت فاييان، ألا تعشق أحداً؟

- أنا؟ أنا ألط خلف جميع النساء، لكنتني لا أتعلق بهنّ. لست سوى فاسق يا بيلاطس، أي أنني رجل لا يكنّ لنفسه أدنى احترام. أحاول أحياناً استقراء نظرة الآخر. لي وسامة تجعل النساء يهوين إلى فراشي؛ فأهوي معهنّ. أروي عطشي للحبّ عن طريق الجنس. لكنتني لا أقوى على الالتزام. بعد عناقين أو ثلاثة، أتوق إلى أكثر من ذلك، أن أعريّ روحي. أفضل المشي عارياً على كشف دواخلي. شاركت في جميع ليالي روما المريبة دون أن أكشف نفسي. أنا أنت فأشعر في مقابل ذلك أنك الشخص ذاته. والسبب هو كلوديا.

ابتسمت، فخفض عينيّه.

- على الرغم من ذلك، في هذه اللحظة، أنت تحدّث بالمشكوف يا فاييان.

- إطلاقاً. الحديث بالسوء عن نفسك نوع من الحماية، ولا سيما لو وجدت الصيغة المناسبة: ستغطي عليك.

غادوني فاييان. في اللحظة نفسها التي أكتب فيها إليك، أراه مبتعداً عبر طريق السرو، عند الغروب، مستقيماً فوق جواده، وقد تبعه عشرات من الخدم يحملون حفاثه ويحميه أربعة نويمين ضخماء. باحثاً عن سلطان لا يوجد حتماً، سيجوب كامل بحرنا

دون جدوى. ينتظر من الوجود أمرًا لن يناله، كلُّ شغفه هذا الانتظار الأحمق. هذا الشغف الذي يمنعه الحياة هو كلُّ حياته. لماذا يفرغ الرجال كلُّ شيء كامل من محتواه؟ لكنني أسمع، أخي العزيز، جَلَبَة جِياد في الساحة الكبرى، إحدى الكتاب عادت. كان رجالي يتعانقون في الأسفل فرحين، يهنئ بعضهم بعضًا: تناهى إليّ أنهم جلبوا يوسف يشوع!

سأتركك فورًا. تعلم كلُّ شيء الآن. غداً ستعرف التفاصيل.
في الانتظار، كن بخير.

من بيلاطس إلى العزيز تيتوس

لقد شهدت الساعة أنفه ملهاة في حياتي. أَلتني سخرتهم مني إلى هذا الحد حتى راودتني رغبة في القتل. لا أدري ما الذي متعني؟ ربّما شيء من السخافة والازدراء، ذلك الجمود البهيج الذي يسببه الازدراء من عرض مخز.

لم يجلب رجالي سوى يوسف الرامي أمّا يشوع فلا يزال حرّاً طليقاً. أوقدت المصابيح في قاعة المجلس واستطقت يوسف الرامي.

- أين يشوع؟

- لا أدري.

- أين أخفيته؟

- لم أخفه. لا أعلم. أنا أيضًا أبحث عنه.

لم أنشأ إضاعة الوقت، فصصعت يوسف العجوز. ثم طقت حوله، بين خمسة مشاعل محترقة تبث ضوءاً أصفر مضطرباً، ثم طلبت منه أن يكفّ عن التفضيل وشرحت له كلّ ما فهمت.

استمع لي يوسف واقفاً وثابتاً، مستنداً على ساقيه النحيلتين اللتين تشركان مع معطفه القذر والمعقر في منحه منظر عجوز هرم. مدّ يده وأنكر الأمر بمرته.

- أقسم لك، ييلاطس، أنّ يشوع مات على الصليب وقد وضعت جسّته في أحماق قبره.

- طبعاً، لم أتوقع منك تضارباً في أقوالك. والآن ستقسم أيضاً أنّه بعث حيّاً.

- إطلاقاً. لن أقسم على هذا لأنني لم أره ثانية.

تدفقت الدموع من عينيه المخطّطين عروقاً حمراء على وجنتيه وتاهت في لحينه المغرّزة.

- ظهر للعديد من الناس إلّا أنا. هذا ظلم. ما أكثر ما فعلت من أجله.

لم يتمالك نفسه هذه المرة، وراح يتعجب بشدة وكفاه تهتزّان من التأثر.

- اعتنيت به حتى آخر لحظة، ومع ذلك اختار الظهور لأناس نكرات، ربّما هم من خانوه!

انزلق على الأرض وتمتد، ذراعاه متقاطعتان ووجهه إلى البلاطة الباردة.

~ يا الهي، اغفر لي زلة لساني. أنا أمتحيي منها! لكنني لا أمسك نفسي عن الغيرة! نعم! أنا أغار! سأموت من الغيرة! غُفرائك! تراجعت مرتعدًا. كان لي أن أقتل يوسف لكي يخرس، لكي يتوقف عن استغفالي، ولكي يعترف بمكيدته الميئة. انتفاضة البراءة لدى المذنبين تجعل صراخهم حادًا ونشازًا، حين ذكاء القضاة، ويصم الأذان مثل صراخ بلا فائدة لختزير يلبح.

للم رجالي العجوز والفوا به في السجن. والآن يبحث جنودي عن يشوع بطريقة ممنهجة وعقلانية. دون حماية يوسف وشبكة علاقاته، وسلطته، وخدمه، لن يستطيع الناصري الاختفاء أكثر دون شك. نحتاج إلى مزيد من الصبر، لفظ سريع النطق، وفضيلة صعبة التحقق.

لا أزال مترددًا في رفع تقرير مفضل إلى تيريوس. كان علي إخباره بمخاطر الانتفاضة التي قد تسببها قضية يشوع منذ لحظة شكّي الأولى. لكن بدائي أنّ الأمور تتضح لي كلّ يوم، وأتني أسيطر على الوضع. لن أرسل الوقائع إلى روما إلّا بعد حلّ القضية لأنّ عليّ إرسال نتائج عملي فحسب، وليس مجهوداتي أو حتّى قلقي. أخني العزيز، أنت الوحيد المطلع على مشاعري اليئة التي أرسلها إليك يوميًا.

كن بخير.

من ييلاطس الى العزيز قيتوس

من يكتب لك الآن شخص مكلوم.

لا تسألني أين أصبت يا أخي؟ حتماً ليست يدي اليمنى التي
أخطأ بها الرسائل، وليست يدي اليسرى التي تمسك الرق المفرد
على المنضدة، ولا حتى ساقتي اللتين تسندانني لأتني أكتب واقفاً
تقريباً. ضربة على الرأس؟ في البطن؟ كان لي أن أفضل ذلك دون
شك، جرح يتزف، يلتئم ثم يشفى. من الأجدر أن أروي لك
الأحداث. كان الفجر يبشر يوم باسم. لأول مرة، نمت قليلاً ثم
أقصر صباح الديك مضجع ييلاطس. نظرت إلى السماء الصافية
البيضاء التي لا تكل، رغم كل ما يحدث بها. كان سائحي الخيول
في الباحة قد سقوها ماء، وكانت الأبواب تتأهب، والحياة تدب في
حصن أنطونيا.

أعلمني أحدهم أن طبيبي يود لقائي، فقلت إنني سأوافيه
في مختبره. عندما وصلت إلى هناك، حليقاً ومعتراً، وجدت أول
مفاجآت اليوم في انتظاري.

كان سرتوريوس يفحص أحشاء إوزة.

- هل تستجيب شيئاً من الأحشاء؟ سأله في جذل.

- إطلاقاً، أحاول فهم عملية الهضم.

مسح سرتوريوس يديه لكنه واصل فركهما عرجاً حتى بعد
ما استحالتا نظيفتين. جلست على كرسيّ واستدرجته إلى الحديث.

- أعلم اهتمامك بحادثة صليب الناصريّ، فواصلت تسليط الضوء على حالته وتناولت العناصر تباعاً واستشرت كلّ الشهود. للأسف، جرّني كلّ هذا إلى التراجع عن تشخيصي السابق.

- إلّا ثمّ رمي؟

- من الممكن، أو من المحتمل، أو حتّى من المرجح جدّاً أنّ الناصريّ قد قضى نحبّه على الصليب.
كان يهرش رأسه كأنّ شكوكه تحكّه.

- ذلك اليوم، لم تكن كلّ المعطيات بحوزتي، وهذا ما قادني إلى المغالاة في تقدير صحّة الناصريّ. بادئ ذي بدء، لم يكن قد أكل شيئاً منذ يومين وذلك ما تسبّب في إضعافه. ثمّ، رأسه كان يتمرّق دماً ليلة اعتقاله في جبل الزيتون، وقد لاحظ هذه الظاهرة تيموقراط، زميلي الإغريقيّ الذي اعتبر التمرّق الغزير أحد أعراض مرض عضال. استنتجت أنّ الناصريّ لم يكن بصحة جيّدة قبل محاكمته. لكن يوجد أمر آخر أخفوه عنيّ ذلك اليوم، وهو أنّ الرجل قد جُلد وعُذّب قبل اقتياده إلى تلة الجلجثة.

- لا يموت الناس من أثر السوط ! صحت عتجاً.

- بلى ! والدليل أنّ المجرم ينزف الكثير من دمه، وتقطع عضلاته. أكّد لي مقاتلوك أنّهم في العادة يجلدون المحكوم

عليهم بالموت فوق الصليب حتى يلفظوا أنفاسهم سريماً.
- لم أجلد يسوع لكي يموت وإني لكي أجنبه الموت. ظننت أن
هذا سيكون كافياً لإرضاء الناس.

- من وجهة نظر طبية، فإن النتيجة واحدة. لم يقو الناصري على
حمل عارضة الصليب العليا حتى جبل الرأس، وحملها عنه
شخص آخر. قبل جنودك بعرض هذا اليهودي خشية أن
يصل المدان ميتاً إلى ميدان التعذيب. في هذه الحالة، تضافر
نزيف القبضتين والقدمين وبضع ساعات من الاختناق
للإجهاد عليه.

- والدم؟ الدم الذي تدفق عندما غرز الجندي رمحاً؟ لا يندفق
الدم المتخثر من جثة أبداً!

- بالضبط، حصلت على توضيحات إضافية جعلتني أراجع
تشخيصي بصفة مختلفة. حسب يوحنا، ذلك التلميذ
اليافع، وحسب الجنود الذين كانوا أسفل الصليب، فإن ما
تدفق خارج الجثة كان مزيجاً من دم وماء. يرشدنا هذا إلى
أن الحربة أصابت الغشاء الصدري، ذلك التجويف الذي
يحوي سائلاً شفافاً. عند انعطاره، اختلط السائل بقطرات
دم داخل جسد ميت. إضافة إلى ذلك، لنفترض أن الرجل
كان يحتضر، فإنه كان للطحنة في ذلك الغشاء أن تقتله حتى.
في الواقع، بعد كل هذا، أنا مضطر إلى الجزم بأن الناصري
لفظ أنفاسه عندما فصل عن الصليب.

- حسن يا سرثوريوس. كيف تقتر إذن أنه اليوم بحيا، يتحدث ويمشي؟ عن طريق البعث؟

- لا تنتمي فكرة البعث إلى قاموسي الطبي.

- إذن، ما دمنا لا نؤمن سويًا بفكرة البعث، فحتى لو تأكد لي أن يسوع مات على الصليب، فإنه لم يموت مادام حيًا يرزق.

غادرت المختبر دون كلمة مني أو نظرة إلى الطبيب. تخلص من شكوكه ولم يبهزني، وإنما نجح في إزعاجي.

ثمة من جاء يعلمني أن يوسف الرامي يود لقائي في زمراته ليعترف لي ببعض الأمور. أنعشني الخبر: أخيرًا سنمسك بيسوع.

ألقيت يوسف في هدوء غريب. ابتسم لي ما إن رأي، وأخبرني أنه كان يود كشف الحقيقة كلها، لكن لديه شرطًا: أن نذهب إلى المقبرة.

لم أتبين فتحًا أو حيلة. كانت نظرتي صافية، وكان الشيخ المسن يتنفس في اطمئنان، مثل رجل سيكشف كل أسرارهِ التي تسمم بدنه. تركته يتقذ رغبته.

وصلنا أمام ضريح يسوع محاطين بعدد قليل من الحرس.

- حسن، نكلم يا يوسف.

- لندخل الضريح. هناك، سأريك الأمرين اللذين وددت كشفهما لك.

بإشارة واحدة، أمرت رجالي بدحرجة الصخرة. هل لديّ ما أخشاه؟ ربّما كان يوسف يؤدّ الإشارة إلى كؤة في الأرض، ممزّ سريّ سمح ليشوع بالاختباء أو بالفرار؟ كان فضولي قد بلغ أشده. أمسكت يد يوسف الهرمة الجائقة بفراعي وولجنا المدخل. كان خائفًا أكثر منّي.

هناك، طلب إغلاق الصخرة الصوّان. تردّد رجالي، فألقيت الأوامر بنفسي. تحفّزت العضلات مجدّدًا، وسمعتاهتأسيه الإجهاد، وبعض السباب، ثم حلّ الظلام. كنّا بعفردنا داخل الضريح المسدود. قاذني يوسف، وهو يتحنّس طريقه في الظلام، إلى داخل المدفن وأجلّني. نضوّعت في الظلام رائحة طازجة ومدوّخة. استندت إلى الجدار الصخريّ البارد منتظرًا اعترافات يوسف.

- لم أتوقع قبرًا بهذه الرائحة الزكية.

- أليس كذلك؟ هناك مائة رطل من المرّ والألوة، هدية من نيقوديموس، الذي تعرفه دون شكّ، عالم الفقه. لقد وضعه مساء صلب يشوع.

- حسن، تكلم يا يوسف، كلّي آذان صاغية.

لم يردّ يوسف.

- ما الذي سترمني إياه؟

لم يجب يوسف أبّما.

أكان البرد؟ أم الرطوبة؟ أم الشعور بالحبس؟ ألم يهي شعور بالغثيان.

- يوسف، قل لي لم جئت بنا إلى هنا؟

- لإقناعك بموت يشوع.

تحدث يوسف بصوت خفيض لأنه كان يتنفس بصعوبة.
تسارعت دقات قلبي وصرت أبحث عن الهواء.

- هيّا، تكلم بسرعة. هذه الرائحة لا تُحتمل! لن أصمد طويلاً..

مررت بيدي على جيني فوجدته مكسواً عرفاً وصرت أرتجف.
ما الذي كان يحدث؟

- يوسف، كفى! ماذا نفعل هنا؟

- عليك أن تحزّر بنفسك...

صار صوته لا يكاد يسمع، نفساً أبع على وشك الانطفاء. ثم
صدرت ضجة مكتومة لسقطة ما.

استقيمت. شعرت بشيء ساخن ولّين تحت قدمي. تجاوزته
وصرخت برجلي عبر الجدار أمراً بفتح الضريح.

دون انتظار، اقتربت من شعاع الضوء الوحيد لانتفّس هواء
أنقى، ثم صرخت مجدداً على حافة الانهيار. صرت أصمّ واكتشفت
أنه لا حياة لمن تنادي. لقد وقعت في فخّ. صرخت وصرخت..
أخيراً، اتسع شعاع النور وشرعت الصخرة في التدحرج. بلغتني
زقزقة العصافير ومباب رجالي، ورأيت ما في الكروم المزهرة من
نور أخضر وأبيض. وثبتت خارج الضريح وسقطت على العشب.

ذهب رجالي لإحضار يوسف، تلك الكومة المغشي عليها التي سقطت عند قدمي، ومدّوه حذوي. ثم رشونا بماء من قُرْبهم.

عندما نُبِتُ إلى وعيي، قلت لنفسي: كم أحب انشغال رجالي عليّ، بوجوههم المألوفة التي تزيل ابتسامتها كلّ قلقي.

استغرق يوسف زمناً أطول ليعود إلى وعيه. أخيراً ألمحت عينيه الزرقاوين، اللتين بيّضتهما صروف الزمن، تفتحان من جديد نحو السماء. التفت إليّ.

- إذن، هل فهمت؟

كنت قد فهمت. لقد خلقت التوابل والعطور، المُرّ والألوة، وقد وضعت في القبر لتطهير الفقيد ومرافقته، جَوْاً خائفاً وقاتلاً. ما كان يشوع، سواء وهو في صحّة جيّدة أو مختضر، ليقدّر على النجاة في هذه الحجرة المسمومة.

أسندنا رجالي، ثم وضعونا قرب النافورة في ظلّ شجرة التين. لم أصدّق عرض يوسف بعد. من يثبت لي أنّ هذه الهدايا لم توضع في قبر يشوع بعد رحيله؟ أو لحظة إجلاله؟

قرأ يوسف ما على وجهي من شكوك.

- أقسم لك أنّ نيقوديموس وضع هديته قبل أن نودع الجثّة القبر.

لم أفتنع. لا يتعدّى الأمر شهادة واحدة. في ظلّ قضية يشوع هذه، نقفز من شهادة إلى أخرى. لا يوجد أمر أكثر هشاشة من

شهادة. كيف نثق بمصداقية مجموعة من اليهود أرادوا من البداية أن يكون يشوع مسيحهم المرتقب؟

ابنسم لي يوسف وبحث بين طبّات ثيابه عن رقّ معقود بشرط أعرفه جيّدًا، حيث رشق غصن ميموزا. ارنجفت. لقد أودعته كلوديا بروكولا هذه الرسالة لي.

- من تصدّق؟ ومن لا تصدّق؟ ييلاطس الطيّب، أعلم أنّك لن تصدّق سوى شخص واحد. اقرأ إذن.
فردتُ الرسالة.

ييلاطس،

وُجدت أربع نساء أسفل الصليب. مريم الناصرية، والدته. مريم المجدلّة، المحظية السابقة التي أحبها يشوع لطيفتها وذكائها، وسالومي، والدة يوحنا وياكوب، من الأتباع. أخيرًا، المرأة الرابعة كانت زوجتك يا ييلاطس. لم أجرؤ على الاعتراف لك أو للآخرين: كنت متخفية تحت طبقات عديدة من الحرير لكيلا يتعرّف إليّ أحد. أوكد لك أنّ يشوع كان ميتًا ذلك المساء لأنني لغقت جسّه الباردة المتصلبة بكفنه. كم بكيت يائسة. كنت غيبة لأنني لم أؤمن به الإيمان الكافي. أمّا الآن فقد بزغ النور. التحق بي على طريق الناصرة.

أحبك.

كلوديا حبيبتيك.

من بيلاطس إلى تينوس العزيز
مر يومان دون أن أكتب لك.

اعتزلت كل شيء، حتى فكري. تعبُّ المشاعر رأسي دون أن
تتوقف هناك، ولا تأخذ وقتاً لتستطوِّر إلى أفكار أو تتجفَّر في صيغ
ما. أوراق نافقة يهزّها الريح.

أنا محتجز بين الصمت والصَّمم. ليس لي سوى اللامبالاة تجاه
كل ما يقال لي، وما يوصف لي، وما يطلب مني. أعرف عدم اكتراث
المحيطين الذين لا يقدروا شيء على مفاجاتهم، لكنني أجهل هذا النوع
من اللامبالاة الذي أصابني، ذلك الذي يصيب شخصاً مصدوماً
فوجئ بعنف شديد مرّة واحدة حتى صار لا يرغب في أيّ مفاجأة
أخرى. يبدو لي العالم خطيراً جداً حتى إنني رغبت في اعتزاله.

لا يشدني هذا الرجل المعجزة، واليوم أقر بأن قضية يشوع
ليست أحجية فحسب وإنما هي لغز غامض. لا يوجد شيء أجلب
للأطمشان من أحجية: إنه مشكل في انتظار حلّ. أمّا اللغز فلا شيء
يبعث على الخوف أكثر منه: إنه مشكل لا حلّ له. يبعث على التفكير
والخيال.. لكنني لا أرغب في التفكير. أريد أن أعلم، أن أعرف.
ولا يهمني الباقي.

أني كراتيريوس ليتاول غداه معي. كان يأكل في شراهة
ويقدّز حتى تحاله يقدّي قدميه وقمه على حدّ سواء. عندما شرع
بمحدثني عن يشوع، طلبت منه تغيير دقّة الحديث. تجشأ وجلس على
مكتبي، فخذاه منفرجتان وخصيتاه تتدلّيان.

- بلى، بلى، حرصت على إخبارك بأنني اهتمت به أول مرة عندما نقلت لي كلوديا بروكولا خطابه، سيده رائعة، أين هي؟ أنت لا تستحقها. لكنه خيب ظني أخيراً. نحن، الفلاسفة الكلبيين، نكافح ضد الآلام؛ لكنني أشعر أن يسوع يثني عليها. يمنحها شيئاً من المجد، ويراها وسيلة للتكفير. في الواقع، يسخر تماماً من السعادة الدنيوية، ويذكر نوعاً مؤجلاً من السعادة في ملكة بلا حدود، بعد الموت. التبس علي الأمر! أشك في أن يسوع أقرب إلى ملاك منه إلى دابة. عوض أن يستكين للطبيعة مثل معلنا ديوجين، فإنه يحاول بسخافة أن يحولنا إلى أرواح. أخذه الغموض، فالتخذ لها فوق الغيوم وتطاول على حدود الفلسفة. وبالمختصر عندما يتحدث عن الحب. لقد صدمت. هي المرة الأولى التي أسمع فيها فيلسوفاً يتحدث عن الحب. خطأ شنيع! لا يؤسس الحب لشيء. لا ينتمي الحب إلى ميدان الفلسفة. لا ينبثق مفهوم الحب هذا من أي منطق أو تحليل. أرفض أن يؤسس يسوع لأي شيء انطلاقاً من هذا.

لأول مرة تدور علي لعبة السؤال والجواب لأن وثوق كراتيريوس أزعجني.

- وبها هذا ما يجعل خطابه مدعاة للاهتمام! حديثه عن الحب! عندما أرى أين أوصلك المنطق وحده، فأني لا أرى شيئاً يدعو إلى الفخر، أليس كذلك؟

- لكن يلاطس، ماذا دهاك؟

- أنت ترهقني، كراتيريوس، أنت محال! تتحل دور الحكيم وأنت لم تمد يد المساعدة لأحد، ولم تمنح إلى أحد حتى بفلس، لم تبسم لأحد، ولم تمنح أحدًا أسباب الراحة والاطمئنان. أنت ترثر وترثر، ولا يتجاوز عملك الضجة التي تأتيها! أفكارك الموجهة إلى الآخرين لا تهدف إلى غير صدمهم؛ وعندما توجهها إلى نفسك، فإنها تهدف أساسًا إلى إبراز حجم ذكائك. لا طائل منك! أنت مثل أينا مثل روما! لا تفكر سوى بنفسك، لا تتحدث إلا عن نفسك، لست أكثر من فقاعة!

نظ كراتيريوس من الطاولة وصرط.

- أخيرًا! سعيد بخروجك من قوقعتك يا يلاطس: خلعتك ميتًا.

- كراتيريوس، لا تتظاهر بالسيطرة على الموقف ولا بإثارة غضبي! وإذا رمت الحديث عن يسوع فأجب على السؤال الأساسي: هل بعث حيًا، نعم أم لا؟

وضع كراتيريوس يده الضخمة على جيبيني.

- يا ليلاطس المسكين، لقد طال مكوثك بفلسطين: لقد غلبتك الشمس.

- هل بعث، نعم أم لا؟ أهو حكيم فحسب أم هو ابن الرب

حقًا؟ هل هو المسيح؟

فوجئت بأنني كنت أصرخ، على وشك البكاء، غير مسيطر على نفسي. قال كراتيريوس، وهو يهرش خصيته اليسرى في اهتمام:
- لا أحد عاد من الموت.

لم أمسك نفسي عن الصراخ في وجهه:

- كيف تعلم مسبقًا ما هو صواب وما هو خطأ؟ ما هو ممكن وما هو مستحيل؟ هل تظن نفسك عليًا بكل العالم من حولك؟ قبل أن تخلق، من كان يتصور وجود شخص منقر لا طائل منه مثل كراتيريوس؟

ثم غادرت القاعة دون التفاتة مني إلى فيلوف طفولتنا.

أعمت تجهيز حقيبة للسفر؛ استلقت معطفًا للرجل؛ ما إن أنهيت هذه الرسالة، حتى أرحل باحثًا عن كلوديا في طريق الناصرة.

لا أعلم إن كنت أستطيع أن أكتب لك مجددًا. سألتزم بذلك حالما أستقر بأحد الخانات.

لا أعلم ما لذي يتظرن هناك حيث أذهب، لكنني ذاهب وهذا مؤكد. كن بخير.

من بيلاطس إلى تيتوس العزيز

لست سوى شخص يمشي ضد الآخرين. إلى هذه الساعة، لم أعر على كلوديا ولم أعرف شيئاً جديداً. كل يوم، تكتظ الطرقات بمزيد من الراغبين في رؤية ابن الجليل.

كلما عبروا قرية، يتوقف الحجاج عند النافورة ويكررون القصة نفسها: ظهر يسوع لأتباعه الأحد عشر. ظنوه مشوّلاً أولاً مرة، بمناسبة اجتماعهم على غداء. دفعهم وفاوضهم لواجب الصدقة إلى دعوته لتناول الطعام معهم؛ جلس المنتشرد إلى الطاولة، شطر أرغفة الخبز ومنحهم إياها؛ عندها تفتحت العيون وعرفوه.

لم يكن أصحاب الخانات مستعدين لهذا الإقبال الكبير، ولم تف الغرف بالحاجة، فنصبوا مساند من القش في الباحات. فضلت النوم بعيداً، في الحقول، في ضوء النجوم الصامتة، لكيلا يتبه إلي أحد. إلى لقاء.

كن بخير.

من بيلاطس إلى تيتوس العزيز

ما من جديد، أخي العزيز، سوى لحية نامية تمكنتني من الجولان في سرية أكثر. لكنني لا أتوهم كثيراً في خصوص إمكانية تحولي إلى يهودي: إضافة إلى ساقتي الخليقتين الناعميتين اللتين تكشفان رومانيتي، فإنني أعلم أن كل أمة تترك أثراً لا يُمحى على ملامح الوجه، وتشكل اللغة الفم أكثر مما فعله الأسنان؛ وتجعل العادات

الغذائية البشرية لينة أو جافة؛ وتخلق الأعراف والتقاليد نظرات جراءة أو استحياء، نظرات ثابتة أو قلقة؛ وحتى السماء فهي تشكل لون العيون التي خلقت في رحابها. أشعر بألم في رقبتني من فرط المشي مطأطأ الرأس وبسبب الفلنسة. يتألم عنقي وقدمائي على حد سواء.

الغريب في الأمر أنني كنت أراني غريباً بين الحجيج عند انطلاقنا من أورشليم، واليوم أشعر أنني أقرب إلى الآخرين. ليس زوج نعلي وحده يبلى على طرقات الجليل الوعرة، وإنما ذاك الشعور بالتفرد أيضاً. أمر ما يقرّني إلى رفاق الرحلة، لا أعرف حقاً كنهه. هل هو السير، العطش أم البحث. أم ببساطة، الإرهاق.

كن بخير.

من بيلاطس إلى تيتوس العزيز

مازلت أمشي.

أحياناً، لا أثق بأنني على موعد مع كلوديا، وأضطر إلى تذكّر رسالتها لأستجمع قواي. أنا متأكد من أن الأمر نفسه يحصل مع الحجيج الآخرين. أين يتجهون؟ لا يعلمون؛ حيث سيحلّو ليشوع الظهور. لماذا يذهبون إلى هناك؟ يجهلون ذلك أيضاً؛ يدفعهم أمر غريزي، عطش الروح التي تريد أن ترنوي من منبع حقيقي. هل دعاهم أحد؟ لا أحد دعاني إلى ذلك لأنّ يشوع بلغ الجميع رسائله؛ وحده الإيمان يمنحك الحق في أن توجد هنا.

عاصفة غربية أثارَت الغبار في وجه الشمس.

هذا الصباح، اقتربت مني امرأة عندما توقفت لأمنع شوكه
حادة من ولوج جلدي الناعمة أسفل أصابع قدمي.
- دعني أغسل قدميك.

جئت على ركبتيها قبل أن أتمكن من الردة عليها، وسكب الماء
على أطراف المجروحة وشرعت تفركها بلطف. شعرت فوراً براحة
تامة. ثم مسحها بمنشفة نظيفة، ونفخت نعلي من الغبار ثم ربطتها
مجدداً. لم أتبين منها سوى شيء من شعرها الفاحم الجميل المغطى.
- شكراً أيتها الجارية.

منحتها قطعة نقدية جزاء صنيعها. رفعت وجهها نحوي
فاكتشفت أنها مريم المجدلية، المحظية السابقة، إحدى النساء اللواتي
كن يبعن يشوع، وربما الأولى التي حظيت بظهوره.
- لمست من العبيد.

ابتسمت ولم يبدُ عليها استياء.

- اغفري لي إهانتك.

- لم تُنهني. إذا كانت ماعدة الآخرين عنواناً للعبودية فأفضل
أن أكون عبداً. كان يشوع يغسل أقدام رفاقه بنفسه. هل
تخيل، أيها الروماني، إلهنا يحب الرجال حباً يجعله يبحث على
ركبته لغسل أقدامهم؟

لم تنتظر ردي، ابتسمت ونهضت.

- أسرع يا بيلاطس، زوجتك تنتظرك في شوقي. هي إحدى
المحظوظات اللواقظ ظهر لمن الرب.

- أين هي الآن؟ كيف أجعل إليها؟

- ليس مهمًا. ستعثر عليها عندما تكون جاهزًا. تعلم جيدًا
أننا لا نخوض هذه الرحلة على الطرقات فحسب، وإنما في
أعمقنا أولًا.

ثم اختفت.

تيقنت من مواعدي. أذهب حيث تأخذني خطواتي. أمل أن
تكون قدمي أوفر مني ذكاء.

نفذ الخبر والرقى اللذين منحني إياهما مالك الحان، لذلك
أتركك راجيًا أن تكون بخير شقيقي العزيز.

من بيلاطس إلى العزيز تبتوس

توافد الحجيج من كل فج، مثل الجداول التي تلتحم بالنهر
وتوسعه.

الأحاديث نفسها، الطرائف نفسها، والأمال نفسها يتقلها التيار
من شفاء إلى شفاء.

كل يوم أشعر بالمزيد من طاقة هائلة ورائعة، تحت سيول
السائرين. هذه القوة التي تجعل عيونهم صافية ورؤوسهم شاحخة
وتزيل التعب عن أقدامهم هي لعمري ذاك الخبر السار. بدأت أفهم

ما يرمون إليه بالخبر السار. يعتقدون أنَّ عالمًا جديدًا بدأ يوجد، تلك المملكة التي تحدث عنها يسوع، لقد استأثرت من هذا اللفظ «مملكة». فأنما مثل أي رومانٍ عملي، مهتمٍّ ومسؤول، كنت أتصورها فلسطين واتهمت يسوع بالرغبة في مواصلة عمل هيرودس الأكبر، أي إلغاء التقسيم إلى أربعة أقاليم، وتوحيدها، وطردنا، والترجيع على عرش واحد. ثمَّ فكَّرت مثل كراتيريوس أنَّ يسوع كان يتحدث عن مملكة خيالية، عن أرض توجد بعد الموت، مثل حاديس عند الإغريق، وعدًا بالخلاص. أخطأت مرَّتين. يتعلَّق الأمر في الواقع بمملكة في متهى الحقيقة وبمجردة في آين واحد: هذا العالم مستغیره كلمة الرب. لن يتغير في ظاهره، لكنَّ الحبَّ سيغمر باطنه. كلُّ إنسان سيعرف طريق التغير بمفرده. لن توجد المملكة إلَّا برغبة الناس فيها. إذا سقطت البذرة على أرض خبيثة فستجف وتُموت. أمَّا إذا وقعت على أرض طيبة فستنمو وتؤتي أكلها. لن يكون لكلام يسوع معنى إلَّا عند تبليغه. لن تتحقّق رسالة الحب التي أتمى بها يسوع إلَّا عندما يرغب الإنسان في الحب.

لم أعمل فكري بعد أخي العزيز. سأبدي رأيي فيها بعد. لكنني أقدر أنَّ يسوع هذا لا يقدم شيئًا دون منح مخاطبه مسحة من الحرية. فرق كبير بينه وبين الكهنة الذين يعطرونك عقائد، والفلاسفة ومنطقهم، والنحويين وبلاغتهم. لا يفرض يسوع شيئًا، ولا يفكر، ولا يقتنع. يطلب حضورًا باطنيًا فحسب، بوابة نفتحها برفضنا، وعليه، يبلِّغنا رسالته التي تقدّم فرصة حياة جديدة. كلُّ شيء في نعومة فائقة.

لا أحيّاز من كلوديا. أحيّانًا، يتملّكني الذعر. لا أدري مني
تصلك رسائلي.. تقبل فيها شكوكي وشطحاتي وحناني كلّهُ.
كن بخير.

من بيلاطس إلى العزيز قيتوس
لا جديد بعدُ.

استيقظ شروقًا وأنا م غروبًا. وأسير فيها بيتها. يتّجه حشدنا
تارة إلى الشرق وطورًا إلى الغرب، يصعد وينزل. تحرّكاتنا بلا
جدوى، لكنّ الإرهاق ينسينا ذلك كلّ ليلة ويملؤنا النعاس أملًا.
في الواقع، لا أحد يعلم أين سيعاود يشوع الظهور. أمّا أنا
فأجهل أين تنتظري كلوديا.

كم مرّة لاحظت، أثناء استراحة ماء، وجود رسوم لمكات
محفورة في الرمل. لم أعرها انتباهًا أول الأمر، ولكن عندما لاحظت
أنّ الرسم يتكرّر بانتظام ويتكاثر في شكل حجرات مرصوفة
أو صدقات، ساورني شكّ في أنّ الأمر علامة ما. أخفيت لكتني
الرومانية ما استطعت، وطلبت من سيّدة تحمل عقدًا به سمكة عن
مغزى ذلك.

- ماذا؟ ألا تعلم؟ إنّها علامة يشوع. إنّ كلمة «حوت»
بالإغريقيّة تكتب حل نحو تشكّل فيه حروفها الأولى عبارة
«يشوع المسيح ابن الربّ المخلص». نحن نستعملها كإشارة
إلى الانتهاء.

فَكَثُرَتْ بِفَايَانٍ.. فَلَمَلِكِ الْعَالَمِ الْمُنْتَظَرِ الَّذِي يَشْرِيهِ الْمُنْجَمُونَ،
حَسَبَ قَوْلِهِ، عِلَاقَةً بِبَرْجِ الْحَوْتِ. هَلْ كَانَ لِفَايَانٍ أَنْ يَفْرُطَ فِي
الْوُصُولِ إِلَى يَشُوعَ لَوْ فَهَمَ حَقًّا هَذَا الرَّمْزَ السَّرِّيَّ؟
كُنْ بِخَيْرٍ.

مِنْ بِيَلَاطُسَ إِلَى الْعَزِيزِ تَبَشُوسَ
لَمْ أَجِدْ كَلُودِيَا بَعْدُ، لَكُنْتِي أَمْلِكُ الْإِجَابَةَ عَنِ السُّؤَالِ فِي رِسَالَتِي
السَّابِقَةِ.

جَلَسْتُ لِأَنْصِبَ خِيَمَتِي عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ، وَخَلَعْتُ فَلَنْسَوَتِي
مِنْ فَرَطِ الْحَرِّ، وَإِذْ بِيَدِ تَرْبَتٍ عَلَى كَتْفِي.
- بِيَلَاطُسَ الطَّيِّبَ، لَمْ أَتَحَيَّلْكَ مَلْحَجًا قَطُّ.

حَقَّقَ بِي فَايَانٌ، قَرِيبَ كَلُودِيَا الْوَسِيمِ، بَوَاجِهُ رُومَانِيٍّ مُشْرِحٍ
شَبَعَ نِسَاءً وَلَحْمًا. لَمْ يَنْتَظِرْ رَدَّةَ فِعْلِي وَأَقْعَى قِبَالَتِي، أَمْرًا خَدَمَهُ بِتَقْيِيدِ
الْجِيَادِ فِي الْحَقْلِ الْمَجَاوِرِ.

- يَا خِيْبَةَ الْمَسْمَى! اعْذِرْنِي يَا بِيَلَاطُسَ، لَكُنْتِي أَظُنُّ أَنَّ كَلُودِيَا
وَضَعْتَنَا عَلَى الطَّرِيقِ الْخَطَأَ. يَشُوعُ هَذَا مَلِكٌ؟ لَا يَقْدِرُ عَلَى
هَمَلٍ حَرَبِيٍّ، أَوْ قِيَادَةِ جَيْشٍ. بَلَلُ الْإِفَادَةِ مِنْ سَدَاجَةِ شَعْبِهِ
وَتَصْدِيقِهِمْ لَهُ، هَا هُوَ يُلْفَى الْغُمُوضِ، يُقَلُّ مِنَ الظُّهُورِ
وَيَعْلَنُ الْآنَ رَحِيلَهُ الْوَشِيكَ! يَا لَهُ مِنْ تَنَاقُضٍ! يَا لَهُ مِنْ إِهْدَارِ
لِلْقُرْصِ! وَتِلْكَ الْعِبَارَةُ الْغَبِيَّةُ، أَجَلْ، أَجَلْ، لَقَدْ قَالَهَا، كَيْفَ

كانت؟ «أحبّ قريبك كنفسك، وحتىّ عدوك أيضًا». غير معقول! غير منطقي! لا يكون الملك ملكًا إلا عندما يكون له أعداء ينتصر عليهم فيمجدونه. إنّ الملك لا يشعر بالحبّ! مطلقًا، ليس لهذا الفنّ حتىّ أيّ مسجل سياسيّ.

كان فايان مقتنعًا بأنني لن أوافقه الرأي، فنهض.

- سأرحل للبحث في ربوع بابل. يتمتع الناس هناك بسعة مقاتلين أشداء. ربّما يخرج منهم الملك الذي يشر به المنجمون.

نفض الغبار عن رداءه، ومن شدّة وثوقه بخياره الصائب، لم أنكبّ عناء إخباره باكتشافي في خصوص علامة «الحوت».

- سررت بلفياك في الجوار يا بيلاطس. لن أقحم نفسي فيها لا يعني، لكن سيكون من حسن حظّك ألا تنتشر أفكار هذا اليهودي. إنّّه يدعو إلى منظومة أخلاقيّة خطيرة، قد تقوّض توازن عالمنا لو قدر لها الانتشار: يزعم أنّ الناس كلّهم سواسية. هل تسمع يا بيلاطس؟ هل تعي ذلك؟ لا فضل لأحد على غيره! هذا يعني أنّه سيلغي الرقّ! تخيل لو أنصت له الناس، قد يتسبّب في ثورة، ويقلب كلّ شيء رأسًا على عقب، ويصير سبارتاكوس الناجح. لأنّ نقطة ضعف سبارتاكوس كانت بقاءه عبدًا ليحرّض العبيد الآخرين، أمّا هذا اليهودي الحرّ فيخطب الناس جميعًا ويزعم أنّه سيحطّم القيود كلّها. احترس يا بيلاطس! راقبه! احبسه!

- سبق لي أن صلبته. ما الذي يمكنكني فعله؟

حدّثني يا فايان طويلاً. كرّر جوابي في ذهنه وحاول إقناع نفسه
بأنه سمع جيداً ما قلته، ثم برق في عينه شيء من شفقة ممزوجة
باستياء. ثم انفجر ضاحكاً.

- هم تهذي يا بيلاطس؟ لقد قابلت الرجل ليلة أمس. لم يكن
صلباً ولم تقو ساقاه على حمله. كانت له جاذبية أمّا الصحة
فلا.

- هل تحدّثنا؟

- بطبيعة الحال.

- إذن؟

- لم أفتح.

أشار فايان إلى رجاله إيلدانا بالرحيل. لم أمتلك نفسي عن
الصراخ:

- فايان، لا تقل إنك تحدّثت إلى شخص عائد من الموت!

لم يطرّف لفايان جفن. ركب جواده وتأمّلتني في أسف.

- إطلاقاً يا بيلاطس، هل تؤذ إقناعي بأنك تصدّق هذا أيضاً؟
طالت إقامتك بفلسطين دون شك. قطعاً القوّة للرومان،
الفكر للأغريق، وللبيهود الجنون..

وخّر جواده واختفى. لم يتسنّ لي الوقت لسؤاله عن مكان

كلوديا. لكن لعلّي لم أَرِد معرفة ذلك عن طريقه. هل ازددت تعقيداً
أم صرت أكثر بساطة؟
كن بخير في الأثناء.

من بيلاطس إلى العزيز قيتوس
لا أدري أيّ اضطراب في النسيم جعلني أشعر بأنني أقرب
من هدي.

منذ الصباح، كنّا نتبع الغيوم التي صبغت السماء حبراً ثمّ
ادهمت، انتضخت، تراكمت واتجهت صوب جبل تابور. وكان
الحشد يتعرّج عبر المنحدرات في صفّ قائم. عند تجاوزنا القفة
الأولى، علمنا أنّ أتباع يشوع الأحد عشر يسبقوننا. علينا أن نسرع.
تدافعت الغيوم في السماء ملأى حدّ الانفجار، يتصوّع منها نور
داكن، العاصفة آتية.

ثمّ حلّ صفاء كبير، وشقّ الغيوم سيفٌ لامع صقيل وخبطُ
الجبل. سقطت الصاعقة في الأعلى، في باطني كانت فكري: متأخّر
جداً.

هطلت علينا قطرات ثقيلة، غزيرة ومترافعة. اختبأ البعض تحت
الصخور، وواصل البعض الآخر السير وكنت ضمتهم. عندما بلغنا
المنحدر الأخير، ألفينا الجبل يلفظ الأنباء.

كدت أخطئ في التعرف إلى رفاق يشوع. اختفى أولئك الجبناء

المدعورون وحلّ مكانهم رجال أقوياء، أشداء تنضح ملامحهم صحّة
وبهجة. حلّوا قبالنا وغمرونا بالقبلات. كانوا يتكلّمون في الوقت
نفسه معاً، مسرعين، متحمّسين، تناب الكلمات على شفاههم في
سر:

- لقد انضمّ إلينا يسوع في مخبئنا بالزريرة عندما كنّا نقاسم
الحبّز والبيذ كما علّمنا. سألنا مرّات عديدة ما إذا كنّا نحبه
كانت في سؤاله مسحة من قلق، كأنّ دعوته ستذهب سُدى
لو أجبنا بالنفي. كان أقلّ دعة من ذي قبل، وتغيّرت حاله
من الرقة إلى الغضب، وصوته يرتجف مثل أصدقاء يتبادلون
الوداع الأخير. عندما طمأنه سيميون، وكرّر على مسمعه
مرّتين أنّنا نحبه، أشار إلى قطيع من الغنم حولنا في الجبل.
«اعتنوا بنا جيّـي. سأقول لكم كلّ شيء: عندما كنتم يافعين،
كنتم تشدّون أحزمتكم بأنفسكم وتذهبون آتّى تشاوون؛
لكن عندما تهرمون، ستمدّون أياديكم، ليأتي شخص ما
ويربط أحزمتكم ويأخذكم إلى مقصدكم».

لم نفهم مغزى كلماته. سندرك ذلك يوماً دون شكّ، ككلّ ما
سبق أن قاله لنا، وذلك عندما نزداد حكمة.

ثم دعا ثلاثة منا، سيميون، أندريه ويوحنا، أولئك الذين
كانوا قربه ليلة اعتقاله وهو يتظر الموت في جبل الزيتون. أراد من
الذين عايشوا محبته أن يساعدوه في تسلّق المنحدر.
وصلنا إلى القمة.

كان يشوع، حينئذٍ، مرهقاً، نحيفاً، جروحاً مفتوحة، تماماً كحادثه لما وُضع على الصليب من قبل. كان جسده ضعيفاً وهشاً حتى نساءنا كيف كان يقف على قدميه أصلاً ومن أين يتزود بطاقتك؟ ليس من عضلاته المتلفة حتماً. وليس من جلده الجاف، وليس من عظامه النائنة. من هذه الجثة الهاوية كانت قوة لا تزال تنبعث، إنها من عينيه، حيث تشبّثت الحياة، حياة قوية، عنيدة، عنيفة، على حافة الغضب.

بلغ يشوع القمة وجثا على ركبتيه منخرطاً في الدعاء. ثم باركنا. «انتشروا في الأرض، زوروا جميع الأمم، وبلغوا الناس جميعاً بالخبر السار. علموهم باسم الرب. علموهم ما علمتكم. مستحدثون بكل اللغات، حتى المحدثنة منها. إذا وضعت أيديكم على المرضى فيشفون. إذا أمكنكم أفاعي فلن تؤذيكم. واعلموا أنني سأكون إلى جانبكم كل يوم، حتى نهاية الكون».

ثم غادرنا عندما شرع يباركنا مجدداً. وتغيرت ملامحه. وابتضت ثيابه أيضاً.

إثر ذلك، شعرنا بحضور مبهم يطوف بمكانه السابق، يتكلمون ويشرع يمينهم، ويتسم لهم كأنه قابل أصدقاءه القدامى.

أغمضنا جفوننا بشدة لنستشف الضوء الساطع، لكننا لم نقدر على تمييز شيء. أفا أولئك الذين كانوا يتمتعون بسمع حاد فقد سمعوا موسى وإيليا يتحدثان إلى يشوع. لم نفهمهما، لكننا التقطنا بضع كلمات كان محورها: أورشليم، العهد الجديد، ورجيله.

لكنّ المشهد لم يكن يخفضنا لأنّ نعاسًا ثقيلًا كساقط يرد الربيع
أصابنا فاضطجعنا على العشب.

«كم دام سباتنا؟ لحظة خفيف أجنحة؟ أم دام قبولة صيفية
طويلة؟ عندما فتحتا عيوننا مجددًا، كان يشوع قد اختفى».

توقفت شهادات الأحد عشر رفيقًا بغتةً. ولم يبق سوى اهتزاز
الصوت من تلك الرؤية الرائعة. عاطفة ما كانت تجمعنا وتطيل من
عمر نشوتنا. إنّا لحظة إيمان، لحظة نشعر فيها بشجاعة على التغيير،
والبداية من جديد. توقف المطر عن المطول. حفظ كلّ واحد منّا
في داخله حرارة الحكاية، تلك الشعلة التي يحافظ عليها، تلك
الشعلة التي تصبح ملكًا له. هبطنا الجبل في صمت. لم يكن لدينا
غير الصمت للتعبير عن الامتلاء الذي نشعر به جميعنا. كان علينا
أن نصيح ونصرخ بلا توقف.

أعرف أنّ كلوديا صارت قريبة، وأنّني سأقبلها قريبًا. لا أستطيع
أن أروي لك المزيد هذه اللحظة.

أحبك يا شقيقي العزيز وأرجو أن تكون بخير.

من بيلاطس إلى العزيز تيتوس

وجدت كلوديا.

كانت تتظرف واقفة، ثابتة، وسط الطريق، كأنّها عل علم
بحضوري إلى هناك. في تلك اللحظة. ظننت أنّي سأطحنها بين

ذراعي. من حسن الحظ أنها ضحكت قبل أن أخفقها عنقاً. ثم
منعتها من الكلام بقبلاقي الطويلة.

عندما انتهت، ضحكت مجدداً.

- تبدو مجنوناً.

ثم قبلني بأنوثتها وغنجها وشفيتها المتمعنين. اشتبهت
مضاجعتها فوراً.

- لا ترحلي ثانية، كلوديا.

- لن أرحل أبداً. عليك الاعتناء بي الآن. صرت هشة. أنا
أحل ابنتا.

من بيلاطس إلى العزيز تينوس

ها قد عدنا إلى قيصريّة.

كل يوم أنا ملّ البحر وأحاول تخيلك، وأتخيل روما، ومزول
طفولتنا وحديقة السرو، تحتبؤون خلف الأفق، لم يتغير منكم شيء،
وستظرونني. لست أقدم لك عذراً عن انقطاع رسائلي إليك لعدة
أسابيع؛ لبس لي عذر واحد. أخي العزيز، ثق أنني أحبك حباً جاً.
لكنّ حاجتي اليومية إلى الكتابة اختفت؛ انتهت إلى أنني كنت أوجه
الرسائل إلى نفسي، وعبرها أتحقّق من انتهائي إلى روما. كنت أرسل
بنات أفكارني إلى أرضنا لتقوية جذوري، وأصرخ أنني غريب
عن فلسطين. كنت أحاطبك بصفتك طبعاً، وأيضاً لأنك أخي،

صورتك مطابقة لأصل صورتي، كأن وجهي قد حفر في لوحة رومانية. كل شيء يبدو اليوم بلا جدوى. ما أهتم به أن تكون غريباً أو أصيل البلد؟ هل يمكن هذا؟ الاندماج في بلد وفي خصوصياته، هو أن تلام مع أي صغيرة وكبيرة. والاكتفاء بأرضك يعني أنك ستتحف. أريد النهوض. ما يهمني عند الرجال مستقبلاً، ليس أصلهم الروماني، أو الإغريقي، أو حتى المصري، وإنما ما يفعلون من طيبة، وكرم، وعدالة، ما الذي يمكنهم القيام به لجعل هذا العالم أفضل.

في اللحظة الراهنة، أوصل واجباني: أحفظ الأمن، أهدد أراقب وأعاقب. قريباً، حالما يولد طفلنا، سنعود إلى روما، حيث سأروي لتيبريوس بنفسه كل ما جرى هنا. لن تصغي لي الدمية المصبوغة الهرمة حتماً. كلوديا واثقة من الآن أن الإمبراطور سيجردني من منصبي، ورغم أنها استغلت علاقاتها قديماً لترقيتي، فإنها لن تهتم مستقبلاً. تكوّر بطنها. نتحدث عن يسوع. وهي تخطط للمستقبل في سكينه. أعترف أنني لا أشاطرها هذا الهدوء. لا أود العيش على وقع ما حدث عند قمة جبل نابور. ماذا رأيت في الواقع؟ لا شيء. ماذا فهمت؟ لا شيء. لم ألتق يسوع سوى مرة واحدة. وهل نسيت هذا لقاء؟ إن اللقاء أمر حاسم، بوابة ماء كسر، لحظة فارقة في الزمن، تخلق لحظة قبل وبعد. حسب هذه الشروط، فإنني لم ألتق يسوع.

ذلك اليوم، جلبوا لي سجيناً، موقف عشته ألف مرة.. كنت

سبب الإعدامات، وكان لي أن أقبل حكم الإعدام الذي طلبته المحكمة الشرعية أو أرفضه، موقف عشت من قبل أيضًا..

أدان القضاة المتهم، لكنه يرى نفسه بريئًا، موقف مستعاد..

هل نظرت إليه فحسب؟ هل تفرست ملامحه؟

لماذا كان عليّ الانتباه أكثر؟ بوصفي موظفًا رومانيًا، كنت أركز على عملي فحسب. ما الذي سيدفعني إلى إيلاء تلك اللحظة نظرة مختلفة؟

لا نرى الناس على ما هم عليه مطلقًا. نرى منهم زاوية محدودة، مبتورة تحددها المصالح الآنية. نحاول تقمص دورنا فحسب في هاته الملهاة الإنسانية، ليس أكثر، وهذا صعب جدًا. كنا زوجًا من الممثلين تلك الليلة. لعب يسوع دور خطأ قضائي. أما أنا، بيلاطس، فلعبت دور الوالي الروماني العادل.

- هل أنت ملك اليهود؟

- لم أقل هذا قط.

- هذا ما يقولونه على الرغم من ذلك.

- من؟

- الذي أدانك، من حملك إليّ، مجلس السنهدريم كله.

- هذا ظلم. هم من قالوا ذلك، وليس أنا، غرضهم من ذلك تدمير، ويؤخذوني على تأكيد قوليهم.

- بالرغم من ذلك، أنت تدّعي تأسيس مملكة؟

- نعم

- إذن؟

- مملكتي ليست من هذا العالم.

بدا حزينا، مليئا مرارة، قد دمره هذا الفشل. ثم تمالك نفسه وصاح بحماس:

- لو أردت أن أصبح ملك هذا العالم، لمنعت اعتقالي ووقوفي أمامك الآن. مملكتي خارج هذا العالم.

- أنت ملك إذن؟

- نعم. أنا ملك، ملك عالم آخر، من حيث أنيت، وإلى حيث أعود. أنيت إلى فلسطين لأتحدث عن الحقيقة. سيستمع إليّ كل من يبحث عنها.

- ما الحقيقة؟

قلتها باستخفاف لأتخلص من هذا الزائر الثقيل. ما الحقيقة؟ توجد حقيقتك، وحقيقتي، والحقيقة الخاصة بالآخرين. كنت أنسب الأمور من موقع روماني نشأ على الشك الإغريقي. تنتمي الحقيقة إلى كل من قالها. عدد الحقائق مساو لعدد الأشخاص. القوة وحدها تفرض حقيقتها عبر السلاح؛ بحدّ السيف، بالقتال، بالاعتقال، بالتعذيب، بالابتزاز، بالخوف، بحساب المصالح، وتفرض على

العقول الانصياع مؤقتًا لعقيدة ما. الحقيقة في صيغة المفرد انتصار، هزيمة الآخر، هذنة في أفضل الأحوال. لكن الحقيقة ليست واحدة؛ لذلك هي لا توجد أبدًا.

- ما الحقيقة؟

قلت هذا وبى ولأ. كنت أهدئ من روعي. لكن هذا اليهودي فاجاني، فقد كان ينصت إليّ، وشرع يرتجف.

صدمت. كان الرجل يرتاب. في العادة يطاء المتزمتون شكوكهم ويشهرون إيمانهم. على خلاف ذلك، كان يشوع يفكر بعمق ويخشى أنه قد سار في الطريق الخطأ، ويتساءل ما إذا كنت أنا المحق... ثم سيطر على ارتجافه، واستجمع قواه، وحنق بي قائلاً في بطة:

- بالفعل: ما الحقيقة؟

ردّ عليّ سؤالي. صارت الكرة في ملعبى وصرت أرتعش تحت تأثير الاستجواب وتغلّكني الخوف. لم أكن أملك الحقيقة، كنت أملك السلطة فحسب، تلك السلطة الشاذة التي تقرّر ما هو جيد وما هو سيئ، السلطة المفرطة على الحياة والموت، السلطة الفاحشة.

وان الصمت. ضاعت الكرة بيننا. خرسنا كلانا. ثورث الصمت بيتنا. تحدّث بألف أمر سريع، غامض وغير دقيق. حدّثني الصمت عني في شكل غريب. ماذا تفعل هنا؟ سألتني الصمت. من منحك حقّ التحكّم في الرقاب؟ من يقودك إلى اتخاذ القرارات؟ راودني شعور بالاستتراف. لم يكن إرهاب السلطة الذي خبرته، فهو لا

يحتاج إلى غير الراحة؛ كان سأمًا بطليًا يخدّر جسدي كالسمّ: سخافة السلطة. ما الذي يميّزني من متسوّل يهوديّ؟ ولادتي في روما ومنصب يهني أسلحة وجنودًا.. هل من قيمة لكل هذا؟
- ما قيمة الحقيقة؟

هكذا حوّل اليهوديّ سؤالي عن الحقيقة. ما الذي يستحقّ الافتتال؟ الموت؟ الحياة؟ ما قيمتها حقًا؟

كلّما ارتفع صوت الصمت، ازداد شعوري بالوحدة. لكن، بشكل عجيب، وجدت لذّة وأنا أطفو على هذه الحالة: صرت حرًّا. أو تحرّرت من القيود والأغلال التي كنت أجهل لدغتها المؤلمة، قيود السلطة لا قيود العبودية..

إنّ حلم اليقظة هذا، أثابني قلق الكهنة خلف الباب إلى رشدي وحاولت إنقاذ يشوع دون جدوى.

ماذا رأيت إذن؟ لا شيء. ما الذي فهمت؟ لا شيء أيضًا.

خلال قضية يشوع، حاولت إنقاذ العقلانيّ، كلّفتني إنقاذه ما كلّفتني من برائن اللغز، إنقاذ العقلانيّ حتّى بصورة غير عقلانية.. قسّلت! أدركت وجود ما لا يمكن فهمه. هذا ما حطّ من غروري وزاد في جهلي. فقدت كلّ يقين، التحكّم في حياتي، معرفة الرجال، لكن ما الذي غنمت؟ شكّرت ذلك إلى كلوديا مرارًا: في السابق، كنت رومانياً يعلم؛ والآن صرت رومانياً يرتاب. كانت تضحك، ونصفك كائنٍ مهترج.

- الشك والإيمان أمر واحد، ببلاطس، عدم الاكتراث وحده
إلحاد.

رفضت أن تصتفتي مع من تشيع ليشوع على هذا النحو.
أولاً، كان منصبي بمنعني: حلفائي، كهنة المعبد الذين يقودهم
قيافا، يتصدون بعنف لهذه العقيدة الجديدة ويطاردون الأتباع،
ونيقوديموس، ويوسف الرامي، وشوزا، وحتى سيميون المسكين،
ذلك المار الذي حمل الصليب صدفة. بالإضافة إلى ذلك، لي الكثير
من الأسئلة البالغة حتى أكون رأياً صريحاً.

هل تذكر ذلك القول المأثور الذي كان كراتيريوس يكرره كلما
درسنا؟ «لا تؤمنوا أبداً بما أنتم على استعداد للإيمان به»، قارنته
مرات عديدة بإيمان كلوديا أثناء النقاشات التي جمعتنا.

- كنت تريدني تصديق كل ما يقوله يشوع يا كلوديا، حتى قبل
أن يثبت أنه رسول الرب.

- طبعاً. هي رغبة في أن أؤمن بقيمة الطيبة، وبأن الحب ينتصر
على الأحكام المسيئة، وألا تكون الثروة هدفنا الوحيد، وأن
للعالم معنى، وألا نخشى الموت.

- إذا كان هذا رجاء، فهو يعني أنك تحققين حاجة بك، ولا
تظنن ظمأ الحقيقة.

- ما الذي تتطلبه الحقيقة؟ ترك الملذات؟ القلق؟ حسب رأيك،
هل نصدق سوى ما لا يعجبنا؟

- لم أقل هذا أيضًا.

- طيب، هل فهمت؟ ليست الملذات أو تركها معيارًا للحقيقة.

لكن، في هذا الموقف لا يتعلق الأمر بالتذكير أو المعرفة.

الإيمان، ببلاطس، الإيمان

يتطلب هذا الإيمان نشاطًا جمًّا. ولا يحتاج حتى اللحظة إلى أي عبادة، على خلاف الطقوس الإغريقية أو الرومانية، لكنه يستترف الروح فيهم، لذلك أظن أن لا مستقبل له.

شرحت ذلك لكلوديا مرارًا. أولًا، ظهر هذا الدين في مكان غير مناسب؛ إذ تطلّ فلسطين بلدًا صغيرًا ليس له إشعاع كبير على عالمنا اليوم. ثم، لم يدعُ يسوع سوى الأميين، وصغار الصيادين من بحيرة طبرية وهم، باستثناء يوحنا، لا يتكلمون سوى اللغة الأرمنية، العبرية بصعوبة، والإغريقية بشكل سيئ. ما مآل قصته عندما يعوت آخر من شهوده؟ لم يدون يسوع شيئًا، سوى على الرمل أو الماء؛ ولم يكتب رفاقه أيضًا. بالمناسبة، هل كانوا يجيدون القراءة؟ أخيرًا، نقطة ضعفه الكبرى أنه رحل سريعًا؛ لم يجد ما يكفي من الوقت لإقناع كثير من الناس، ولا حتى الأشخاص المؤثرين. ماذا لو قصد أئينا أو روما؟ لماذا غادر حتى الأرض؟ لو كان نجل الرب كما ادعى، لماذا لم يخلد بيتًا؟ ويهدينا بالمناسبة. ويجعلنا نعيش الحقيقة. لو خلد هنا لما ارتاب أحد في دعوته.

سبب تفكيري موجة من المرح لدى كلوديا. وزعمت أنه لم يكن ليسوع شيء يدفعه إلى البقاء. قدومه لمرة واحدة كان كافيًا. لم

يكن عليه تقديم دلائل عديدة. لو تجلّى بكلّ وضوح لاضطرّ الناس إلى الركوع أمامه. لكنّه منح الإنسان مسحة من الحرّية. هو يضع هذه الحرّية في اعتباره لنؤمن أو لا نؤمن كما نشاء. هل نحن مجبرون على الانضمام إليه؟ أمجبرون نحن على الحب؟ الحب والإيمان لا يكونان بغير رضانا. يحترم يسوع الإنسان. حكايته علامة وعليّنا تأويلها. احترامه لنا لا يجعله يجبرنا على شيء. تقديره لنا يمنحنا مجالاً للشك. إنّ فرصة الاختيار التي يمنحنا إيّاها هي عنوان لغز يسوع.

يربكني هذا الخطاب دومًا ولا يقنعني.

تعدّدت رسوم الحوت على تراب فلسطين وغبارها! افتحها الحجاج بآطراف عصيتهم مثل مفتاح مرّي للجماعة التي تسع شيئًا قشيشًا.

أعلمني جواسيسي بأنّ أتباع يسوع اتخذوا اسمًا: النصاري، أتباع المسيح، ذلك الذي اصطفاه الربّ، وأنهم يملكون علامة يستدلّ بها عليهم، يحملونها كقلادة: الصليب.

ارتجفت قوّر سماع هذه الغرائب. يا لها من فكرة همجيّة! لماذا لم يتخذوا مشتقة، فأما أو نحنجرًا؟ كيف ياملون التفاف المؤمنين حول الحادثة الأكثر هوانًا من قصّة يسوع؟

عندما أخبرت كلوديا بذلك، شرعت تفكّر بصوت عالٍ:

- ليسوا على خطأ. حتّى لو كانت العلامة مريضة، فإنّ يسوع

كشفت لنا أهم الأمور على الصليب. لقد رضي بالصليب حيًا في الناس. وبعث حيًا ليرينا أنه محق حين دعا إلى الحب، وأنه يجب التحلي بالشجاعة على الحب في كل الظروف حتى لو تم تكذيبنا.

أخي العزيز، لا أود أن أشغلك أكثر بقلقي وتفكيري. مستنح لنا متعة الحديث قريبًا، عندما نعود إلى روما. ربّما نتلاشى أفكاري أثناء الرحلة، واكتشف، عندما أطلأ مرفأ أوستيا، أنه كان عليها ألا تغادر فلسطين؟ أن المسيحية، هذه الحكاية اليهودية، قد تذوب في بحرنا؟ أو ربّما تتبني أفكاري إلى هناك. من يعلم الطريق الذي تسلكه الأفكار؟

ملاحظة: هذا الصباح، قلت لكلوديا التي تزعم أنها مسيحية، إنه لن يوجد سوى جيل واحد من النصاري: أولئك الذي شهدوا بعث يشوع. سيندثر هذا الإيمان عند موت آخر شيخ يعمل ذكرى ملامح يشوع وصوته عندما كان حيًا.

- لن أصبح نصرانيًا أبدًا، كلوديا. لم أشهد شيئًا، فأنني كل شيء، وصلت متأخرًا جدًا. لو رمت الإيمان، فعليّ تصديق شهادات الآخرين أولاً.

- إذن، هل يمكن أن تكون أول مسيحي؟

صدر للمؤلف نفسه
عن دار مسكيلياني

ليلة النار

المؤلف: إيريك إيمانويل شميت
البلد: فرنسا
ترجمة: ليلى بدر

نصف هتلر الآخر

المؤلف: إيريك إيمانويل شميت
البلد: فرنسا
ترجمة: ونام غداس

انتقام الغضبان

المؤلف: إيريك إيمانويل شميت
البلد: فرنسا
ترجمة: أبو بكر العيادي

فيليكس والنبح اللامرئي

المؤلف: إيريك إيمانويل شميت
البلد: فرنسا
ترجمة: سحر ستالة

إبريك إيمانويل سميت
الرجل الذي صلب المسيح
أو الإنجيل برواية بيلاطس

«اختفت البخنة!»، هكذا صدح، منذ ألفي عام، أحد جنود كتيبة
بيلاطس الروماني بعدما أُلقي القبض على بشوع الناصري بجبل
الزيتون على مشارف أورشليم واقنيد إلى المحاكمة والموت.

هل كان بشوع يعلم أنه المسيح منذ البداية؟ هل اكتشف نبوته بعد أن
هجر مشعله وأخشا به؟ هل حلم يوماً بالموت مقبداً إلى صليب أعدّه
نجاؤه من أجل نجاؤه آخر؟

يُعيد إبريك إيمانويل سميت تركيب حكاية أيام المسيح الأخيرة مُزجاً
عنها ستار الغموض في رواية استغرقت كتابتها ثمان سنوات، ليجعل
من «الرجل الذي صلب المسيح» إنجيلاً خامساً يكشف بجرأة عما
غاب في الأناجيل الأربعة السابقة.

يتنصر سميت للحب والإيمان في مواجهة القدر العاشم والخوف
والريبة الخائفة، ويضعنا أمام حقيقة صادمة: بالحب وحده يواجه
البطل جلّاده إلى النهاية، أمّا الموت فليس إلاّ بداية...

وليد بن أحمد